

اهداءات ١٩٩٩

المرحوم فضيلة الأستاذ

الدكتور / محمد عبد الله دوان

وزارة المعارف العمومية

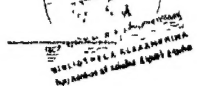
مختارات الأسيلا

في دار السلام

General Organization
of the
Bibliotheca Alexandrina

تأليف

جميل نخلة المدور



General Organization Of the Alexandria Library (GUAL)

Bibliotheca Alexandrina

حق الطبع محفوظ لوزارة

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصرًا من عصور الاسلام قد أشرق به نور العلم .
وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجالٌ كبراء ملئوا العالم بآثار جمالهم ، وجعلت
الكلام فيها لرحالة فارسيّ طَوْفُهُ معظم البلدان الاسلامية في المائة الثانية للهجرة .
وطَوْفُهُ مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد كما تراه في موضعه
من الكتاب .

فكان في النفس ومن عزم بعض خلاني على أن أبقى الحديث على لسانه
إلى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيق فيه بتجميل الاسلام من علم وحلم وعفاف .
غير أني كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكاية لا يحلّي جيدها صواب .
ولا يرجع باسنادها إلى كتاب إذا أبقيت للفرس مراتبهم بدولة العباسيين بعد
نكبة البرامكة . لأنني أوجب على نفسي أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضت
الحال أن تكون . غير واصل الأشياء إلا بصورها ولا ممثل الحوادث والأخبار
إلا بما كان معلقًا في الخواطر جاريا على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت
على الأسباب التي عظمت المسلمين ونهضت بهم إلى فتوح العالم أعرضت عن ذكر
ما دعاهم من بعد إلى التواني والانحطاط . كما أني وقفت فيما وصفت من علومهم
عند حد الخبر المجرد من غير أن أتبع في آدابهم آثار الحكمة التي اقتبسوها من يونان ،
ولا أن أتقصي الغاية التي وصلوا إليها من الفنون والصناعات لما لا ينفي من حدوث
ذلك كله بعد الرحلة وما وجب على في تأليفها من النظر إلى عصر الرشيد لا إلى ما بعده
من الأيام .

(د)

وقد اتخذت في الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ما وقع في حديث الرحالة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الأقدمين . وإني لأرجو أن ينتفع إخواني بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدني وإياهم إلى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا نص ما كتبت في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب وقد بدا لي بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعف في بعض الروايات التي كنت عوّلت عليها وتحريف في ذكر بعض الوقائع الإسلامية يرجع عيبه إلى السند الذي أخذت عنه فلزم أن أرجع إلى صفحات الكتاب بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل . وإني أشكر إدارة جريدة المؤيد الغراء التي ساعدتني في مراجعاتي لما ورد في هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع في هذه الطبعة الجديدة . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم ونفي عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الأسانيد الضعيفة .

بفاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كله روضة المطالع . وعمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما يقتنى لتنزيه النفس . وقد عقدت النية إجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب على متابعة سرد التاريخ الإسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات . وتنسيقها في مثل هذا السِمْط من درر الآيات اليبينات . والله يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وهو ولي التوفيق والهادي إلى أقوم طريق .

جميل مدور

فهرس

كتاب حضارة الاسلام في دار السلام

صفحة

الرسالة الأولى — كتبت في النهروان سنة ١٥٦ للهجرة

- ١ قدومى إلى العراق — ابتداء حديث الرحالة . يذكر قدومه إلى العراق . ولقاءه بعض علمائها
- ٤ ذكر البصرة وأما كتبها المشهورة — وفيه وصف عمران البصرة . وصبر أدلها على طلب العلم
- العرب البادية وتنف من أخبارهم — وفيه ذكر طبائع الأعراب وكرمهم وعفافهم وأنفة نفوسهم واستنكا فهم عن طاعة الملوك . وأن الفرس والروم لم يتغلبوا إلا على المتصرين
- ٨ من العرب
- الانفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الخجاج — وفيه ذكر مدينة واسط وتنف من أخبار الخجاج
- ١٣ وأنه قوم ملك أمية في العراق والحرمين بمن معه من جنود الشام
- المرور بمداثر كسرى أنوشروان — وفيه وصف إيوان كسرى . وتخطئة الخليفة أبي جعفر
- ١٧ في تخريبه . وأن حفظ الآثار الجليل لجيل أثر للولك الغالبين

الرسالة الثانية — كتبت في بغداد سنة ١٥٧

- مقامى في دار السلام — يذكر الرحالة قدومه إلى بغداد . والتقاءه بالخليفة في بعض المساجد
- ٢٠ مصليا . ونزوله ضيفا على القاضي أبي يوسف
- ذكر شىء من محاسن الزوراء — فيه وصف بغداد وإقليمها وعموانها . وبلوغ أهلها من السعة
- ٢٣ ما لم تلغه الأمم المترفة من قبلهم
- في تقرّبى من رجال الدولة — يذكر الرحالة تقرّبه من البراءكة وآل المهلب وأمرأ شيبان .
- ودخوله على معن بن زائدة . وما جرى من الحديث بحضرته عن أبي مسلم الخراسانى . وأنه
- ٢٧ ما نكب أبا مسلم إلا ميله مع أهل البيت
- لمعة من أخبار أبي جعفر — وفيه أنه يقدم الموالى في مراتب الدولة خوفا من ميل العرب مع
- ٣١ أهل البيت . ويمسك يده عن العطاء ليقعد الناس عن الخروج عليه في دعوتهم
- ذكر الفتوح وأن العدل هو الذى حفظها للمسلمين — وفيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم . وحفظ
- الخلفاء الراشدين سنته . ودخول الناس أفواجا في دين الاسلام . وأن العدل هو الذى
- ٣٤ فتح الدنيا للمسلمين

الرسالة الخامسة — كتبت في بغداد سنة ١٨١

والحديث فيها تابع لرسالة كتبت في خراسان ولم تطبع هنا

- طرف من أخبار المهدي والهادي — وفيه يذكر الرحالة عوده إلى بغداد بعد طول الغيبة عنها .
 ٨١ وما حدث من أخبار المهدي والهادي إلى أن صارت الخلافة إلى الرشيد
 جمال بغداد بالرشيد والبرامكة — وفيه إمامة الرسيد أبيه الملك . واسترسال أهله في الدعة
 ٨٦ والعيم . وأن البرامكة وأولادهم زينة الملوك
 ترف البغداد وذو الغناهم في طيبات العيش — وفيه ذكر تحارتهم مع جميع الأمم واجتماع محاسن
 ٩٠ الدنيا عندهم . وإقامة النخاسين سوقا لبيع الجوارى في مدينتهم
 دخول على هرون الرشيد — يذكر الرحالة ما لقي من أنس الرشيد به . وما وجد منه من
 ٩٢ الاضطراب في تقديم المأمون على الأمين بالولاية مع أن بي هاسم ماثون إلى الأمين ...
 الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر — وفيه أن الرشيد من فضلاء الملوك وعقلائهم . وأنه أصلح
 من حده المنصور سياسة . يفيم في الرعية سلطانه بسياسة الرق اتساعا بالنجيل وتقربا من
 ٩٦ الخير . ظلم ولا ظلم وروق ولا عنف
 البرامكة نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها — وفيه أن الدولة قائمة بيجي البرمكي . وأن إصدار
 ٩٩ الأمور إلى الفضل وجمعه . وأن التواد الذي بين الرشيد وجمعه لم يكن مثله بين أخوين ...
 صلاح التجارة والمعاملة — وفيه كلام عن السكة . وما قام به الرشيد من تقديرها بعد أن
 تفاحش الغش في التجارة . وما كان في نيته من فتح البحر عند السويس لوصل البحر
 ١٠٧ الرومي ببحر القلزم
 زينة الدولة بالعلم والأدب — وفيه ذكر محاسن دولة الرشيد . وأنه اجتمع ببابه من العلماء
 والأدباء والشعراء ما لم يجتمع على باب حليفة غيره قط . وأن زينه مجالسه ثلاثة أبو نواس
 والأصمعي وإسحق النديم . كلهم إمام في الأدب ولكن غلب على أبي نواس الشعر وعلى
 ١١٢ إسحق الغناء وعلى الأصمعي النوادر والأخبار

الرسالة السادسة — كتبت في بغداد سنة ١٨٥

- بيت الرشيد — وفيه صلاح الرشيد وتقواه . وذكر مواليه وجواريه وترف ذويه وذكا .
 ١١٩ المأمون من أولاده . وتعلق أورد بيته بمسرور العبد . وصنع زبيدة زوجه أعمالا يتباهى
 بها الملوك
 جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم — وفيه مسامحة دورهم دور الرشيد في البهاء والاشراق . وقصد
 ١٢٧ المؤمنين إليهم من أبعد الآفاق . وذهاب كرمهم مثلا في سعة العطاء والاتفاق

(ح)

صفحة

- الدولة في خلافة الرشيد — وفيه أن دولة الرشيد أوسع دول الخلفاء رقعة مملكة . وأنه يغالب
الروم ويسلط عليهم سيف الاسلام ليس طمعا فيما يميلون إليه من الحرية ولكن لتعزيز الملة
والدولة . وأن السياسة التي اتبعت خاطره كانت متجهة إلى إدلال العلويين في المغرب ... ١٣٥
- عمران بيت المال — وفيه ذكر المحمول من عين وورق وأمتعة إلى بيت المال . وتدوين
الخراج في الدفاتر لايجاد الموازنة بين دخل الدولة ونخرجها ... ١٤١
- مجلس الغناء بدار الرشيد — وفيه خبر الخلاف الذي وقع بين إبراهيم المهدي وإسحق النديم
في صناعة الأصوات . وأن هذه المناظرة داعية إلى الاجادة في الغناء ... ١٤٥

الرسالة السابعة — كتبت في بغداد سنة ١٨٥

- في ذكر آداب العرب — وفيه يذكر الرحالة شهوده مجالس الأدباء والشعراء بدار الرشيد .
وتعريب البرامكة كتب الفلاسفة من قوم يونان . وبلغ العرب الغاية التي يروونها من علم
أو أدب أو صناعة في أقصر مدة من الزمان . وأن متاهم في سرعة تحصيل العلوم مثلهم
في سرعة فتوح البلدان ... ١٥٩
- الطب والأطباء — وفيه أن النصارى برعوا المسلمين في الطب . وتقدموا عليهم بذلك
في دور الخلافة ... ١٦٢
- النحامة وعلم الأفلاك — وفيه أن المرس برعوا العرب في علم النجامة وأن المقرب لهم في الاسلام
الخليفة أبو جعفر . وأن أحمد النهاوندي صور الدنيا للرشيد ... ١٦٥
- الحديث وعلوم الشرع — وفيه أن الحديث هو العلم الذي صبت إليه أفئدة المسلمين . وأن مالكا
أصح الناس حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم ... ١٦٩
- في تدوين اللغة — وفيه أن اللغة إنما قيدت اضطارا إلى تفسير القرآن . وأن السابق إلى
تدوينها هو الخليل بن أحمد . وأن أهل الور يحافظون على قوام اللسان العربي . وأن
كلام السوقه وألفاظ المعربين داخل في لغة الحضارة ... ١٧٢
- الشعر في البداوة — وفيه ملكة العرب في قول الشعر . ونظار في المعلقات السبع . وإجادة
الشعراء في ذكر الربوع والأطلال ووحشة الديار إلى حيث يقف حد البلاء ... ١٧٥
- الشعر في الحضارة — وفيه أن الشعر في الحضرة أرق منه في البداوة . وأن أزمته في الاسلام
ثلاثة : زمن عبد الملك وشعراؤه جبر والفرزدق والأخطل . وزمن المنصور وشعراؤه من
تقدم ذكرهم . وزمن البرامكة والكلام في شعر أبي نواس وأبي العتاهية ... ١٨١
- الغناء وتحريره وإصلاحه — وفيه تمييز الأصوات . وذكر من كان أصل الغناء عند العرب
ومكانة إبراهيم الموصل وأبنيه إسحق من هذه الصناعة ... ١٨٨

- لمعة في علوم الفلسفة عند العرب — وفيه إشارة إلى ما حصله العرب من العلوم الرياضية .
 ١٩٣ والعلوم المنطقية والعلوم الطبيعية . والعلوم الطبية وذكر ما لهم فيها من تعريب أو تأليف ...
 أدب السير والحكايات — وفيه ثناء جميل على كتاب كائلة ودسة . وبطارة في كتاب ألف ليلة وليلة
 وتعريبه عن الفارسية . وتصرف النساخ فيه وأنه من أطرف الكتب التي وضعت في عابر
 الدهر
 ١٩٨ تدوين الأخبار وأيام الناس — وفيه أن أيام العرب كانت محفوظة في الشعر أو مناقلة على
 الألسنة بطريق الاسناد إلى أن سطرت في الكتب في زمن الخلفاء
 ٢٠٦

الرسالة الثامنة — كتبت في بحر تونس سنة ١٨٦

بعد انصرف الرحالة من بلاد الروم

- رسالتى إلى قيصر الروم — وفيه ذكر أطفاف الرشيد إلى قيصر الروم . وأن الرحالة هو الذى
 ٢١١ حملها إليه . وبلغه ما يريد الرشيد من موافقته على بنى أمية لينتزع الأندلس من أيديهم ...
 المرور بالكوفة وبلاد الشام — وفيه ذكر مسير الرحالة إلى الكوفة . وحب الكوفيين
 لاهل البيت . وشئ من محاسن الشام وأهل بلاد مباركة من الله ولكن غلب على أهلها
 الشقاق فعلمهم الأمم على مملكتهم
 ٢١٤ وصف دمشق وأنها بهجة البلدان — وفيه أن دمشق ماء ونماء . وأن أهلها أحسن الناس خلقا
 وخلفا . وذكر تنف من أحبار بنى أمية حدث بها الرحالة مغنية كانت للوليد بن يزيد ...
 ٢١٩ جامع الوليد المعروف بالجامع الأموى — وفيه أن الوليد بن عبد الملك عرض النصارى عن
 نصف الكنيسة التي كانت موضع هذا الجامع بعدة كنائس صالحهم عليها . وأنه استقدم لبنائه
 صناع الروم . وأقام فيه العمدة المجزعة وصور على الحيطان المدن والأشجار والأزهار .
 واتخذ فيه قناديل الذهب وصبره نزهة العالم
 ٢٢٦ المرور بعلمك وركوب البحر من بيروت — وفيه وصف آثار علمك وأنها من بناء الروم لا من
 بناء سلمان . وقد رفعوها بالحيل الهندسية والقوة الآدمية وقصدوا منها المعجزة ليظهروا
 ٢٣٠ ضخامة ملكهم لأهل المشرق . وفيه كلام على بيروت وأنها مدينة العلم والحكمة
 لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة — وفيه بيان عادات الفرنجة واندثار علومهم في ذلك الوقت
 إلا ما حفظ الرهبان في أديارهم . وذكر لقاء القيصر . وأن خاطره يتوافق مع خاطر جعفر
 البرمكي في العدول عن مناجرة الأمويين
 ٢٣٥

الرسالة التاسعة — كتبت في المشاعر المباركة سنة ١٨٦

- المرور بتونس من بلاد المغرب — وفيه خبر الأغاللة في تونس . واستقوا أهل البيت
 ٢٤٢ في المغرب . وذكر القرآن الذى كتبه عثمان بحضور من الصحابة

- في ذكر الاسكندرية — ومعاش الصارى فيا من الرغد . واختلاطهم مع المسلمين وجههم
بالانجيل وإحاج آيتهم إلى الاسواق... ٢٤٥ ...
- الديار المصرية والنيل — وفيه وصف البلاد . وعمرانها بالناس واتساع أسباب الكسب
وما يفيض عليها من الخير والبركة... ٢٤٩ ...
- في وصف الأهرام — وفيه صفة الأهرام . وبنائها لحوذا للفراغة الذين كانوا يقولون
بالرجعة إلى هذه الديار . وأن مؤثدا دليل على طم الراعة واشتداد أمرهم على الرعية... ٢٥٣ ...
- إلى عذاب بختة فالبلد الحرام — وفيه اجتياز الرحالة أرض مصر إلى عذاب في طرف البر .
وما كان من احتياله لاستصحاب المساء إلى الصحراء... ٢٥٦ ...
- في ذكر المشاعر المباركة — وفيه وصف مكة المكرمة . وتبرك الرحالة بوفادته على البيت الحرام
وذكر ما أحدث فيه من البناء... ٢٦٢ ...
- موافاة الرشيد بالمدينة — وفيه وصف المدينة المنورة وما حوت من المشاهد الكريمة والآثار
المباركة... ٢٦٧ ...
- الرشيد والبرامكة في مكة — وفيه تحول الرشيد عن البرامكة بحيلة الفضل بن الربيع الذي أوعز
صدره عليهم من العداوة ومصانعة الرشيد بلعقر حتى لا يستب إلى ما يريد به من المكروه .
ولبعاده الرحالة عن البرامكة في رسالة بعثه بها إلى الرقة... ٢٧١ ...

الرسالة العاشرة — كتبت في بغداد سنة ١٨٧ للهجرة

- أصبحت سادة كانوا عيونا بهم نسق إذا انتطع الغمام
وفيهم رجوع الرحالة متحفيا إلى بغداد وقتل جعفر البرمكي... ٢٧٦ ...
- وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة — وفيه عم الخطب في الدولة بعد نكبتهم . ومصير
الأمر بعدهم إلى رجال لا عزيمة عندهم ولا عزيمة . واتفاق الناس صدعا واحدا في لوم
الرشيد على قتلهم... ٢٨٢ ...
- فيما يتحدث به الدس من أسباب فتك الرشيد بالبرامكة — وفيه يذكر ما دار على السنة العوام
من سبب نكبتهم . ويذكر أنه ما نكب البرامكة إلا ميلهم مع أهل البيت... ٢٩٠ ...
- خاتمة الكتاب — يحتم الرحالة حديثه بنظرة عامة في الاسلام وانحيازه إلى دول ثلاث كبيرة
"العلوية والأموية" :

- ثم ينظر في أحوال العباسيين ويذكر حيلهم إلى خلافة الرشيد ويقول إن دولتهم تحتاج إلى رجال
عقلاء يدرون سياستها ويدرون أمرها . وأنها إذا سقطت في يد خليفة قليل الخبرة بأمر
الملك لا تقوم لها قائمة بعد ذلك . وهذا آخر الكتاب... ٢٩٥ ...
- جدول الكتب المستند إليها حديث الرسالة... ٢٩٨ ...

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى

قدومى إلى العراق

أتيت مدينة السلام في السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم لآتخرج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن إبراهيم بن خنيس الأنصارى^(١) ، وكان خليلاً لأبى (رحمه الله) على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين ، فركبت البحر من هُرمز في ربح رخاء زجتُ مركبنا إلى البحرين فأطراف العراق أهناً ترجية ، فلما حاذينا الساحل مما بلى البصرة طلعت علينا ريح عاصفة ، وانحدر بنا الموج إلى منعرج في البر كله رمال ومهاوى ماء . فبتنا ليلتنا فيه على أشد ما يكون من الخوف إلى أن طلع الفجر ، فأقبلت علينا من صدر البحر سفينة حملتنا إلى عبادان ، وأرست بنا على مُطلٍّ من خشبات تنهى المراكب إليها ولا تتجاوزها خوفاً من الجزر^(٢) لثلاث تلحق بالأرض وتغوص في الطين الذى يأتى دجلة به^(٣) في انسيابه ، وهذا البحر في مسامتة العراق شديد على السفر ، ولا يُحمد منه إلا عُمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات^(٤) الدر والياقوت والعقيق

(١) هو أبو يوسف القاضى .

(٢) المسعودى ١ : ٥٠ .

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ .

(٤) ابن خرداذبة ٦١ والمسعودى ١ : ٥٢ .

وغير ذلك ، وهى باب واسع لطلاب الرزق ، وللغواصين عليها أخبار غريبة
فما سمعت ، حتى قيل إنهم يشقون آذانهم للتنفس ويجعلون فى آنافهم القطن
ويصطنعون وجوها من الذَّبَل كالمشاقيص ، ويدهنون أبدانهم بالسواد خوفا من
أن تبتلعهم دواب البحر ، ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتغييرها عنهم ،
فاذا بلغوا القعر عصروا دهنا يضىء منه البحر إيرا والأصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ ،
وتكن مدفونة فى أرض البحر رملا كانت أو طينا . ومما يزعمون^(١) فى هذا اللؤلؤ
ان تَلَدَه من مطر نيسان إذ تكون الصدف مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها
القطرات فتتربى فيها دررا رائقة الصفاء .

ولما أخذت نصيبا من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البصرة ونزلت بها
فى موضع^(٢) يعرف بسكة بنى سمرة بازاء دار الهيثم بن معاوية أميرها . وقد طاب لى
فيها المقام بما وجدت من اتناس أهلها إلى الغريب حتى ينسى فى جوارهم أهله^(٣)
بما يأس عندهم من مظامر الأتس والمودة ، ووجدت لهم صبورا على طلب العلم
يتخذون المكاتب^(٤) لأولادهم وحاتق العلم لأدبائهم ، وتشدد إليهم رحال الطلب من
جميع الوجوه ، لأن لهم من الأدب المكان الذى لا يُرَقى ، غير أنى لم أرفيهم إلا
وهن البنية سقيمها وأصفر اللون كاسفه^(٥) ، وذلك ناشئ فيهم من عفونة الماء
ووقوع إقليمهم فى مهاب الرياح المختلفة التى تتبدل فى اليوم الواحد ألوانا وضروبا ،
فيجبرون على لبس القمصان مرة والمبطنات أخرى ، ولذلك سميت مدينتهم
بالرعاء ، أذشد الفرزدق^(٦) :

لولا أبو مالك المرجو نائله ما كانت البصرة الرعاء لى وطنا

(١) الديميرى والقزوينى والقرمانى .

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٣) ابن بطوطة ٢ : ١٠

(٤) الألبشهى ١ : ١٧٧

(٥) الأغاني ١٧ : ٧٨

(٦) ابن بطوطة ٢ : ١٦

وقد لقيت فيها جماعة كثيرة من الأديباء مثل عبد الكريم بن أبي العوجاء والمؤرّج السدوسي الرواية ، والحسن بن هاني الشاعر^(١) والنضر بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري لمخالفة في المذهب ثم سمي الناس من ذهب مذهبه بالمعتزلة^(٢) لذلك ، وشهدت حلقة عتبة القحوي وأبي زيد الأنصاري ويونس النحوي ، وله أعظم^(٣) حاققة في البصرة من حلق علمائها ، وسمعت الحديث عن سفيان بن شعبة الثوري وشعبة بن الحجاج العتكي ، غير أني ما اصطفت منهم لمحدثات الأدب إلا الخليل بن أحمد ، لأنني وجدته أوسعهم عقلاً^(٤) ، وأحضرهم رواية ، لا يساميه في علو الخاطر إلا صالح ابن عبد القدوس الشاعر ، ولكنني تحاميت مجلسه لما يتهم به من الانحراف عن السنة^(٥) ، وإن كنت لا أبخس عقله حقه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجهد نفسه في طلب الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلا بعد عصب الريق وفي قوله :

لو يرزقون الناس حسب عقولهم ألفت أكثر من ترى يصدد

إشارة إلى ما هو فيه ، وأن النعمة تصيب غير أهلها ، بخلاف الخليل بن أحمد فإنه متقلل من الدنيا راض منها باليسير ، والملوك تبذل له المال^(٦) ولا يقبل منهم شيئاً مع مكانه من الحاجة إليه . وقد اشتهر فضله بين الناس بعلم العروض ، وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الأبحر الخمسة عشر ، غير أن سموه في العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده ، إذ له في اللغة كتاب سماه العين وأودعه من عيون العلم^(٧) ما هو زينة ونفخر لدولة الاسلام .

(١) هو أبو نواس ذكر الأغانى ٦ : ١٧٩ أنه كان مقماً بالبصرة في صباه .

(٢) المستطرف ١ : ١٢٦

(٣) العقد ٣ : ١٣٧

(٤) ابن خلكان ١ : ٢١١

(٥) الأغاني ١٣ : ١٥

(٦) الشريشي ٢ : ٢٦٨ والابشهي ١ : ١٧٦

(٧) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١

ذكر البصرة وأما كتبها المشهورة

ولقد ظننت البصرة لأول وهلة ليست بالمفرطة الكبر ، فلما طفت في ساحاتها ، وجلت في أرباضها ومحلاتها ، بدا لي أنها متسعة البقعة كثيرة العمران ، قل أن يكون بها موضع عُقْل من العمارَة خلو من السكان . ومبانيها على الغالب من اللبن إلا ما كان من المسجد الجامع فإنه مبني بالصخر والجص على أتم إحكام وأبدع صناعة ، وأول من بناه عُتْبَة بن غَزْوَان ، أقامه من القصباء لأجل أن ينزعه متى شاء ثم يعيد إقامته ، فلما جاء أبو موسى الأشعري بناه باللبن وطلى جدرانه بالأصباغ . ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفة التي في مقدّم المسجد^(١) ، وحمل إليه العمود المنحرفة من الأهواز ورفع جدرانه بالحجر والجص^(٢) ، ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمت زيبته وكثرت له الوقوف الواسعة . وفيه اليوم قاض يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم وعشرين ديناراً فما دونها^(٣) تخفيفاً عن الدواوين التي تنظر فيما هو فوق ذلك من قصايا الناس .

ثم سرت من هذا الجامع إلى مسجد عليّ عليه السلام ، وإذا صحنه مفروش بالحصباء الحمراء ، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفرس ومن يقول بخلافة أهل البيت ، وهم يجتمعون فيه ويتبركون بمزاره ، كأَنَّ وعيدَ أبي جعفر لم يجد منهم نفوساً راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية والعباسية . ووجدت في بعض مقاصيره مصحفاً عليه أثر دابغ مثل الدم الجاف ، يقال إنه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قتل^(٤) ، وبعد أن قضيت زيارته المباركة جلّت في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج ، ولا غرو

(١) الاغانى ١٧ : ٢٨

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٢

(٣) المساورى ١٢٣

(٤) ابن بطوطة ٣ : ١٠

فإن هي إلا فُرْصَةُ العراق والشام وخراسان وما إليها من البلدان العالية مما يسكنها حسن الموقع ، بحيث لا يصدر شيء من هذه البلدان ولا يرد إليها إلا من البصرة (١) ، ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبة الاسلام .

ومما يذكر عن بنائها ما حدثني به الهيثم أميرها أن المسلمين افتقروا في صدر الدولة إلى منزل ينزلون به وإذا دهمهم عدو لحثوا إليه واعتصموا به ، فبعث عمر (رضي الله عنه) عتبة بن غزوان المتقدم ذكره وأوعز إليه أن ارتد لنا موضعا في جهة العراق قريبا من المرعى والماء والمختطب ، فكتب له من البصرة اني وجدت أرضا كثيرة القِصبة في طرف البر إلى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء (٢) فكتب إليه عمر أن ينزلها بمن معه فوق تمصيرها في السنة الخامسة عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما جلست إلى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأول ، أخبرني أن البصرة إنما اختطها العرب نكاية بالفرس لتحويل التجارة من سواحلهم إليها ، وذلك أنهم لما صالت منهم الأجناد ، واتسعت بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينة فُرْصَةً لجميع المشرق ، ففشمت العمارة فيها في برهة يسيرة حتى غصت بالناس على ما رحبت أرجاؤها . يقال إنه كان فيها من مقاتلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفا (٣) ، وأخبرني الهيثم أن أهلها يبالغون اليوم بحسمائة ألف من الرجال ، بدليل المسال الذي فرقه فيهم أبو جعفر ، وكان ألف ألف درهم فلم يصيب الرأس منهم إلا درهمين (٤) .

(١) المسعودي والقزويني .

(٢) ياقوت وابن حوقل ١٥٩

(٣) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٤) الشريشي ٣ : ٤٣١

وتبعد البصرة عن عبّادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية ، وعندها تختلط مياه دجلة والفرات ^(١) وتنصب في البحر الملح بسد أن تفقد عذوبتها ، لأن الماء يأتي إلى ما فوق البصرة بأميال ، فاذا امتزج به ماء دجلة صار ملحا ^(٢) ، ولقد يحال الراى لأول وقوع الماء أن البلاد صارت غديرا ، كما وقع لحزمة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير ، وقد ركب يوما إلى الفيض ، فقال : إن هذا الغدير إن رفقوا به يكفهم صيفهم هذه ، فلما كان بعد ذلك ركب إليه فوافقه جازرا فقال قد رأيته ذات يوم فظننت أن لن يكفهم ، فقال له الأحنف بن قيس : أيها الأمير إن هذا الماء يأتينا ثم يفيض عنا ثم يعود ، نخجل حمزة ، وعاب عليه الشعراء ذلك في أبيات لهم يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفحت في البصرة كثيرا من قصورها المشرفة ، واستقرت أماكنها المشهورة بما وعيت عنها من الأنباء ، وأحسن ما استظرفت منها قصر لمحمد بن سليمان الهاشمي ^(٣) ، وهو أوفر بنى العباس مالا وأعطاهم لشاعر نوالا ، تُغَل ضياعه كل يوم مائة ألف درهم ^(٤) ، وقد بناه على بعض الأنهار واستفرغ في زينته جهده ، واتخذ في جناحه المها والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة ، بجمع فيه محاسن الحضارة والبدواة ، وفيه يقول الشعراء :

زر وادى القصر نعم القصر والوادي في منزل حاضر إن شئت أو بادي
ترقى به السفن والظلمات حاضرة والضب والنون والملاح والحادي
إلى آخر الأبيات .

وأما القصور التي بقيت بعد أربابها فانها لكثيرة في البصرة شاهدت منها قصرا -
لأوس بن ثعلبة ^(٥) الذي ولي العراق وخراسان في دولة الأمويين ، وهو قريب

(١) المقدمة ٥٥

(٢) . القزويني والاصطخري والمسعودي .

(٣) ياقوت .

(٤) المسعودي .

(٥) الأغاني ٣ : ٣٦ وياقوت .

من المربد (١) ، وعليه قباب مرفوعة يَغصُّ الجوَّ بها صعودا ، ومن حوله خمائل وارفة ، كأن الأيام تزيدها جذه ونضارة ، وتلبسها من الخضرة حلة قشبية .
ولله ابن أبي عيَّمة حيث يقول في وصفها هذه الأبيات :

بغرس كأبكار الجوارى وتربةٍ كأن ثراها ماء ورد على مسك
يذكرني الفردوس طورا فأرعوى وطورا يواتيني إلى القصف والعتك
وسرِّب من الغزلان يرتعن حوله كما استلَّ منظوم من الدر من سلك
وورقاء تحكى الموصلى إذا غدت بتغريدها أحجب بها وبمن تحكى
فيا طيبَ ذاك القصر قصرًا ونزهةً بأفيج سهل غير وعُر ولا ضنك

وشاهدت قصر الأحنف بن قيس (٢) المقدم ذكره في رحبة المنجاب (٣) ،
ودارا لأنس بن مالك (٤) خادم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإبوانا للزبير بن العوام (٥)
تنزله التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وأحر لعبيد الله
ابن زياد يسمى البيضاء (٦) ، وهو بمقربة من الموضع الذى خطب فيه أبوه خطبته
البتراء (٧) التى أخذت بقلوب البصريين وقد تداعت جدرانها فلم يبق منه إلا أثر
دارس ورسم شاخص .

(١) الأغاني ١٣ : ١٠

(٢) الأغاني ١٧ : ٥٦

(٣) محلة ذكرها الأغاني ١٢ : ٦٣

(٤) ياقوت ٤ : ١٠٩

(٥) المقدمة ١٧٨ والمسعودى ١ : ٣٣٣

(٦) القزويني ٢٠٦

(٧) سميت بذلك لأنه لم يفتحها بالحمد لله والثناء عليه .

العرب البادية ونتف من أخبارهم

ولقد أتيت مريد البصرة عن طريق المهالبة ^(١) فسكة المريد ^(٢) ، فإذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال ، وتحط بها الرحال ، وتعلق فيها الأشعار التي يتناشدها العرب في أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالس ويبيعون ويشترون ^(٣) ، وهناك موضع يقال له شمس الوزانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الأنصار ^(٤) ، قد طلي بالأصباغ ولم ترفع صوامعه إلا قليلا ، ووجدت صحراء البصرة من وراء المريد وعرة مرملة لا يغرّد عليها طير ولا تنبت فيها شجر غير النخيل لفقدان الماء فيها ، وخيرات البصرة تردها من الأبلّة ، وهي مدينة عامرة بالناس خصبة الجنباب كريمة البقعة يشقها جدول من دجلة ولا تخترق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعرضه على بعض ، وفي مرساها مجتمع كثير من مراكب الهند والصين ، لأن الربح فيها واسع لأهل التجارة . وأما النخيل المتصل فيما بينها إلى البصرة فأعلى الصحراء فانه كسب وافر للناس ، يقال إن ثمنه يعدل ^(٥) ما يحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة .

وإلى ما وراء المريد في ظاهر البصرة عرب من عامر ^(٦) وقيس عيلان كنت أختلف إلى أحيائهم وأبيت ليلتي عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والأنطاع ، وأعي أحاديثهم بأقبال واستماع ، وأشهد حلق القصّاص فيما يحدثون به من أيام العرب وأخبارهم فوجدتهم يتفاحرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف ، ولا يهتئون إلا بغلام يولد أو شاعر يتبع

(١) الاتلدي ١٠٧

(٢) الأغاني ١٣ : ٦٤

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ والأغاني ٥٠٧

(٤) الأغاني ١٧ : ١٨

(٥) ياقوت ١ : ٦٥٠

(٦) في الأغاني ٤ : ١٩٣ أن جماعة منهم نراوا بظاهر الصرة قريبا من ذلك الوقت .

فيهم أوفرس تُنتَج، وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل^(١) وذكر هؤلاء القصاص أن جميلاً لما سأله حاله أن ما عملت مع شئنة طول تلك الأيام قال كنت أمتع عيني من وجهها وسمعي من حديثها، ولم أمد إليها يداً غير مرة واحدة، أخذت يدها ورفعتها إلى صدرى لتشعر بخفتان قلبي^(٢)، وهذا خبر ينقلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه إليك ليدلك على ما وضعه الله في صدورهم من نبل الهمة وعفاف النفس .

وقد بقي في خاطري ذكر عذب لاجتماعي بهؤلاء العرب، وقد طاب لي الجلوس إلى قيس عيلان أكثر منه إلى بني عامر، لأنني وجدت فيهم بيانا وفصاحة^(٣) غير أنهم لم يلبثوا في البصرة إلا قليلاً حتى شالت نعاتهم، فصرت أتوجه إلى بني عامر وعرفت بالمقام بينهم كثيراً من خلال العرب المحموده، وقد أعظمت رواج الأدب بينهم، والكتابة عندهم مفقودة^(٤) غير أنهم يحرون على قواعد اللعبة في أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس في الإمكان أصح منه، ولهم في كلامهم من الأمثال الحكيمة ما لم نجده في كثير من أمم العلم والحضارة، فيمق الكلام من أفواههم مروق السهم من الوتر كما يقولون، وهم أصح الناس أبداناً، لأن الطعن كفيل لهم بطيب الراح التي لا تنجُب إلا مع القرار والسكنى وكثرة الفصالات^(٥) ولأن طعامهم اللبن والتمر والقليل من اللحم، وما يمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلب إلى أبدانهم العبل^(٦)،

(١) تزيين الأسواق .

(٢) تزيين الأسواق ٢ : ٩

(٣) الأعاني ٣ : ٥٣

(٤) أي عند عرب البادية لأنه يعرف أن المتصربين كانوا يكتبون قدما بالحروف الدملوية التي كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرماله بالحروف الحيرية إلى أن استبدلوا بها الكتابة الكوفية في صدر الاسلام ويقال إن أيوب الصديقي إنما كتب حديثه بلسان العرب اهـ .

(٥) المسعودي والمقدمة .

(٦) قال في العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهمان . وصحت أبدان الرمان . وما لذلك علة الا التخفف من الزاد .

وأكثرهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحُمُر الوحشية عدواً ،
فلقد سمعت من يحدث عن تأبط شرا أنه كان إذا جاع نظر في السهل إلى الظباء
فانتقى لنفسه أسنمها ، ثم يجرى خلفه فلا يفونه حتى يأخذه ويذبحه سيفه^(١) ،
وربما حدث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشنفرى وعمرو بن براق وغيرهما
من العدائين .

ووجدت لهم من الصفات الحسان التي تحدثها فيهم شهامة النفس ما ليس يجتمع
في غيرهم من الأمم اجتماعه فيهم ، فهم يحمون الذمار ، ويمنعون الحار ولا يُمصون
على الذل كما هو معروف عنهم في الأشعار ، فلا يَموتوا قتلاً تحت ظلال السيف ،
أحب إليهم من البقاء في رِبقة الذل والخنوف . يقول عمرو بن كلثوم من أصحاب
المعلقات :

إذا ما المَلِكُ سامَ الناسَ خَسفاً أبينا أن نُقَسِّرَ الخسفَ فينا

إلى غير ذلك من الأبيات المعروفة ، وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على
نفوسهم العهود ، يأخذون بثأرهم أخذاً شديداً ، وذلك ناشئ فيهم من بعدهم
عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام لفسد البأس فيهم ، وذُهِبت المنعة
منهم^(٢) ، ولكن ذلك قد يدعوهم إلى التفانى على غير علة إلا الحصول على
الرخيص مما يبذلون في سبيله من النفيس ، كاثارتهم لأجل امرأة أوفرس أو بغير
قتالاً يستمر أعواماً طويلاً بين عشائهم ، حتى إذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه
الشامل نهاهم عن القتال في الأشهر الحرم فنقص فيهم من القتل ما يقع في أربعة
شهور من القتال ، والله رءوف بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرم والسماحة ، حتى إنهم
ليضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ، ولو كان النزلاء قتلة آثامهم^(٣) ،

(١) الأغاني ١٣ : ٤٩

(٢) المقدمة ١٠٩

(٣) الأغاني والالتلیدی .

وربما توسعوا في ادب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وُغُصَّة عند ارتحاله ، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم :

وإنا لنُقْرِى الضيف قبل نزوله ونُسَبِّعه بالبشر من وجه صاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتهما بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن كلهم كريم ، حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحدا في الناس^(١) ، ومن زعم أن حاتم الطائي أكرم العرب فقد ظلمهم جميعا . وظنى بأخذهم في هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعي عندهم ، لأن الراحل منهم قد يموز في القلاة أياما طويلا على جهد من العطش وسُعَار من الجوع ، فإذا انتهى إلى خباء مضروب ورآه أهله بمكانه من العناء والإعياء قَرَّوه وعلفوا مطيته وأوقدوا له نارا يصطلي بها من كآب البرد كما يقولون ، حتى إذا أصابهم في ظعنهم مثل هذا العنت الشديد يتلقاهم أهل الخيام على السَّعة من الضيافة .

قل حسان بن ثابت يتهلل بذكر المكرمات :

وإني لمعيط ما وجدت وقائل لموقد نارى ليلة الريح أوقد

وكان الكرم ينتهى بهم إلى أن يقوم لعشائهم مناد في الأسواق يندى في الناس هل من جائع فنطعمه أو حائف فنؤمنه أو راحل فنحمله ؟ وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول إلا أنه كانت لهم في مناقضة هذه المحاسن مساوئ كثيرة في الجاهلية ، فلما نزل كتاب الله رَوَّض أخلاقهم انستجينة وصرف عنهم المكروه من العادات ، فقد نقلت الأخبار السافسة أنهم كانوا في جاهليتهم

يتزوجون بنساء آبائهم ^(١) ويكرهون إماءهم على البغاء ^(٢) ويألفون غير ذلك من العادات الخشنة التي ذهبت بحجى الإسلام .

ولنما اضطرَّ العرب إلى سكنى البادية وتحير بناءها على الأيام بحسب أحوالها من الصلاح ، لأنهم وجدوا في قفار قد تراكت عليها الرمال المحرقة ، وما كانت تنبت لهم حبا ولا بفا ، وكانت آبارهم تغيص في حماردة القيظ على بعد قعرها ، فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل في أصقاع يكون بها خضرة من الكلا ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المبسطة كأنها جزر في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ، ولكن ليس ذلك إلا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم إن الله تعالى أوجد لهم الإبل ^(٣) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية ، فكانت سكناهم في الوبر لما تقدم من الأسباب أصرا طبيعيا ، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة ما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم ^(٤) ، فضلا عن كونهم يرون الأبنية والتحويط حصرا لهم الرجال ^(٥) وحسب ما في الغرائز من حب الاستقلال فهم لا يصبرون على الضيم ، والحرية عندهم أفضل ما أعطاهم الله ، يبذلون نفوسهم ونعائسهم دون تقريرها لأنفسهم ، فانا لا نجد في أحاديث التتلة أن أمه استعبدتهم في عابر الدهر قط ، فهذه الكلدان والسمريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم إلا العرب ، وكان من أمانى الاسكندر الرومى أن

(١) الأعاني ١ : ١٠

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢

(٣) الإبل سمين العرب وهم يغتدون بالبا ، ويكتسون بأوارها ويستدفئون بوقيد أوعارها وقد أوجد الله في قواعها لنا فرق القدم يطاء الرمل ولا يغرز فيه مثل حوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طرق الرمال .

(٤) المقدمة ١٠٥

(٥) المسعودى ٤ : ٢٣٤

يدعوهم إلى طاعته بعد أن تم له الغلب على المشرق ، غير أن المنية عاجلته قبل
الاقدام على هذا التفرير ، فرزق بموته سلامة من الإخفاق ، حتى لا يقال عنه ،
وهو الملك المنصور ، إنه توجهت عليه هزيمة ، إذ لست أشك أنه لو أقدم على
العرب ما ثبت له جند عليهم في تلك المجالات التي يتوغلون فيها ويبيتون في أمن
من العدو وإن كثُر .

ولقد لقيت من هؤلاء العرب فتى تلوح عليه النجابة والفظانة ، فذكرت له
أن في لقائه الملوكة سبيلا إلى نيل العلا فأخبرني أنه نزل الزوراء لأول ما بناها
أبو جعفر ولكن لم يمض إلا القليل حتى ملَّ العمران ومال به الشوق إلى ربوع
العرب . وأنشدني وهو منصرف :

لَبِيتُ تَخْفِقُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَعْرِ مَنِيْفٍ
وَلِبُسُ عِبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشَّفُوفِ

والأبيات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبي سفيان ثم لم تطب
نفسا بالمقام عنده ، فرجعت إلى البادية بعد ما أنشأت الأبيات التي أنشدنيها هذا
الغلام . فسبحان من قسم المعاش بين الأجيال . وركب في نفوسهم طباعا متفاوتة ،
لا إله إلا هو ذو الأكرام والجلال .

الانفصال عن البصرة ولمعة من أخبار الحجاج

كان مُقَامِي فِي الْبَصْرَةِ شَهْرًا وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمَّا طَوَيْتُ سَاطِ الْإِقَامَةِ تَهَيَّأَ لِي
أَنْ أَصْعَدَ عَلَى دِجْلَةٍ سَفَرًا ^(١) يَخْفَفُ عَنِّي مَشَقَّةُ الرُّكُوبِ عَلَى ظُهُورِ الْمَطَايَا ،
فَدَفَعْتُ حَوْلِي إِلَى الرُّبَانِ وَانْفَصَلْتُ عَنِ الْبَصْرَةِ لِأَوَّلِ هَدْيٍ مِنَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا
طَلَعَ النَّهَارُ كُنَّا فِي مَتَوَسِّطِ بَطَاحٍ مَفْرُوشَةٍ بِالنَّخِيلِ عَلَى مَسَدِ الْبَصْرِ ، وَفِيهَا خِيَامٌ

(١) المسعودي ٢ : ٢٣٩

لبطون من تميم^(١) وشيبان^(٢) ، قد ضربوها على مرتفعات من ذلك السهل ، فكان تأمل منازلهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يمثل لى من بعد ارتحالهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعيس على هذه الأطلال وبكوا عهودا مضت لهم في زمان الأئس بين هذه الربوع .

ولما كان بعد أيام طاعت علينا ميموم يكاد يأخذ حرها بالنفس ، وكذا ننكص على الأعقاب لاختلاف الريح ، فرأى الربان أن ينزل الملاحون إلى البر ويربطوا المركب بأمراس يجرونه بها من عُدوة النهر يمتا يحصل الفرج ، ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناي بنوم من شدة الحر إلى أيام عشرة لم نزل بها في مغالبة الريح ومقاساة عنتها الشديد إلى أن وصلنا إلى مدينة واسط^(٣) . هذه المدينة في فضاء من الأرض طيبة الاقليم والنسيم ، غير أن الحر غالب عليها لاقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هضابها^(٤) ، ومبانيها من الأحكام بمكان سام ، ولا سيما القصر الذي بناه الحجاج^(٥) ، وهو باق إلى زماننا هذا ، وهو سنة ست وخمسين بعد المائة ، والناس يسمونه الخضراء^(٦) ، وله قبة مشهورة في مباني الاسلام ، حتى قيل إنه ما بنى لأحد قبل الحجاج مثلها^(٧) ، وفيه أحواض كثيرة يرقى إليها ماء دجلة ، وأعظمها حوض من الرخام الأخضر وبه مجلس به سرير مذهب^(٧) يقال إنه كان مقعدا للحجاج في مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرف بأنواع الزينة ، لأن النفقة عليه وعلى الجامع الذي بجواره

(١) في الأغاني ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة .

(٢) تزيين الأسواف ٢ : ٧

(٣) تقويم البلدان ٣٠٧

(٤) القزويني ٣٢٠

(٥) المسعودي ٢ : ١٨٣ وهو يقول إنه كان باقيا لأيامه .

(٦) المسعودي ٢ : ١١٥

(٧) الألبشي ١ : ٦٣

بلغت نحواً من أربعين ألف ألف درهم^(١) ، ولكنه سُمج في عيني بما ورد على خاطري
عند مرآه من قبائح الجحاج ، فكأنه بيت قد رفعت جدرانهُ على دعائم الظلم
والاعتساف .

وبقيت في واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح ، ولكن على كره من النفس ،
لأنني كنت أراها بعين الماقت لها . ونزلت بها في فندق على شاطئ النهر حيث
الجسرُ المُقام من سُفن ، وأمامه ساحة تباع فيها الحبول ويكون بها سوق في أيام
معلومة من السنة يأتيها العرب بما يريدون بيعه من الخيل الخياد الى يحتفظون
بها احتفاظ الآباء بالبنين^(٢) فانهم لا يتخلّون عنها بالقليل ولا بالكثير من المال
وإذا سألتهم بيعها منك بأعلى الأثمان فأنت مردود في سؤالك ، يقولون لك هذه
منجاتنا من العدو وإذا أطلقنا لها العنان طبقت الآفاق بأسرع من لمح البصر .

ولم تزل هذه السوق مقامة في واسط منذ بنيت إلى هذه الغاية ، لأنها كانت
في أول هذه المائة من أعمر بلدان العراق بما خصها الله من خصب التربة وكثرة
الخيرات ، فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة^(٣) ونزلت بالناس
السينون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجافى الناس عن سكانها
بما توالى عليها من الفتن التي وقعت في صدر هذه الدولة إلى أن استقر فيها السلم
وبعد عهدها من الوباء ، فسارع أرباب التجارة إلى استيطانها لما يتسنى لهم فيها
من قرب الاتصال ، والمسافة الآن منها إلى الزوراء خمسون فرسخاً ، ومنها إلى البصرة
خمسون أيضاً ومنها إلى الأهواز مثل ذلك . وظنى أنها سميت بواسط لهذا السبب ،
وهو توسطها العراق

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٧

(٢) تزيين الأسواق .

(٣) ابن الأثير ٥ : ٧١

وقد اتفق لى قبل الانفصال عنها أنى لقيت فيها شيخا كان أبوه حادما عند
الحجاج (حاسبه الله تعالى) فحدثنى من أخباره ما تنفطر منه لأفئدة رحمة لأهل
البيت وأصحابهم ، لأنه كان يقتل منهم جُرَافا على التَّهَمَةِ إلى أن بلغ عدد الذين
قتلهم صبرا مائة ألف وعشرين ألفا ، وكان فى السجن عند ما أهلكه الله أكثر
من خمسين ألفا يرسفون فى سلاسل الحديد ، ولا ذنب لهم إلا حُبهم لأهل البيت
وكان الناس فى أيامه إذا تلاقوا فى المجالس والمساجد والأسواق يتساءلون من قُتِل
البارحة ومن صلب ومن قُطِع ، وقد تفاحش ظلمه فى الخراج بحيث إن الأمراء
بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفا (١) من نقص الخراج إذا خففوا
ضرائبهم ومكوسه ، أو الاستمرار على ظلم الناس إذا راموا جباية ما كان يحملة إلى
الحليفة من المال (٢) .

وقد رسم لى هذا الشيخ صورته بأنه كان قوى البنية مائلا إلى اليسمن ، ولا
يزال العرق متصبيا على جبينه وصُدْغِيه من تحت قلنسوة قد حوَّطها بعامة
خضراء (٣) ، وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه . وكان شديد التهويل
فى خطبه ، وإذا صعد المنبر تلمع بمُطَرَفِه ثم تكلم رويدا رويدا فلا يكاد يسمع حتى
يترايد فى الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة فيقرع بها من فى أقصى
المسجد .

(١) ابن الاثير ٥ : ٩

(٢) كان ملوك بنى أمية يعرفون من الحجاج جوره واعتسافه ولكن لم يكن فى كانتهم سهم أشد مه
نكاية على المدوفلم يرق لهم استبدال غيره به وإن نقل أمره على الرعية . وفى مروج الذهب أنه لما وفد على
الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكنانة وقوس عربية وقد تفضل الحليفة فى غلالة بفخاءت جارية وسارت
الوليد ومضت ثم عادت فسأته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد قال لا والله
قال بعثتها إلى ابنة عمى أم البنين تقول ما مجابستك لهذا الاعرابى المتسلح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلت
إليها إنه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق اه .

(٣) العقد ٣٧ : ١١

قال وكان يحدثني أبي أنه كان يجد لذة (١) في سفك الدماء وارتكاب أمور لم يُقدم عليها غيره ولم يسبقه إليها سواه ، ولما أرسله عبد الملك بن مروان إلى العراق ليوطئ له المنابر نخرج كميّس الأزار وغلب الناس بقوة الرجال لا بالسياسة والري ، لأن جنوده كانوا من الشام (٢) وهم على غرض الأمويين مخالفون لاهل البيت ، فلما أوجدتهم بين أعدائهم لم يرمهم إلا نفوسا مستقلة راجعة إلى رأيه في كل أمر ونهى فعملهم على مازلة مكة المكرمة من هذا الوجه ، ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم إليه أهلها بعد أن تصدع جدار البيت الحرام ، فأقام ملك بني أمية على هذا الظلم وقومه لهم خمسين سنة من بعده ، إلى أن أراد الله انقراض دولتهم في المشرق .

هذا نبذ يسير من أخبار هذا الظالم الغاشم ، وقد رأيت تناقل الحديث عنه في أفواه الواسطيين كتناقل الحديث في مجالس البصريين عن زياد ابن أبيه ، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر ما لم يسبق إليه أحد من البغاة الظالمين وليكليهما فضل في تدبير ما خولا من الولاية إلا أن لزياد فضلا في بلاغة الكلام التي شهد له بها أكبر الرجال وضبطه البلاد بأهل البلاد أنفسهم أعظم من فضل الجحاج الذي ما غلب العراقيين إلا بأهل الشام وما قوم ملكه إلا بالسيف البائر . والجبروت القاهر .

المرور بمدائن كسرى أنو شروان

كان انفصالنا عن مدينة الجحاج في ليل رطيب قد انفتق سحابه عن القمر ، فقضينا جزءا كبيرا منه في السمر حتى إذا أسفر الصباح كما في محاذة قصر يقال له الرمان (٣) ومن حوله خيام مضروبة للعرب ، فوقع ذلك من نفسى موقع الاستعبار

(١) المسعودى ٣ : ١٠٣

(٢) الكنز ٢٢٢

(٣) ابن خلكان ١ : ٤٧١ وياقوت ٣ : ٨١٤

من الدنيا في نعيم الحضارة وشقاء البداوة ، إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلما يقع عليها النظر في وقت واحد ، وكان يلوح لنا في صدر السهل إلى آخر النهار بناء عظيم أخبرت أنه من جملة المناظر التي أقامها الحجاج بينه وبين قزوين (١) ، وهي إذ ذاك آخر الثغور ، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِنت بالنهار فدُخِنت المناظر كلها أو أوقدت بها في الليل نار فاستوقد المناظر فيعلم ذلك .

ولم نزل نخرق عباب دجلة يوما بعد آخر حتى جزنا جبل والنعامية ثم كلواذا (٢) وأقبلنا على المدائن مع طلوع المجر ، فنزلت إلى البر أتفرج بالايوان الذي بناه كسرى أنوشروان . فاذا هو في غاية العظم ونهاية الاتقان . يبلغ طوله نحو من مائة ذراع وعرضه نحو من نصف ذلك وقدرت في ارتفاعه أكثر من مائتين ذراعا ، وليس في مباني الآجر ما هو أبهى منه ، وقلما يوجد فيه موضع غُفِّل من رسم أو نقش أو كتابة ، وهو يعد من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس في عهود الأكَسرة الذين جبَّوا معظم الدنيا ، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة والاحكام ، ولا يُرى فيه اليوم من الآثار الجليلة إلا صور آلهة جبابة وسباع ضارية . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنوشروان (٣) وأما آنية القصور وزخارفها المنقولة وما كان فيها من المتاع الثمين فقد فقدت بعد الفتح ، وبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألف ألف دينار من الذهب .

وجملة القول أن شأنه في الضخامة والاتقان مما يحير الأذهان ، على أن الأيام قد أهوت عليه بمعول الفناء الذي ليس في طاقة الطين اتقاؤه ، ثم زاد على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل من آجره جانبا كبيرا على بعد الشقة وعظم

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٦

(٢) المسعودي ٣ : ٢٢٩

(٣) ذكر ذلك البهري في وصف الايوان حيث يقول :

والمنـايـا مـوائـل وأنوشـر وأن يزجي الصفوف تحت الدرفس

والدرفس الراية .

النفقة ، فعارضه خالد بن برمك (رعاه الله) وقال يرغبه في حفظ ذلك الأثر يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلاً يستدل به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الايوان ، فاتهمه الخليفة في النصيحة وقال أخذته النعرة للفرس ، وأبى إلا التعصب لقومه ، فوالله لأصرعنه قريباً ثم شرع في هدمه واتخذ له الفؤوس وصب عليه الخلل وحماه بالنار ، حتى إذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث إلى خالد يستشيريه في التجافى عن الهدم ، فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألا تهدمه فأما إذ فعلت فاني أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم ، فعرفها المنصور وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوض جانباً من هذا الأثر الجليل .

ولما وقفت بالايوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدمن ندى يتلألاً ما بين الأوكار التي تجنح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل ما كان عليه رب هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخفى عليه الدهر فأخذتني لذلك عبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات :

أيها الشامت المعير بالدهر — أنت المبرأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيام — بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من — ذا عليه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى خير الملوك أنوشر — وإن أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك — الروم لم يبق منهم مذكور

وقد كان لمراى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العمر ، وكان رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فرائخ ^(١) من دار السلام ، وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنه وكرمه ، ونحن قد جزنا موضعاً يعرف بالنهروان ^(٢) وصرنا على مطيل من الزوراء أم البلدان .

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧

(٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦

الرسالة الثانية

مقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العتمة وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسيحين بحمد الله والمقدسين له نغبات تؤقّبها معهم أرجاء المدينة ، وتعدّ المسير على مركبنا تجاه باب البصرة (١) أو كاد ، لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان ، وهى مطلية بأبهى الأصباغ والألوان . مرصعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كأن دجلة فى الزوراء . أشبه بالمجرة فى كبد السماء . ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر ، وعلى مُطل من قصور الخلافة التى كانت تتألأ بضوء باهر (٢) ، فركبت البر فى الموضع المعروف بجزيرة العباس (٣) ، وقد غصّ بجموع من الناس وقد لبسوا الطيالس السود تشبهاً بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شعار الخلافة حزناً على شهدائهم من أهل البيت ونعيًا على بنى أمية فى قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمام قلائس طوالا مصنوعة من القصب والورق ملبسة بالسواد أيضا ، وبدل الدروع دراعات مكتوبا عليها بين كتفى الرجل "فسيكفيكم الله وهو السميع العليم" أخبرنى (٤) بعض من لقيته فى تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذى أحب أن تتزيا حوزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

(١) هو باب من أبواب بغداد .

(٢) الأغاني ٤ : ١٨٩

(٣) فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع .

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٤٥ والأغاني ٥ : ٩٥

ولما جلت في المدينة أخذت من قطيعة ^(١) أبي عيسى الهاشمي إلى محلة يقال لها الميدان ^(٢) ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبي جعفر ^(٣) ، فوجدته كاحسن ما يكون وأحفظه من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين : (الأول) اتساعه إلى أربعين ذراعا ^(٤) . وإن كان يشاركه فيه غيره ، (الثاني) طوله من دار الخلافة إلى محلة باب الشام ^(٥) على استقامة ليس في الامكان أصح منها ، فلما صرت فيه استقبلت في دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبسة الخضراء ^(٦) التي رفعها أبو جعفر إلى عليّ يزيد على ثمانين ذراعا ليشرق منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين ، كما أنه غني بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظام الأعمال ، فكانت تظهر زينتها في تلك الليلة وهي مرتفعة في الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلى على قصر السلام .

ثم إنني أقبلت في صدر هذا الشارع على مسجد جامع عليه ازدحام فلت إليه ، وإذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممرا بين جموعهم ، ووراءهم رجل طويل ^(٧) أسمر نحيف خفيف العارضين معرق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر ^(٨) سود من الأوبار الغالية الثمن ، وفي وجهه مهابة الملوكة وجلالتهم ، فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل

(١) ذكرها ياقوت .

(٢) الأعيان ٣٠ : ٦٦

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٠

(٤) ابن الأثير ٥ وابن خلدون ١

(٥) ذكرها ابن خلكان وابن الأثير .

(٦) المسعودي والقرويني .

(٧) العقد المرید .

(٨) ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر .

عليه حاشيته ، إذ الشمس لا تخفى وإن سُتريت ، ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى تواري بين الجموع وركب بغلة^(١) عليها حلية خفيفة من الفضة ، وكان لجامها في يد حاسب من حجاب الخليفة .

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له المجاج بن أرطاة^(٢) ، وعلى مقربة منه قراء سبعة يتلون الآيات من القرآن إلى مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة ، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رقع في مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من المرفف ، وحدث عن البحر في بعد الغور وقرب المغترف ، وعهدى بمن لقيته من الخطباء أني ما سمعتهم إلا تنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيه الذي كان يواتيه الكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع في تفسير كتاب الله وإيراد الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ في سرد الآي المقروءات فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهي قوله تعالى : ” في بيوتِ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه “^(٣) الآية ، فتمق خطبة بذكرها المؤمنين ، قافية سجعاتها الألف اللينة واللام تردادا لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلت العيون لخشية الله عبراتها^(٤) .

ولم أزل في المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء الآخرة ، فخرجت ألتبس موضعا أبديت فيه بقية الليل لعلى أجد في النوم راحة تعوض على بعض ما أخذ منى السفر ، فأرشدت إلى خانٍ لطيف ينزله الغرباء من أهل النجارات وغيرهم ، فلما كان الصباح بكرت إلى أستاذي أبي يوسف ، منزله

(١) ابن حلدون .

(٢) ذكر في العقد الفريد أنه ولي القضاء لأبي جعفر .

(٣) سورة النور .

(٤) من رحلة ابن جبير .

على نهر عيسى^(١) في قنطرة الزياتين^(٢) بمقربة من دور الخلافة ، فتلقاني بالبشاشة والايناس وأبى إلا ضيأتي عنده في جناح أفرده لى من داره ، وهو يؤمّنى بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدّم قومنا محلا في مراتبها ، والوزارهُ في يد خالد ابن برمك أميرنا . إني إلى هذا اليوم أخرج في المقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال .

ذكر شيء من محاسن الزّوراء

ولقد أکبرت من الزوراء رواج سوقها بالتجارة واشتباك أحيائها بالعمارة في مدة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الاقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين ، وأسواقها في نهاية من الاحتفال ، قد جمعت بالكرخ أخلاطا من التجار^(٣) والصناع ، إلا سوق الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرس ، وقد باغوا من الإجادة في صماعتهم الغاية بحيث يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للولك أقداحا^(٤) تقيّد الأبصار حسنا وإشراقا ، ويتخذون على الجوامات صورا يحكون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير^(٥) ومن فوقها عُقاب تنقض

(١) ابن حوقل ١٦٥ و يقول المسعودى ١ : ٤٧ إنه يأخذ من الفرات وفي ابن خلكان

١ : ٧٤٠ أنه يأتي بغداد من جهة الانبار و ١ : ١٠١ أنه بجوار قنطرة الزياتين .

(٢) الأغاني ٣ : ١٨٢ وابن خلكان ١ : ٢٨٣

(٣) الأغاني ٩ : ٣٣ و ١٨ : ٦

(٤) الأغانى ٤ : ١٨٩

(٥) في الحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لأبي نواس :

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس

الأغانى ٣ : ٢٧

عليها ، وهى تهوى فى الفضاء للتخلص منها ، ولكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطرف . وإلى طرف هذه السوق مما يلى سويقة غالب^(١) جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لأر باب التجارة بإشارة من السلطان الذى أمر بتحويل الأسواف إلى الكرخ^(٢) ليُبعد أخلاط الناس عن جواره .

أما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم^(٣) ، ومثال ما بنت الروم فى الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد ، وهى مجللة ككسا ومرفوعة إلى طبقتين^(٤) ومبنى بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالجرى ما يماسها دفعا للماء فى أوان السيل^(٥) أن يبلغ الطين ويتمكن منه ، ومنهم من يقوى الآجر بالقصباء والحلفاء ويغمسه بالخص^(٦) حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد إذا صلب . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وإنما تُطل نوافذها على الشوارع^(٧) بحيث إذا ارتفع المائر على حجر أو على دابة تيسر له أن ينظر من بداخل البيت^(٨) ، أما دور المتمولين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد ، وهى مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام . وفى ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحاً وريحاناً واسترواحاً للنفس ، وعلى جدرانها وسقوفها نقوش فى رسم ملون أو مُسَيَّسَاء من ذهب ، وعلى دائر

(١) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ : ٢٤ فى ابن الاثير ٦ : ٩٩ ان بين الكرخ ومدينة

المنصور سوراً يفصل بينهما ثم ان العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد .

(٢) المقدمة ٣١٣

(٣) يستدل على ذلك من الأغاني ٢ : ٧٣ و ٣ : ٣١

(٤) ذكر الأغاني ٩ : ١٤٤ ونوع سيل ببغداد .

(٥) ابن خلدون ٣ : ١٩٧

(٦) الأغاني ١٧ : ٤٩

(٧) الأغاني ٥ : ٣٨

الأبواب والقمريات وبرادات^(١) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج^(٢) الملون ويحطونها بخشب أسود من الآبنوس وغيره ، ثم يلفون عليها رسوما من النحاس تمثل غصونا وثمارا وأزهارا وأشكالا فيها كل غريبة من الابداع ، فتمتلئ العين ارتياحا من النظر إلى إشراقها . وإني ليعجبني من جمال مبانيهم ما يتألقون في زينته من الخارج أيضا ، فإن القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمد قد دقت أمثال الرماح ليُخَيَّل للرائي أنها لا تستند على شيء . وكأنما هي معيقة في الهواء .

ولما كان الحر يشتد وَهْجُهُ في الزوراء ويفتقر أهلها إلى رطوبة الماء افتتار النفس إلى الهواء قل أن يخلو سوق من أسواقهم أو بَنِيَّة من مبانيهم من سقاية يجري بها ماء دجلة^(٣) . ولذلك لا يسير فيها الرجل إلا محفوقا بالشجر المزهر والرياحين^(٤) التي يتغنى بوصفها الشعراء . وهذا دليل على أن الزوراء كلها ماء ونماء . ولأهلها في إقامة الأحواض عناية تامة فيرفعون عليها عمدا من خرقة من الرخام ويعقدون من فوقها قبابا منقوشة بآيات من الذهب^(٥) وما بينها النقوش الظرفية والرسوم التي تقرُّ بها العيون . فتوسعوا من اتخاذها للضرورة إلى المغالاة بزيتها على سبيل الترف والترفيه ، وإذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابا تحت الأرض وأقاموا فيها بالنهار ليكسروا الحر كما يقولون^(٦) .

ولقد عظمت عناية أبي جعفر بهذه المدينة حتى إنه أتقن نحوا من أربعة آلاف ألف دينار في السورين اللذين يحيطانها والمسجد الجامع ودور الخلافة والمجالس التي عقدها فوق أبواب السور الخارجي من طاقاتها المعقودة ، وهي أربعة : أولها

(١) الأغاني ١٧ : ١٢٩

(٢) القرويني ١٢٧

(٣) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والأغاني والالتلیدی .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧

(٥) الالتلیدی ٢٢٦

(٦) من ابن خلكان .

باب خراسان ويسمى باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان . والثاني باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة . والثالث باب الشام وهو من ناحية الغرب . والرابع باب البصرة وهو بمقربة من دجلة . وقد حمل إليها أبوابها من واسط والشام ^(١) والكوفة على بعد الشقة والمشقة . واتخذ الأبواب الداخلة منزورة عن الأبواب الخارجة ^(٢) ولذلك سميت المدينة بالزوراء .

ثم إن تناهى جمالها بما شاد فيها الأمراء من المباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والإشراق ، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرفة فانها لكثيرة ^(٣) في الزوراء ، أتيت منها على زيارة مسجد في قنطرة الصراة ^(٤) ومسجد بناه عبد الله ابن حرب في الموضع ^(٥) المعروف بالحربية . ومسجد أقامه أمير من آل قحطبة في شارع المحرم ^(٦) ، وآخر بنته الخيزران زوج ولى العهد في الخيزرانية ^(٧) ، وهو فائق الحسن وفيه أكثر من ثلثمائة قنديل من الفضة والذهب ، وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص تصف الأشخاص كالمرآة ، وعلى حيطانه صور تفاحات وثمار وغصون تُخَيَّل للوافد على المسجد أنه بين شجر زاه مزهر . في روض باه باهر . ورأيت العملة قد حاكوا فيها رسوم الأعاجم على أنسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم

(١) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٢) تقويم البلدان ٣٠٣

(٣) ذكر القرماني وغيره أنه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام .

(٤) موضع ببغداد ذكره ابن الأثير ٦ : ١١٧

(٥) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودي ٢ : ٢٤٠ و ٣٨٨

(٦) ذكره الأغاني ٥ : ١٢٦

(٧) ذكره ابن الأثير ٦ : ١٠١

الرأى أنها بسط حُجَلت من طَبْرِستان ، ولا فرق بينها إلا فرق ما بين الصوف والمجر ، وليس في مساجد الزوراء مثله في الزينة إلا المسجد بناه أبو جعفر في شارع دَجِيل^(١) مما يلي باب الأنبار^(٢) والمسجد الجامع الذي بجوار دور الخلافة .

في تقرّبي من رجال الدولة

وقد لقيت في الزوراء جماعة من الأمراء المقدمين في الدولة غير أنى انقطعت إلى خدمة ملوكنا البرامكة وملازمة بابهم في البكور والرواح ، إذ كانوا أصحاب فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمنى وإياهم في أوثق حبال الأُنس والائتلاف . وتقرّبت بكفالتهم إلى معن بن زائدة الشيباني وروّح بن حاتم المهلب وهما أعظم رجال الدولة بعدهم ، وكنت إلى آل المهلب أكثر منى تقرّبا إلى شيان^(٣) وإن كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلا أن معنّا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدّمهم في مراتب الدولة وهم أغراب عن العرب ، وذلك لم يكن في آل المهلب فانهم كانوا مع البرامكة على خُطّة ومودة واتصال .

وأقرب الأمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بثقل الدعوة في خراسان من قبل أبي مسلم الخراساني . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبالغته في رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله^(٤) ، والمنصور لا يُبرم أمرا إلا بمشورته ، ولا يركن في أعماله إلى أحد سواه اللهم إلا في سياسته مع العلويين فانها كانت جارية على البغض والجور ، مع أن خالدّا ميال إليهم منذ أخذ في الدعوة الإمامية

(١) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨

(٢) ذكره ابن الأثير ٦ : ٩٨ والمسعودي ٣ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٣) يقول ابن الأثير ٦ : ٥١ إن شيان كانوا مع البرامكة على انحراف .

(٤) ابن خلكان ٣ : ٣٦١ والمسعودي ٣ : ٢٢٢

بخراسان ، وهى إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلبيون فإنهم من عظماء العرب ومن لهم رأى المقدم عندهم والإصرار المطاعة عليهم ، وقد كانوا هم وآل حقطبة من القواد الذين نصرروا العباسيين على بنى أمية ثم انضافوا إلى جملة أبى جعفر بعد الفرقة بينه وبين العلوية رغبة عن الأئمة من أهل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر فى المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن فى مديحهم بالقصائد التى تعظم عن أن يقال مثلها فى الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حنبل :
 أمسى العباد لعمرى لا غياث لهم إلا المهلبُ بعد الله والمطرُ
 هذا يزود ويحمى عن ديارهم وذا يعيش به الأنعام والشجر

وأما معن فإنه أمير شيبان كلهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب الحسان إلا أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتخير فى نعتة اللسان . وشيبان من بيوتات العرب فى قریش ، وهم أربعة بيوت بعد بيت بنى هاشم ، وهى بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت اليمن (١) . وقد كان معن على مخالفة العباسيين لأول ظهور دعائهم وأبلى مع بنى مروان بلاء حسنا ، فلما انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شديدا وجعل لمن يأتيه به مالا جزيلا فلم يظفر به لأنه كان مقيما فى البادية كما يقال (٢) ، ثم إنه رجع إلى

(١) الأغاني ١٧ : ١٠٥

(٢) وقد وقع لمن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحببت أن أذكرها هاها لكنت فكاهية تدل على كرم العرب وأتفة نفوسهم والكلام فيها لمن يقول : كنت قد اضطرت لشدة الطلب إلى أن أقيم فى الشمس حتى لوحى وجهى وخففت عارضى ولبى فلبست حبة صوف عريضة وركبت جملا من الجمال القالة لأمضى إلى البادية فأقيم بها فلما خرجت من باب حرب تبغى أسود متقلد سيفاً حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيرى فأناخه وقبض على فقلت له مالك قال أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن بن زائدة فقلت يا هذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فانى والله لأعرف بك منك قلت إن كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملته معى بنى بأضعاف ما يذله =

الهاشمية (١) مثلثا ووافق يوم وصوله قيامَ أرواندية على الخليفة في الأسواق ، وقد قاتلوه إلى أن ضاف به الحناني ، فكان معن يجد في ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبي جعفر بانضمامه إلى العدو بعد أن بدت له مقاتله ، ولكن أبت مروءته إلا أن يكون الحلم في نفسه طبيعة تجلّه عن مطامع الأخساء ، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبو جعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصيبت به بين حرس على رأسه وحفدة بين يديه (٢) ، وفي حضرته جماعة من الأدباء الندماء قد خاضوا في حديث الشيعة في نراسان . وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا إمعان . فضلّ عنهم سر السياسة فيها إلا رجلا من شيبان بايغ الفطنة يقال له محمد بن الحسن الشيماني ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خيل لسماعه أن القرآن نزل بلغته (٣) ، فكان يرى لنكبة أبي مسلم رحمه الله السبب الذي لم يفطن له أحد من هؤلاء الجلاس ،

== أمير المؤمنين من جاءه بي فخذ ولا تسفك دمي قال هاته فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال صدقت فيما ذكر عن ثمنه ولست قابله حتى أسألك عن شيء فان صدقتني أطلقتك فقلت له قل قال إن الناس قد وصفوك بالجوود فأخبرني هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أني قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راحل ورزقي من أمير المؤمنين عشرون درهما في الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار وقد وهبت لك ووهبتك لنفسك وبلودك المأثور بين الناس لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقّر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ثم رمى العقد في حجرى وترك نظام البعير وانصرف فقلت يا هذا والله لقد وصحتني ولسفك دمي أهون على مما فعلت فخذ ما دفعت اليك فاني عنه لنبي ثم قال أردت أن تكذبني في مقال والله لا أخذه ولا آخذ بمعروف ثمنه ومضى فوالله لقد طلته بعد أن أمنت وبذلت لمن يحب به ما شاء فاعرفت له حيرا وكان الأرض ابتلعه . ابن خلكان ٣ : ١٦٠ والأعاني ٩ : ٤٣ وعجائب المخلوقات ٣٠٩

(١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد .

(٢) الابشهي ٣ : ٣٠٩ والتليدي ١٠٩

(٣) أبو الفداء ١٩٢ وابن خلكان ١ : ٦٤٧ والخميس ٢ : ٣٣٣

فانه لم يتحتم لدى مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبفه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها إليه ولا لإفراطه في القتل ، وإنما نكب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صماء تعصف ريحها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفي نفسه أن يفتك به على غرة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبي جعفر ومما كان من استصحابه للجنود في سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدي الخليفة جماعة من حيث لا يدرى فاعتروه بالسيوف ومعن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله إجلالا لأمر المؤمنين .

وأما ما يقولون من أنه خامل السلالة فليس ذلك إلا من باب التدليس لمرافقة أرباب الدولة على أهوائهم ، على أنه لو صح ادعائهم ما منع من أن تكون به خصال لا ترى في عامة الناس ، فانك لتعلم أنه ملك خراسان^(١) وهو ابن تسع عشرة سنة ، وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء ، وكان ثبت الجنان إذا جاءت الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث المادحة لم يظهر فيه اكتئاب^(٢) ، وكان أقل الملوك طمعا^(٣) وأبعدهم بين الناس شهرة ، حتى كان إذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق في المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجال عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بإنشاء الدول : الاسكندر الرومي . وأردشير الفارسي وأبو مسلم الخراساني .

(١) (ذكر) صاحب العقد الفريد ١ : ١٢١ أنه رماحى عليه لقب أمير المؤمنين .

(٢) ابن حليكان ١ : ٣٩٨

(٣) أبو البرق ٢١٦

لمعة من أخبار أبي جعفر

ومن المقرين إلى أبي جعفر غير من لقيته من الأمراء المقدم ذكرهم الربيع ابن يونس حاجبه ومولاه ، وهو حظي عنده ومكين لديه إذ أنه مقدم على الموالي ، وهم المتقدمون في هذه الدولة ، ابلائهم مع يزيد بن المهلب ، على مابوك بن أمية بجرجان^(١) وما إليها من البلدان ولاستمرار أبي جعفر على تقديمهم في الرئاسة تحفظاً على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يجد عليهم أشد مما يجد على بنى أمية .

فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدم الأغراب^(٢) في مراتب الدولة إلا بما هو مطبوع في نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينته إلا الخوف من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوهم على ماصرة أهل البيت ، بجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها إلا بعد ما أعلمه نُوحَتْ بسلامتها من الأعداء ، وما فشت فيها العماره وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدو عليه فأقفل الدروب بالليل^(٣) ، وأقام عليها الحراس وحول الأسواق إلى جهة الكرخ كما تقدم حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن ناحيتهم ، وشرع قومه يقولون إن رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لما وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول ؟^(٤) فقال إني رأيته أعز على الطالب من بيض الأنوق بيد أنى رأيت الغريب بطرقه ويبيت فيه وربما كان فيهم العين والحاسوس . وهذا كلام فيه بعض المريبة عندى لأن من أبناه الخوف مدينة حوطها بسور بل سورين^(٥) وحفر بعدهما خندقاً بعيد المهوى غنى بما في نفسه من الخوف عن أن يخوفه أحد كيد العيون ومحالهم .

(١) الأعاني ٩ : ٢١

(٢) ابن الأثير ٦ : ١

(٣) الأعاني ٧ : ٣٤

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٥) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودي ٣ : ٣٨٧

ثم إنا لنجد له هذا التيقظ في البخل الذي ليس هو فيه عن لؤم^(١) يُغَلَّ يده عن الخير ، لأنه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم^(٢) ، وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات ، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين ، كما أنه أقل من أعطية الجند ليأمن عصيانهم^(٣) واستغناءهم عنه ، كأنه يعمل بالمثل السائر الذي يقول جُوع كلبك يتبعك^(٤) ، وإلا نأبأ لا نرى هباته إلا لمن هو خلو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وإن كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم ، وذلك لما نعلم من خروج^(٥) الشعراء في أيامه من الحضرة إلى غير وجهة يسترفدون بها صلتهم .

وأما دليل تخوفه من ولاية الأقاليم فكونه يُذَكِّي عليهم العيون ويتدارك عزهم من قبل أن ترسخ في الأمارة قدمهم ثم يستولى على ما يصل إليه من أموالهم ويجعله في بيت سماه بيت مال المظالم^(٦) حتى يقعدهم عن القيام عليه في ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حبا في جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس لأنه لولا أنه بخل ناشئ عن رأى له في السياسة ما حنق على معين حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهل من أمرهم ما حزن^(٧) ، كما أنه لو طمع في حفظ هذه الأموال المغتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى أربابها في كلام من الوصية يقول فيه^(٨) إني لأحضك يوم تدركني الوفاة أن تدعو من أخذت ماله وتردّه عليه ، فانك ستحمد بذلك

(١) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل في أبي جعفر معروف ومتفق عليه .

(٢) المسعودى ٢ : ١٩٤ والمستعارف ١ : ٢٠٠

(٣) في ابن الأثير ٦ : ٥ أن المنصور عرض جنده في السلاح وهو لابس درعا وبيضة .

(٤) الفخرى ٦٩

(٥) الأعاني ١٣ : ٩١ وفي العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال إن الشعراء يبابك

وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم .

(٦) ابن الأثير ٦ : ١١

(٧) ابن الأثير ٦ : ٩

(٨) الفخرى ١٨٧ وابن الأثير ٦ : ١٢

إليهم ، ولكن إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنى ما رأيت الوفاء طبيعة إلا في الموالى والأغراب .

ثم إنه طمّح من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويصرّب عليها المكوس تثقيلا على التجار ، فوضع على الخوانيت خراجا (١) لم يسبق له عهد في الاسلام .

هذا نثر يسير من أخبار أبى جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذى يدعو إلى التيقظ ، والناس يقولون إنه صالح النظر في السياسة وربما جاريتهم على ذلك فيما هو آخذ بتسيير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسين رضى الله عنهم ، وقتل أخاه إبراهيم بن عبد الله وكلاهما براء من الذنوب ، ولست أرى لأبى جعفر فيما وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجهها تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلويين إلى هذا اليوم إنما نشأ عن تفرق دُعائهم على أغراض ، لم تجمعهم غاية واحدة في جميع البلدان بل كان بعضهم منقطعاً عن بعض ، وكان كل واحد منهم منفرداً إلى نفسه فيما يطلبونه من ثار شهدائهم المشرفين (عليهم صلوات الله ورضوانه) ، فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأن الأمويين في مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا دُعائهم إلى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله في إظهار الدعوة الامامية لأعاد الله إليهم الخلافة التي غلبهم عايتها الأمويون ، وهم الذين عرفت لهم الفضائل التي لا يستطيع المكابرون من أعدائهم (٢) انكارها ، والله يؤتى ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

(١) المقرئى ١ : ١٠٣

(٢) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بني أمية إن الذين حولنا لو يعلمون من على ما نعلم لفرقوا عنا إلى أولاده . ابن الأثير ٥ : ١٧ وكذلك الخجاج بن يوسف جلس يوماً يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قتلة الحسين بن دلى رضى الله عنه فلما علم الخجاج ذلك قال له إنك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئاً . ابن الأثير ٤ : ٢٣٩

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذى حفظها للمسلمين

ولما حدثنى لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قوله ما فى نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياح حقوقهم ، وقد كنت استزدته الحديث عن أخبار العرب وأيامهم فحدثنى عن فتوح الاسلام خبرا أحببت أن أسرده إليك فى هذا الكتاب ، وأسلك فيه سبيل الاطناب ، ليكون نفرا للأعراب ، باقيا إلى منتهى الأحقاب . فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق ليجيرهم من الملمات التى وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم فى الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحدين المقرين بالخالق المصدقين بالبعث الموقنين بالثواب فى الآخرة إلا نفر قليل ^(١) ، بجمع بالرسالة كلمتهم ، ونزع الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها آلهة ^(٢) وتركوا عبادة الإله الواجب الوجود . ”من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا“ ^(٣) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مأمورا فى بدء رسالته بأن يدعو العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافة إليه ، فلما قبض صلى الله عليه وسلم وهو مشكور سعيد ، هرفوع منزلته ، انقبضت نفوس العرب وباتوا فى موقف التردد ، فمنهم من كانوا يحافون أن يدخلوا فى ولاية أحد من بعده يطلق يده فى الأمر بما يشاء ، وعهدهم قريب بالجاهلية من تباين الميول والأهواء ، فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم بعدهم عن الأغراض النفسانية ، والتمسك بهم من الخلافة السلوك فى سنة الله ورسوله دون شىء آخر من حاجات الدنيا إلا هداية الناس ،

(١) المسعودى ١ : ٢٣٩

(٢) المقدمة ٣١١

(٣) سورة الكهف .

اجتمعوا على كتاب الله أمة واحدة في دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم
وابتزوا الأعاجم سلاطنتهم وحازوا معظم العالم في شرق وغرب .

ولما صال المسلمون كالسباع ، وشدوا على الحصون والقلاع . وتراموا على
سمالك الحضرة ، واقتحموا المشاق والغرر ، بما حضهم عليه الكتاب من الجهاد ،
ولأن المائت منهم في ساحة الحملات ، شهيد له في دار الخلد جنات . وعدهم الله
تعالى بقوله "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع
أجره على الله" (١) ، فلما ندبهم أبو بكر رضى عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم (٢)
وولدهم وبيوتهم وماشيئهم وسائر ما يملكون ، وعلى وجوههم سمات الفرح
والابتهاج ، (٣) كأنما النصر محقق في النفوس صرفا بغير مزاج . ويقال إن الشيوخ
الفانين قد قدموا مع أولادهم ليطنوا الأرض التي وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم ،
حتى إذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أن لم آقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأن ليس
لكم عزم ولا فيكم بقية ، فقالوا قدمنا يا خليفة الرسول رغبة في ثواب الله وحبا
في فاكهة الشام واستعدادا لمائه الزلال (٤) ، فتفأل منهم بالخير ، وقال إن ربكم
يعطى النصر العزيز لمن يشاء . فاذا كان هذا عزم المسان وإقدامهم فما الظن ببسالة
الفتيان الذين هم ضراب السيوف (٥) ، وشرب الختوف؟ فان تنظر إلى ما تعرف
لهم من الأشعار ، ويروى عنهم من الأخبار ، تجد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح
الفخار . وتستدل على أن قوتهم في الهجوم على الديار ، أشد من عدو تمنعه القلاع
والأسوار .

(١) سورة النساء .

(٢) يافوت ٤ : ٣٢٤

(٣) المقدمة ٢٣٢

(٤) الواقدي .

(٥) ذكر الطروشى ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية

التي على رأسه .

ومما حفظ هذه الفتوح للمسلمين أن البلدان التي دخلت في حوزتهم لم تبد إشارة ثورة ولا أمانة فتنة ، لأنها كانت قبل ذلك في سلطان الفرس أو الروم فاستوى لديها أن يحكمها كسرى أو أمير المؤمنين . وربما مالت إلى عمال الخلفاء أكثر من ميلها إلى عمال الروم لما وجدت قبلهم من وفور العدل والقيام على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وحرّضوا على النشبت به ، حتى لقد عزّوا خالد بن الوليد عن الامارة من أجل أنه أراد أن ينقض الأمان الذى أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الأمة لأهل دمشق ، إذ دخل مدينتهم صلحا ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثال هذه الرداية المنصفية كثيرة في سير الخلفاء ، وكانوا إذا أوصوا عمالهم باستعمال العدل والاحتباس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم : "إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوة ، إذ كان عددنا دون عددهم ، وعدتنا دون عدتهم ، فان استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا " فيظهر لك أنه إنما عم الإسلام بما عدل الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم في زمن الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التي ذهبت فضائلها مثلا بين الناس ، حتى إن الخلق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالإسلام على بعد الديار ، وليس ذلك إلا لما يسمعون من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلعمري إنه لولا انقلاب خلافة الملة إلى ملك في يد الأمويين ما بعد أن يعم الإسلام العالم بأسره ، والله تعالى أعلم بالغيب ، وله في قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هذا هو السر في اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين ، والأعاجم يعلمون ذلك ولكنهم يقولون إن الإسلام غلب أمما لا مدنية عندها ولا نظام لملكها فقوى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيما أن فارس كانت من أضخم الدول سلطانا ، وأبعدها في الحكمة أعراقا ، فلم يصعب عليه منالها ، كما لم يعسر عليه غلب الروم في الشام ، وهم بمكان من المدنية لا يرام . ولست أقول إلا أنه لما نشأ الإسلام كانت القياصرة في ضعف وانحلال ، وكان الفرس يزقههم ظلم

العمال . فكان ذلك داعيا إلى انتراع ملكهم ، ولم ينل الإسلام إخفاقاً في عهد الخلفاء الأقرين وهم بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة . فلم يهزم للإسلام راية في أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علي عليه السلام فذهبت سداجة الملة ، وانقلب أمر الأمة من خلافة إلى الملك ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً " ولله في خلقه شؤون ، وهو يقدر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية .

الرسالة الثالثة

لقائى ولى العهد وحظوتى لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائى ولى العهد . فإننا لنى بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الإسلام ، إذ دخل علينا البيت خادم من خدم الخليفة ، فتخوف الفقيه من شىء لم أدر ما هو ، وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد ^(١) ، فقال له أبو يوسف سبق وهى إلى أنك تطلبنى لأمر جلل ، قال أجل إن الأمير يدعوك الساعة إليه لأمر أقلقته الليل كله ، ولم يجبر فى خاطر أحد من العلماء التصرف فى وجه يكون به كشف الغمة وتحقيق المسئول ، فدعا خالد بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبى حنيفة وما فيهم أحفظ لعلمه من أبى يوسف ^(٢) .

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبث أن استوضح هذا الخادم الخبر فأعلمه أن الأمير حقيق على الخيزران أم أولاده ليلا ، وقال لها فى سورة الغضب أنت طالق ثلاثا إن بئ الليلة فى مملكة أبى ، فلما سكن غضبه ووجد لها برأ من المهمة راعه أمر الطلاق فاستدعى الأعيان والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الإفتاء الذى يطيب به نفسا ، ففكر أبو يوسف برهه فلم يفتح الله عليه بشىء .

وكننت فى ذلك الوقت أجيل الفكرة فى أمر الخيزران وأذكر مآثرها فى الدولة وذلك المسجد الذى زينته به الزوراء ، فوقع فى نفسى ما يكشف هذه المهمة ، فقلت لأبى يوسف إن المساجد بيوت عبادة الله تعالى ، ولا تدخل فى ملك أحد ،

(١) هو أمر معروف فى الحكايات وكتب التاريخ .

(٢) الشريشى ٣ : ٣٦٧

فلوبات الأمير فيها الليلة ما حسبه بيت في مملكة أبيه ، فما كدت أنتهى من كلامى حتى كاد يخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننتُ والله أن أعمال الفكرة في مثل هذا التخاص الجميل جهد من غير تحصيل ، وعناء للنفس ليس له من سبيل . فأما إذا ابتدعت هذا رأى الميمون فعلى عهد الله لا ذكرك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسب لا أمير مسرة عظيمة مما رزقنى الحظ استنباطه ليكون في حل من يمينه ومبرة له من قسمه .

فلم تكن إلا ساعة حتى عاد إلى نصير ذلك الحاجب قائلاً (١) أجب الأمير ، فقامت لساعتي أمثل الأمر ، فلما صرت في باب الدار وجدت جماعة من الغلمان قد أعدوا لي بغلة فارهة من مطايا الأمير مجللة بالديباج ، عليها حلية من الفضة ، فركبت وسار الغلمان بين يدي حتى وصلنا إلى دور الخلافة ، وقد كان أخبرني نصير عما جرى بين الأمير وأبي يوسف من الحديث ، وأنه لما مثل بين يديه كاد يعيدل عن استفتائه ظناً منه أن لا يكون من فتواه جدوى ، « والخلفاء وأولادهم يبدؤون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتتحوهم معهم » (٢) ، فلما استطلعه رأيه فيما أهمته من الأمر وذكرك له الرأى الذى تقدمت به إليه غلب عليه السرور حتى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والعود ، ثم سأله أمن معقوله ذلك أم من منقوله ؟ فقال له أبو يوسف لا والله وإنما قال هذا صديق لى من أبناء الفرس وأخذ يذكركنى عنده بما استطاع من جميل الكلام .

فلما أقبلنا على دور الخلافة جُزنا باب السور الكبير وسلمنا ممرا مفروشا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتخذ فيها أحواض يتصعد منها الماء وعليها عمد من الرُخام تُقَلِّ قبابا مغشاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب . ورأينا

(١) ذكره الأعانى ٣ : ٥٧ والمقد الفريد ٣ : ٩٩

(٢) ابن خلكان ١ : ٣١

في طرف هذه الجِنان صنعا يرفعون ^(١) قصرا سماه أبو جعفر قصر الخلد ^(٢) وأضافه إلى قصر السلام ^(٣) الذي يسكنه في هذه الأيام ، فاتمينا من هذا الممر إلى باب القصر وهو معقود تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر ، وهي علم الزوراء ومأثرة بني العباس ، فلما جاوزناه اتمينا إلى دار مسورة بالعمد وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني ^(٤) ، وفي أطرافها دهليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتخذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة ، بفزناه فاذا نحن في دار أفسح من الدار الأولى ، ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب ^(٥) ، وفيها كثير من العمد التي يوجه الخلفاء عنايتهم إلى تزيينها بالرسوم والآثار منها فيما يبنون من القصور ، حتى إنى عددت في صحن من صحن دور الخلافة سبعا وأربعين سارية لو أن ثمانين غلاما وقفوا وراءها ما راهم من هو في صدر الدار .

ثم اتمينا من هذا الدهليز إلى سلم من الرخام ينتهي بالراقي ^(٦) عليه إلى مجلس الأمير ، وناهيك به مجلسا قد فرش بالرخام المجزّع ، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضها إلى بعض ^(٧) ، وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطبرية ^(٨) عليها أبيات ^(٩) في مدح الأمير ، وفيه كراسي مرصعة بأصداق اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأن على رؤوسهم الطير ^(١٠) ، وفي صدرهم

(١) الأعاني وابن الأثير ٦ : ٥

(٢) القزويني ٢١٠

(٣) الأعاني ٩ : ٤٥ والسيوطي .

(٤) الأعاني ٥ : ١٧٣ والالتليدي ٢٢٦

(٥) الالتليدي ١٤٦

(٦) في الأعاني ٦ ، ٧٨ ما يشير إلى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة .

(٧) الأعاني ٥ : ١٦٦

(٨) المسعودي ٣ : ٨٢ والأعاني ٥ : ٥٩ و ١٢٨

(٩) الكتابة على السط مذكرة في الأعاني ٥ : ٨٦

(١٠) الفخرى ٥

الأمير جالسا في قبة قد اتخذ لها فرش مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبريسم^(١) وإذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق ملبح الشكل جعد الشعر ، بعينه اليمنى نكتة بياض ، وعلى رأسه خصى واقف بالمظلة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهل بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ليدكروهم عنده أو يخاطبوه في حاجتهم .

فلما أقيمت على المجلس غلبني البهر من جلالته المهدي فسلمت عليه بالامارة فردّ على السلام بخفض الجناح ، وأظهر ما حسب لي عليه من المنّة ، وقال لي إنه يأنس بي ويجب أن يصير لي تأديب ولديه موسى وهارون لما بلغه عنى من العقل ، فدنوت من كرسيه وقبّلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولاني من النعمة : إنك قد جعلت لي بهذا شرفا لم ينله أحد قبلي من العلماء ، فقال لي أحسن الله عما جزأك ، فإنا الكثير من فعلنا بك بجزاء للسير من حقك^(٢) ، ثم إنه دعا أبا بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه^(٣) ، فقال له اكتب له بدارنا على دجلة ، وأقطعنا من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلته على السعة ، ثم أمر لأبي يوسف بخمسين ألف درهم معجلة^(٤) ، وكان هذا أول اتصالى بولي العهد أصلحه الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

في تأديب الأميرين وما توالى على من نعمة بنى العباس

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت في دار لها عادت إلى دور الخلافة في موكب عظيم من الغلمان المزينة والخيل عليها القطوع من

(١) المسعودى ١ : ٢٣٤

(٢) الأغاني ٩ : ٣٠

(٣) المسعودى ٣ : ١٨٢

(٤) الأغاني ٣ : ٩٥

الديباج والحلية الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الأبهة مع تقوير موضعها من السلطان . وأقام الأمير في ذلك اليوم مأدبة صرف في زحرفتها وسعة ، وجلس فيها لعطاء قريش ^(١) وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءني من لدن الأمير من ينطلق بي إلى الدار التي وهبها لي على دجلة ، فإذا هي مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب مخرمة ، ولها رَوْشَن ^(٢) بديع الحسن يشرف على دجلة وما وراءها من الرصافة ، وفيها من السدول والأستار الحريرية والبسط الديباجية والقائم النحاسية والآنية المزخرفة والخزائن ^(٣) المجزعة ما ليس مثله إلا في أمتعة الملوك وجلسائهم مما ^(٤) يتكبرون به عليهم في سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التي تدق بجانب الباب ليعلق فيها الداخل ^(٥) ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منرلة بالذهب تمثل ثمارا تجتنى بالأبصار لحسنها ولقرط ما أبدع فيها الممثل من الصناعة .

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدي لم تكن نوبتهما ^(٦) في ذلك اليوم بملازمة ناله ، ووضعوا بين يدي إناءين من الذهب في أحدهما منشور ^(٧) بضبيعة في السواد وفي الآخر حنقة في وسطها درة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات بينها كثير من شذور الذهب ^(٨) ثم جاءني وصيف آخر للمهدي أكرمه الله يحمل إلى رقعة بالضبيعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الخيرة يقال لها العُمرية ، ^(٩) ثم بعده وصيف لأُم المهدي وهي بنت منصور الحميرية ومعه إناء

(١) الأغاني ٧ : ٩

(٢) الأغاني ٥ : ١٠

(٣) الأغاني ٥ : ١٠٩

(٤) الأغاني ٥ : ٤٠

(٥) الأغاني ٤ : ٥٢

(٦) الأغاني ٣ : ١٨٤

(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣

(٨) الأغاني ٧ : ٣٦

(٩) ذكرها الأغاني ٢ : ١٠٣

من ذهب قد انتثرت عليه اللائع^(١) ، ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام^(٢) فيه دنائير مَخَاتَم من العقيق قد رسمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسبه من محاسن الأشياء التي لا تكون إلا عند الملوك ، فهطأت على النعمة غيثا من الذهب ، وليس ذلك إلا لأني وجدت مصرفا في القول لحل تلك البمين .

وأخذت من ذلك اليوم في تأديب الأميرين موسى وهارون بما أحب أبوهما وأوصاني به يحيى بن خالد وزيرا ، ولكن كنت إلى الصغير أميل مني إلى الكبير لما وجدت من انصبابه على المطالعة^(٣) واعتباره بأقوال الحكماء ، ووجدت ان يكون هو السابق في الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لما هو جدير به من تعمير البلاد . وتقويم العباد . لأني رأيت الكبير صعب المرام شكس الأخلاق ، وقد عرفت ذلك ذات يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعت فيه رأيه حرد على وطار طائره من الغيظ ، فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به ، فمرّ لذلك وأوسدني عما بدر منه في وقت الحدة اعتذارا ، فعرفت من ذلك أنه صعب المرام^(٤) وأن من توقاه وعرف أخلاقه دخل في رضاه ، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتح به غير ما يهواه اطرحة وأقصاه^(٥) ، وهذا كما ترى خالق غير شهود في أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ إلى تفريب من يداهنهم بالشاء على ما ليس فيهم من الحلال ، فات ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم .

(١) الأغاني ٦ : ١٣٣

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤٥٥

(٣) الفخرى ٢٣٠

(٤) المسعودي ٢ : ٢٠٢

(٥) الأغاني ٥ : ١٦

أما هرون رعاه الله فأنى عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية الحلم ما أعظم في عيني منزلته ، ولم أر في أولاد الملوك أجمل منه خلقا وحُلُقًا ، وفيه مماثلة للفضل ابن يحيى بن خالد في الصورة ، وهما في سن واحدة ونشأة واحدة ، حتى إنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدى واحد ^(١) فكانت أم الفضل ترضع هرون والخيزران ترضع الفضل ، وهو أبيض ^(٢) اللون واسع العينين على الجبهة منطوي على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من أمر لم يستفزه الغضب ولا يزيد على هاه ^(٣) كلمة غيظ واحدة ، وأنا أتشرف بتأديبه ^(٤) إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة ، وقد أتى عليه من العمر أربعة عشر عاما أصلحه الله ووفقه إلى ما به صلاح الملة والدولة بمنّ الله وكرمه .

ولست أكتف عنك أنه لما صارت إلى نعمة بنى العباس تحدث الناس بها كثيرا في الحضرة ، وأحدثت في النفوس غصصا يثيرها الاشفاق على دولتهم من المهدي أن يجري على سنة أبيه في تقديم الأعراب عليهم في المراتب إلى أن تخلو منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فأنما يعظم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه في غرض واحد حتى

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ وأبو الفدا ٢ : ٥ وفي الفخرى أن من بعض ما قيل في مديح الفضل بن يحيى قولهم :

كفى لك فخرا أن أكرم حرة غدتك بئدى والخليفة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والخميس ٣ - ٣٣١

(٣) الأغاني ٥ : ٦٦

(٤) قال في مروج الذهب : إنه لما أسلم المهدي ولديه الهادي والرشيد إلى المؤدب أو عز إليه أن يصير يده عليهما ببسطة وطاعته منهما واحدة وأن يقرئهما القرآن ويعرفهما الآثار . ويرويهما الأشعار . ويعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكاء في مواظبتهم ويصبرهما بمواقع الكلام ويمنعهما الضحك إلا في أوقاته يأخذهما بتعظيم الأمراء . بنى هاشم ورفع مجالس القواد وألا تمر به ساعة إلا وهو يغتنم فيها فائدة يفيدهما إياها من غير أن يقسو عليهما قيمت ذهنيهما ولا يتوسع في مسامحتهما فيستحليا القراغ ويألفاه وأن يقومهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أياها فعليه بالشدة والعلظة .

تشتد صولته وروج فيه سوق الأدب بما يوجد له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ما سبق من خوفه من الأمويين إلا أن يتجافى عن العرب ويقصيه عن المراتب إلى أن ترسخ في قبائلهم دولته من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين في فتن صعاب لا يرجو بها بلوغ أمنيته ، وإنما رزق من السياسة الحكمة في تقديم الأعراب واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يظهر من الجبروت الذي لا يلتبس في تمكين مهابته من المخالفين له سواء ، كدأبه في الانقطاع عن اللهو^(١) ، وبعده من البهرجة التي تبعده عن شعائر الملة ، وتوجيه من الناس ربيعة يتم فيها كثيرا من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلاس والندماء إلا خلف ستارة يضربها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعا^(٢) إلى أمور غيرها تدل على أن مثله في التيقظ مثل الذين يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمر بهم زمانهم في أشد ما يكون من الخوف والريبة .

بقية من أخبار أبي جعفر

وقد عرفت بترددى إلى دور الخلافة كثيرا من أخبار أبي جعفر وسياسته فوجدته ينظر^(٣) في أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال ، فاذا طلع النهار جلس في إيوانه ونظر في حال الأمة وعزل الولاة الذين يريبه منهم مخالفته ، ونصب^(٤) من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابة والفظانة مكانهم ، ولا يزال آخذا في ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قبيل الظهر ، فاذا تناول الغداء عاد إلى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند ،

(١) الخنيس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطى .

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٠

(٤) الماوردى ١٣٧

فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم ، فإذا صلى العشاء نظر في كتب العمال مما تجمع في النهار وشاور ^(١) من يركن إليه من سُمّاره ، تلك عادته من يوم ولي الخلافة .

وإن تذكر عاك الله ما وصفته لك من نحوله في الرسالة السالفة ثم يُضف إلى ذلك ما أنا ذا كر لك من سهره على تدبير المملكة تتمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التي أفنى فيها عمره وطال منها عناؤه ، فإن أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والتهياث الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والحراسانية ^(٢) يملك بعضهم بالذي هو واجد على الآخرين فترى أن ما لقي من تصارييف الزمان هو الذي جعله على سوء ظن بالرعية ، فهو لا يركن في أموره إلا إلى وزيرنا خالد أعزّه الله ، ولولاه ما استوى له الملك بين تغلب الأكراد ^(٣) في فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البلدان .

وقد علمت مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم مع أولاد على عليه السلام ، فلما بعد خالد بن الحضرة لحرب الأكراد ^(٤) تمادى أبو جعفر مع وزيره أبي أيوب الميورياني ^(٥) في سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم وقتلها على حُنى كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمه عبد الله الذي غلب بنى أمية في الشام ، فانه لما أحس منه الانحراف أسكنه في قصر بنى أساسه على الملح حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه ^(٦) ، وهذا من الأمور التي يتناقضها الداس عنه بسوء الأحداث

(١) المسعودي ٢ : ١٨٤

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٩

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و ٦ : ٦

(٥) المسعودي ٣ : ١٨٢

(٦) المعري ١٩٨ وابن الأثير ٥ : ٢٣٥ والمسطوف ١ : ٩٦

كما يتناقفون ذكر قتله لأبي مسلم داعية الامامية في خراسان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا الأمويين وأقاموا ملكه في فارس فالعراق خراسان فما بين المسعد الأقصى إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوما في هذا الشأن فحدثني عن جبروت أبي جعفر وأخبرني أن سلامة أمه لما حملت به رأت في منامها كأن سبعا زأراً فأقبلت عليه السباع من كل ناحية ، وكلما انتهى إليه سبع سجد له ^(١) فصيح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر .

ولقد دخلت على أبي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحيرة وهي المدينة التي يقصدها ^(٢) حين يشتد عليه الحر في الزوراء ، إذ ليس في جوارها ما يصلح لسكنى الملوك غيرها ^(٣) فلما أذن للناس بالدخول عليه صحبت لسان الشريعة أبا يوسف فأصمته في مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له أبو دلالة ، وهو يدنيه ويضحك منه على بيتين من الشعر ^(٤) قالهما في استهجان الزى الذي عم استعماله في لباس الخواص والعوام كما تقدم ، كأنهم في كتابة الآية بين أكتافهم يذبذبون كتاب الله وراء ظهورهم ^(٥) ، فلما أدبنا فروض السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لي بعد أن قمنا بالواجب من إجلاله إني رأيتم "يريد الفرس" أهل ولاء ^(٦) وفطانة فوليتكم المناصب في دولتنا ، ولم أر بني مروان وقد انتهوا لذلك ولا تكلفوا العناية في تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جباراً

(١) المسعودي .

(٢) وفي ابن الأثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضا برهة من الزمان .

(٣) الأعاني ٣ : ١٢٥

(٤) البيتان هما قوله :

وكنا نرجى من امام زيادة شاد ناول رادد في القلاص
تراها على هام الرجال كأنها دنان يهود حلات نالاس

(٥) العقد الفريد ١ : ٩٨

(٦) ابن الأثير ٦ : ١٢

لا يبالي بما يصنع ، وكان سليمان همُّه بطنه ، ثم أفضى أمرهم إلى أولادهم المترفين فكان همهم الشهوات وركوب الملأ من معاصي الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمننا منهم لمكره باطراحهم صيانة للخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بمحصرة كانت في يده ، فوقع على بني أمية ممن حضر المجلس قذف شديد ، يرومون به موافقة السلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعافرون الخمر ويظلمون العباد حقوقهم ويستحلون أخذ أموالهم بغير استحقاق ، ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد ما لا طاقة لهم به من الضرب والاهانة ، ولا يقرعونهم ذلك حتى يحطموا زرعهم في طلب دراج قيمته نصف درهم ، ثم انتقل بعضهم من هذا القذف إلى أن يبحث الخليفة على تتبع الهاربين منهم في جميع الوجوه ، وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين اللذين قالهما سديف لأبي العباس لما تم له الغلب عليهم :

لا يغررك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارف السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فامتلاً وجه الخليفة غضبا وقال : لعمرى إن الأمويين أهل مظالم قد غمطوا النعمة فهوى نجههم وثل عرشهم ولله فيهم ^(١) نقمة سأتابعها فيهم حيث لقيت عاتيا . فعجبت من مظاهرتة بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمحال . وأما لا أقول إن الأمويين منزهون عن هذا الطعن ولا عن أشد منه ولكني أرى أنهم لو لم يكونوا حفيقين بمثله لراهم كثير من هؤلاء الجلاس بأنكى منه تقربا من السلطان فيما يجب من الفسح في أعدائه ، وكان ذلك أول ما لقيت أبا جعفر ، ثم لم أره بعد ذلك لأنه ركب ^(٢) إلى مواطن الحج المباركة شرفها الله بكرمه وإحسانه .

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٧ والقزويني ١٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

في ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة إلى الموسم موكب لم ير أحفل منه في مواكب الملوك ، فقد أقبل أهل المدينة إلى باب الكوفة ^(١) حيث اجتمع من النافرين إلى الحج الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم ما لا يحصى عدده إلا الله ، وكلهم مجهز بأبله وكسوته وقربه ونحرثيه وطعامه وهو الأخصبة اليابسة والأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضد والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ^(٢) ، ومعهم قطعة من الجند تحوطهم ^(٣) في نزولهم وارتحالهم ، وفي طليعتهم هودج تظللها قباب من الديباج المطرز بالذهب ^(٤) ، وفيها يقيم الأمير المولى على الجحاج ، وله في إمارته النظر في أمور عشرة وهي أن يجمع الجحاج في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني . وأن يرتبهم في المسير ليعرف كل منزله ويألف مكانه إذا أناخوا في بلد . وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها وأجدبها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلت والمراعى إذا انقطعت ، وأن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير بجهاد لا بمال . وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناس آدابهم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يخشى عليهم ضيقه لأنهم إذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج ^(٥) .

(١) هو من أبواب بغداد .

(٢) المسعودي ٢ : ٥٦

(٣) الأغاني ٩ : ٦٤

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٧

(٥) المسعودي ١٨٧

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غصّت بالناس المواقف وضافت بهم الساعات ضرب البوق إيذاناً بركوب الخليفة ، ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعاً على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة ^(١) في الحلية الثقيلة ، وهو جالس في هودج ^(٢) منزّل بالأصداق اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفي يده قضيب الخلافة وفي الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى ^(٣) من فوقها بردة خضراء للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غير البردة التي كانت للملك بنى أمية يُلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم ، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم . وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سلمى بأربعين ألف درهم ^(٤) وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الأئمة لتبقى عندهم بركة ، فاشتراها أبو جعفر بثمائة دينار ^(٥) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين . وأما الفيلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواقب ، وقد أخبرني نصير ذلك الخادم الذي مضى في هذه الرسالة ذكره أنه إنما اتخذها مرتباً له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها ^(٦) . وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الابل التي يظعن بها حريمه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدي حاجا ^(٧) ، ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود .

(١) المقدمة ١٤

(٢) الكشف ٥٠

(٣) كذا في العقد الفريد ٣ : ١٥٦

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٦

(٥) السيوطي .

(٦) المسعودي ١ : ١٨٥

(٧) ابن الأثير ٦ : ١٣

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الاسلام ما لا يخالج النفس أعظم منه ، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أهبة الدولة غير حج البيت الحرام ، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية ^(١) ، وأن يسألوا الله له النعمة ويوفقه ويلهمه الرأفة بهم . ثم إنه عزم على ولى العهد أن يصحبه إلى قصر عبدويه على مسيرة يومين ^(٢) من الحضرة لئتم له الخلوة به على انفراد ، إذ كان يحسب من هذا الموسم إتيان مالا مردد له ، وقد كان يرى في منامه كأن نجوما تهوى من السماء ^(٣) فيتشاءم من ذلك . فلما نفخ في البوق إيذانا بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الأبواب . كأن سفنه الركاب . وشرعها الظلال المرفوعة والقباب . وفي مقامتهم هودج الخليفة قد لمع ذهبه كأن الشمس ترسل إلى الناس نورا من جلال الخلافة .

ولما كان بعد ذلك عاد المهدي إلى الحضرة وشرع في مباشرة الأحكام على الوجه الذى يريده أبوه ، حتى صرنا ونحن اليوم في ولايته أشبه بنا في ولاية أبيه إلا فيما يصير إلينا من العطاء الذى لم نتعوده من أبى جعفر ، وأما ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلا أن يقتنى فيها أثره ، وقد أوصاه وهو بوذعه في قصر عبدويه الوصية التى هى من أحسن ما أوصى الملوك به أولادهم في السياسة ، بدأ فيها بتحريضه ^(٤) على سكن الزوراء وألا يستبدل بها غيرها ، وأن يظهر كرامة أهل بيته ^(٥) ويحسن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهل خراسان إذ كانوا

(١) السيوطى .

(٢) أبو الفرج ٢٢٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦

(٤) ابن الأثير ٦ : ٧ وأبو الفداء ٣ : ٧

(٥) أبو الفرج ٢٢٠

شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم^(١) وألا يستعين بأحد من بني سُلَيم (خوفا من ميلهم مع أهل البيت) ، وأن يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم في أمته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغي الذي لا حاجة به إليه مع ما خلفه له من المال ، وأن يشحن الثغور ويضبط الأطراف ويُعد الكُراع والرجال ويسبى الظن بالعمال ، وألا يُدخل النساء في أمره^(٢) ولا ينام إلا وهو مستيقظ إلى آخر ما أطلال به في هذه الوصية التي ذهبت مثلاً بين وصايا الملوك .

في ذكر من لقيته من الشعراء

يحسن بي في ختام هذه الرسالة ، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولة أبي جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ، ولكن بإيجاز يدل على موضعهم من الاجادة في مذاهبهم ، دون إطنان ينتهي إلى مالا تسعه الصحف من ذكر أبياتهم ونواديرهم . فأبدأ منهم بذكر بشار بن بُرد البصري ، وهو ضرير قد لقيته في مجالس البرامكة^(٣) لأقول قدومي إلى الزوراء ، وكان خالد أعزّه الله قد أحب أن يطلق على اسم الزائر ويبطل عنى اسم السائل الذي كان ينعت به الغرباء في ذلك الوقت^(٤) لقوله لي إني والله لا أحب اسم السائل إلا لطلاب الإحسان ، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسمّى به أمثال هؤلاء المؤمنين ، لأن فيهم الأحرار والأشراف ومن لعله خير ممن يقصده وأفضل أدبا ولكنا نسميهم الزوار ، فوجد بشار لنفسه نصيبا من كلام الوزير فأطلق لسانه في الانشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه في فنون الشعر .

(١) العقد الفريد .

(٢) الفخرى ٤٨ .

(٣) الأغاني ٣ : ٣٦ .

(٤) الأغاني ٣ : ٣٦ الوطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥ .

وقد رويت لبشار هذا الشاعر نحواً من مائة قصيدة ورأيت له في أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المقدمين من شعراء العرب ، فلقد سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول (ألا عم صباحاً أيها الطال البالى) وحيث يقول (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) وفي الإسلام القطامي حيث يقول (إنا محيوك فاسلم أيها الظل) ومن المسلمين بشار حيث يقول :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيماً
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يُعرفن إلا توهُماً
ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجز البصر عن الاتيان بأفضل منه
وفي قوله :

كأن مثار النقع فوق رعوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها
سمو لم يعمل عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، وهذا من الغريب الذي لم يسمع بمثله عن أحد من العميان لأن قولهم منحصرون في الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها ، بخلاف هذا الشاعر فإنه يتوسع منها إلى سائر المذاهب من غير أن يقع في الانحطاط الذي لا يؤمن على من يدخل نفسه فيما هو غريب عنه ، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيداً عن تصوّر الحسن ولكنه أغزل الشعراء ^(١) حيث يقول :

أنا والله أشتهى سحر عينيـك وأخشى مصارع العشاق
وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ، ولذلك أقدمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يُحمله عن التكلف ولا أجده فيه من انتقاد

(١) الأغاني ٦ : ٤٩ وابن خلكان ١ : ١٢٥

عيب (١) به شعره إلا استرساله في الهجاء واختلاقه بعضا من الألفاظ التي يحتاج إليها لقيام أبياته على الفافية من غير أن ترد في لغات العرب .

ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبي حفصة وهو منقطع في شعره إلى مديح معين بن زائدة (٢) لأنه كفاه مؤونة الاستعطاء من غيره ، ولما أتى في بعض مديحه له على ذكر بلائه في حرب الرواندية بقوله :

ما زلت يوم الهاشمية معلما بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حرزته وكنت وقاء من وقع كل مهنيد وسان

أعطاه مائة ألف درهم ، وذلك أعظم ما أعطى الملوكة من الجوائز ، حتى إن أبا جعفر لما علم بذلك أكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معين : "لله دره من أعرابي ما أهرن عليه ما يعز على الرجال وأهل الحرم" (٣) .

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التي يقول فيها مادحا هذا الأمير :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم أسود لهم في غيل خفان أشبل

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
إلى أن يقول :

تجنب إلا في القول حتى كأنه رام عليه قول لا حين يسأل

تشابه يوماه علينا فاشكلا فما نحن ندرى أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه وما منهما إلا أغر محجل

(١) الأغاني ٣ : ٤١ و ٥٣ و ٧٣ وابن خلكان ٣ : ٢٥٢ وابن الأثير ٦ : ٣٧

(٢) الأغاني ٩ : ٤٤

(٣) المسعودي ٣ : ١٨٣ والأغاني ٩ : ٤٤ وابن خلكان ٣ : ١٦٠ والاستطرفة ١ : ٧٣

ولكني سمعت من يقول إنه رفعها بعد حول كامل (١) فقلها في أربعة أشهر وانتخلها في أربعة وعرضها في أربعة بجاءت كأنها السحر الحلال (٢) يعجز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثر من عقله وأن الشعر عنده صناعة ينال نفسه منها عناء شديد ، وإنما يحب أن الشعراء سرعة الخاطر إلى النظم كشمل ما تعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا في المجالس والأسواق . ومن كلام مروان :

طرقتك زائرة في خيالها بيضا تخاط بالجمال دلالها (٣)
قادت فؤادك قاستقاد ومثلها قادت القلوب إلى الصبا فأمالها

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو اسحق إسماعيل « من قبيلة عنزة » (٤) ويعرف بأبي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين بيتا في اليوم الواحد ، حتى ليس إلى الاحاطة بجميع شعره من سبيل ، وله كلام لم يسبق إليه أحد (٥) كقوله :

الناس في غفلاتهم ورحى المنيعة تطحن
وله من بعض كلام (٦) :

لا تأمن الدنيا على غدرها كم غدرت قبل بأمشالكا
أجمعت الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا

(١) الأغاني ٩ : ٤

(٢) ابن خلكان ٢ : ١٣١

(٣) في العقد الفريد « بيضاء تنشر بالحيا دلالها »

(٤) الأغاني ٣ : ١٢٧

(٥) الاغانى والعقد الفريد ١ : ٣٧٤

(٦) المسعودي ٢ : ٢١٨

وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى به الخاصة وإن كان منحطاً عن لغة الأولين في فصاحة الألفاظ ، وتصرفه في الشعر مقصود على وصف الآخرة ^(١) ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما في عمرو بن العلاء :

إن المطايا تشتبك لأنها قطعت إليك بسابسا وربما

فاذا وردن بنا وردن خفائفا وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

وهذا أحسن ما يقال في امتداح الكريم ، إذ لا يخفى أن وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له من الجميل .

ولقيت منهم أبا دلامة زئد بن الجحون وهو من الشعراء المجيدين لكنه قد أضاع شعره في استعطاء أبي جعفر وهو بمكانه من الامساك كما علمت وقد قال في الشناء عليه :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم ل قيل اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلهم إلى السماء فأتم أكرم الناس

وهذا كلام يسمو به إلى جمال الشعر ويملك النفس بما أودعه من وصف السعادة التي صورها مخوفة بالنور، ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس بعد الممدوح عن محاسن الكرم . وقد وجدت أبيات هذا الشاعر محلاة بالخلاعة كما أنى وجدته يتوسع فيها إلى المجون ^(٢) وكثيرا ما كنت ألقاه في مجالس المهالبة ياتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

(١) الاغانى ٣ : ١٢٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والاغانى ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشرطي ٢ : ٢٦

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الأعمر ابى لقيته في مجالس المهالبة صرة
واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الزانة فأجزلوا عطيته من المال
وقد حفظت له من جملة أبيات يقولها في مديح رّوح بن حاتم من أمراءهم^(١) :

إني لأرجو إن لفيتك سالماً ألا أعالج بعدك الأسفارا
وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بإفراغ المال عليه حتى
تشغل به فقلت للامير ما أنت إلا من يقول فيه زهير :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
فقال والله لأن أعطى أحب إلى من أن أمدح . ولا بن المولى كلام يقرب
أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لمقامه في مواضعهم من البادية بعيدا عن حضارة
الأمصار ومن شعره في النسب :

أحن إلى ليلى وقد شطت النوى بليلى كما حن اليراع المنقب
تقربت ليلي كي تُثيب فزادنى بعبدا على بعيد إليها التقرب
وقوله :

وأبكى فلا ليلي بكمت من صباية إلى ولا ليلي لذي الودّ تبذل
وكان الحسن بن زيد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة^(٢) ، قد دعاه
وأغلظ له ، وقال أتشيب في حرم المسلمين وتنشد ذلك في المحافل والمساجد ظاهرا ؟
فقال امرأتى طالق ثلاثا إن كانت ليلي إلا قوسى هذه ذكرتها على سبيل التشبيب ،
لأن القريض لا يحسن إلا بالنسب . على أنى وجدت شعره إلى فصاحة البداوة
أقرب منه إلى حلاوة الحضارة وفي قوله :

سلا دار ليلي هل تُبين فتنبطق وأنى تردّ القول بيداء تملق ؟
عفتها الرياح الدامسات مع البلى بأذيالها والرائح المتعبق
بكل شأبيب من الماء خلفها شأبيب ماء مزنها متالق

(١) الأغاني ٣ : ٩٠

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

ما يبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بحاضرة أهل البادية ،
وانما يُدخلون في لسانهم كلام السوق^(١) وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم
في أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تصبح لغتهم في أشد المباينة للسان العرب .

ومن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحِميرى ، وهو من الواقفية القائلين
بالامام المنتظر^(٢) ، يأتى في شعره على غرضه في السياسة ، ويفرط في سب
أصحاب النبي^(٣) صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت ، وربما وقع عليه
من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس ، إلا أنه ليس لأحد من الشعراء ماله
من عذوبة الألفاظ ، وجودة السبك ، ورويق الشعر وطلاوته . وقد جمعنى وإياه
إلى هذا اليوم أكثر من مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا
تحدث بين القوم أعطى كل رجل في مجلسه نصيبه من حديثه^(٤) ، وله في الذسيب
كلام رقيق فمن ذلك قوله :

ولما رأتني خشيةً البين موجعا أ كفـكـف منى أدمعا يـبـضها درر

أشارت بأطراف إلى ودمعها كنظم جمان خانة السلك فانتثر

ومن الشعراء المقدمين أشجع بن عمرو السَّامى^(٥) ، وقد نزل الشعر في صدره
موهبة من الله ، فانتفضت به قيس لذلك ، إذ لم يكن بها في الاسلام شاعر قبله ،
وانما كان الشعر في ربيعة واليمن . فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس

(١) يقول في الأغاني ٣ : ١٧٣ إن الألفاظ السوقية لا تمنع أن تكون القصيدة جيدة .

(٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودى ٣ : ٨٠ وسعى شيعته بالكيسانية .

(٣) أبو العدا ٢ : ١٥

(٤) الأغاني ٧ : ٣

(٥) الأغاني ١٥ : ١٠٨

على العرب^(١) ، ومما أستحسنه من نظمه سهولة القول التي لا يعاني إلى البراعة فيها تكلفاً ، وقد حفظت له في مديح ولي العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله^(٢) :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار ، وقد رأيتهم يتسابقون إلى ابتكار المعاني الحسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم في عصور الجاهلية ، إلا فيما كان أقل من النادر^(٣) ، ولو رأينا لهم ما سبقوا إليه ما صح أن تهمهم بالانتحال ، لأن العقول قد تتوافق وتتوارد ، وإن كان المتقدمون من الجاهلية أشرف منهم لفظاً فإنهم لألطف منهم صنعا وأكثر من المعاني حظاً . وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا في الزوراء إلا ابن هرمة وسأما الخاسر ، وكلاهما شاعر مجيد أيضاً إلا أن أبياتهما لم تصل إلى ، فلم أعلق أخبارهما في هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة في منتصف ذي الحجة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المسئول في توفيقنا إلى السداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

(١) الأغاني ١٧ : ٣٠

(٢) البيتان قبلا في هرون الرشيد .

(٣) انظر ابن خلكان ١ : ١٠٢ والأغاني ٣ : ٤٩ و ٤٨ : ٥ و ١٧٨ : ٢ والحصرى ٢ : ١٦٧

الرسالة الرابعة

جلوس المهدي على دَسْت الخلافة

أفتتح هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدي على دَسْت الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر ، وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والإسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولدِ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذرَ مصيرها إلى المهدي ، والمشايخ من أهل هاشم حاضرون ، بفرى الأمر على خلاف المظنون بحيلة عابثتها من البرامكة سرا لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موته إلى الصباح عمن كان معه في الحج ، واستدعى عيسى بن علي عمه وعيسى ابن موسى وإلى العهد بعد المهدي وجماعة من القواد والأمرء ، وتقدم إليهم بأمره — فيما كان يزعم — أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يعلمهم بوفاته ، فلم يتجرأ أحد على مخالفة الأمر ، ظنا منهم أنه صادر من الساطان . ولو أنهم علموا بوفاته ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مراده ولم يبق له غرض من كتمان موته دخل عليه كمن لا يعلم أمرا مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوقا ليبي با كيما ينحى وفاته ، فلم يكن فيهم إلا من أخذت عليه البيعة ، وركب رجال المهدي إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها^(١) ، فصارت الخلافة إلى المهدي بهذه الحيلة التي تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإن كان فيها حقن لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبي جعفر في بئر ميمون مع السحرة ، لست خلون من ذى الحاجة ، وهو مُحَرَّم بظاهر مكة^(٢) ، ولذلك دفن مكشوف الرأس دون أحد غيره من

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨

الخلقاء ، لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لبس القميص والعمامة والبرانس^(١) وغير ذلك من أنواع المخيط ، وحفر له أهله مائة حفرة بين الحجون وبئر ميمون^(٢) لِيُعمَّوا على الناس ، ثم دفنوه في غيرها . ووجه الربيع منارة^(٣) الخادم إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفا من أمر يحدث في الإسلام ، بجاءها في أحد عشر يوما^(٤) من مكة .

وقد كنت في مجلس هرون الرشيد حين سمعت الجلبة في مقاصير الحرم ، فاستعلمت الخبر ، فنبئت أن أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت ، فأخبرني نافذ أحد الحجاب أن المهدي قد دعاهم إليه ، فنزلت إلى السوق فلقيت أستاذي أبا يوسف ، فأبنت له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة ، فأشار إلىّ بالبقاء معه إلى قبيل الظهر ، وهو الوقت الذي يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدي .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحات غاصة ببجاهير الناس ، فوجدنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى انتهينا إلى باب القبة الخضراء ، فإوزنا الحجاب إلى المجلس الذي تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جميع الأمراء من بني العباس وجيلّة القواد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أعزهم الله وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نُوبخت وغيرهم . وكان المهدي مستويا على عرش مكلل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسه قبة تتدلى منها أستار من الديباج^(٥) ، وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفوا بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسوين بعروق من الذهب ،

(١) الرقاني ٢ : ١٤٨

(٢) الخليس والعقد الفريد ٣ : ٥٣

(٣) المسعودي ٣ : ١٩٤

(٤) أبو الفداء ٣ : ٩

(٥) المسعودي ١ : ٢٣٤

قد نُزلَ فيها الياقوت والزبرجد والفيروز ، ودونهما بنوهاشم على وسائد قد ثنيت لهم^(١) ، ولباسهم نخر أسود ، وكذلك كان لباس المهدي ، وكانت عليه الطرحة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي استصحبها أبو جعفر إلى الحج ، وفي يده القضيب وفي الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبر من خرف بأنواع الزينة والجواهر والديباج ، قد وقف به كاتب المهدي في خلافة أبيه^(٢) أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذه وزيراً^(٣) له في سياسة الملك وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفا على بعض مراقبة^(٤) هذا المنبر بالبيعة التي جاء بها منارة من مكة ، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة^(٥) ، قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا إلا متابعة الناس ، بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القواد والوزراء وأكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدعوا الخليفة بتعزيتة في أبيه ، ثم يهنتوه بجلوسه على تخت الخلافة ، فلما أخذوا في تعزية المهدي خلعوا قلائسهم ونبدوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يُعزَّون بالعمائم^(٦) ، ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، ولفظ البيعة قوله^(٧) ”إنا نبايع سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور ، على

(١) الأغاني ٤ : ٩٣

(٢) الفخرى ٢١٥

(٣) الأغاني ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسعودي ٢ : ١٩٦

(٤) السيوطي .

(٥) يفهم من ابن الأثير ٦ : ٦ أن خالداً ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفي المنصور .

(٦) الأغاني ٩ : ٩٧

(٧) السيوطي .

كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين ، وأن لا خليفة سواه“ ، ثم بإيعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يسمع إلا دعاء له وتنويه باسم بني العباس .

ثم تناول الوزير منشورا كتبته الربيع على لسان أبي جعفر استنهاضا للناس إلى مبايعة المهدي ^(١) ، فتلاه على مسمع من الأمراء وفيه يقول . ” بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف من بني هاشم وشيعته في خراسان وعامة المسلمين . أما بعد فإنني كتبت هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ، ولا يلبسكم شيئا ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بمحمد ولى عهدكم وأذكركم البيعة له ، وأستنهضكم للوفاء بعهدى واجتماع كلمتكم عليه ، فانما قوتكم تكون بالاجتماع إلى رأيه ، وقد أوصيته بكم وبالرفقة عليكم والاحسان إلى المسلمين والسلام“ . فترقرق الدمع في عيني المهدي ^(٢) ولم يتمكن من إطالة الخطبة التي يقولها الخلفاء ، لما غلب عليه من تأثير النفس ، فصرف الأمراء وهم يدعون له بالسلامة .

سياسة المهدي وخلاعه عيسى ابن عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت في المدينة زينة حافلة فصرفت العناية إلى تزيين مشرع الزوايا ^(٣) بالأنوار ، لقربه من موضعي ، ليكون في ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولانى من الجميل ، ودفع لألسنة الوشاة عن السعاية بى إليه فيما استقر بتفوسنا من الميل مع أهل البيت ، وامتلأت الزوراء في تلك الأيام بأرباب الملاهى ، وبما يعرضون من صور الطين التي يصنعونها للعب الصبيان

(١) ابن الأثير ٦ : ١٢

(٢) الاستباق ٨٨

(٣) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

في المواسم والأعياد^(١) ولا أطيل لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم ، لأنها في جميع الأمم عامة ومتماثلة ، وإنما أخبرك بما عرفته للمهدى — أصلحه الله — من حسن السيرة التي يروم بها أن يستبدل برعب الناس من أبيه ورغبتهم عنه محبتهم له وميلهم إليه فأقول :

إنه بعد أن أظهر من الأبهة بافتتاح خلافته ما يعظم موضعه من السلطان ، صنع لبنى هاشم وسائر قریش طعاما جاوز فيه الحد بسعة النفقة^(٢) ، حتى إنه أطعم الناس الطير وخبز السميد . وكان يحمل معه بدر الدراهم والدنانير في ركوبه ، فلا يتعرض له أحد إلا أعطاه^(٣) ، فكان أرباب الدولة يخافون نفاد ما في بيت المال^(٤) إذا استمر هذا العطاء^(٥) ، ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المؤن والكسور وهو الأمر الذي كان يفاوضني فيه أيام خلافة أبيه ، فإن الناس في صدر الاسلام كانوا يؤدون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبة على وزن كسرى وقيصر ، لا يفتقون في الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدها التجار والصيارفة صاروا يؤدون الدينار الطبري ، الذي هو أربعة دنانق ، ويُسكون الوافي ، الذي هو مثقال ، فلما أمر زياد صار يطالب الوافي ، ثم أمر الجحاج فطلبه كذلك ، فلما صار الأمر إلى أبي جعفر أزال الخراج عن الخنطة والحبوب ، وصيره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يسقط الكسور ، فلما ولي المهدي قال معاذ الله أن ألزم الناس ظلما في ذلك ، ففعل له إن أسقط

(١) ابن خلكان نقلا عن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) الأغاني ٣ : ٩٤

(٣) المسعودي ٣ : ٤٠١

(٤) المسعودي ٢ : ١٩٦

(٥) الحصري والخميس ٢ : ٣٣٠

أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله في السنة اثنا عشر ألف ألف درهم^(١) ، فقال على أن أقرر حقا وأزيل ظلما ، لأن العدل موفر للجباية ، كفيل بعمران الأمصار .

ولقد أعظمت للمهدي هذه المسألة التي أحسبها له من أجل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فإن لنا في سقوط الدول التي قامت في هذا المكان نفسه من النبط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا ، فانما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيام بأعمال الزراعة والمقام في بلدان الخصب ، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا في ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا إذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غفلت الدولة عن مصالحهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتها إليه مطالب الترف ، لم يبق في نفوسهم شيء من حب البلاد ، وهم لا يتبعون منها إلا تحصيل القوات الذي يأتهم على إجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب المهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مرد العديريين ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، نخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان وفود البلدان يردون على المهدي من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب لتهنئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشرف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير لأنهم رأوا منه عدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان حسنا إليهم^(٢) ، محبا لهم وساعيا فيما تصالح به أمورهم ، فاستدلم من هذا الوجه مجلسا لرد المظالم^(٣) ، ولم يكن قبله في الدولة العباسية من ينظر في تعدى الولاة على

(١) الماردي ١٣٧

(٢) الخميس ٣ : ٣٣١

(٣) السيوطي وابن الأثير .

الرعية وجورهم فيما يجبورونه من الأموال^(١) ، ولقد وجدت له في استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما نفسه ، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم ، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بآمن من تغلبهم عليه ، ثم جعل الخلافة من بعده في ولده ممنوعة على غيرهم من بنى العباس . فأما أمر العلويين فما كان يشتد عليه وقعه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها إلى زمن يؤمن به شعهم ، ويجمعون إليهم أطرافهم ، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم . وأما خلع عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فانه كان يُتعب منه البال ، وقد دخل عليه يحيى بن خالد — أعزّه الله — فأصابه في قلب شديد ، يقعد مرة ويضطجع أخرى . قال لي يحيى فعلمت من ذلك أنه يريد أمرا عظيما ، فقال اجلس قريبا مني ، لأنني أريدك للمشورة^(٢) إن النبي صلى الله عليه وسلم مات في غير وصية ، وترك الأمر شورى بين المسلمين ، فما ليثوا أن أجمعوا على أبي بكر ، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار ، لقولهم منا أمير ومنكم أمير ، ثم مات أبو بكر وقد صير الأمر إلى عمر بن الخطاب ، فلم ينازعه فيه أحد ، ثم عيدها عمر إلى ستة نفر الذين مات النبي صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فأجمع رأى الأئمة على عليّ وعثمان ، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المنوّه عنهم يميل مع عثمان ، وفي وصية عمر إلى المسلمين أن يتبعوا رأيه ، فبايعوا من أراده ، فاستقرّ عثمان في خلافته إلى أن ثارت عليه الفتنة لأقصائه ولد أبي بكر وإقباله على أقاربه من الأمويين بالصلات الطائفة ، وعهد المسلمين قريب

(١) في المأوردى ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر في سخابة الدواوين إذا وقع بها تزوير وفي تظلم المستزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفي مشاركة الوقوف ورد المصوب إلى صحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره وإمضاء ما يعجرون عن إمضائه في البيانات والتقارير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل المتحاصمين على الصلح .

بضبط^(١) أبى بكر وعمر، فقتلوه وكانت تلك أول فتنة في الاسلام،^(٢) ثم أجمع العرب على على عليه السلام، وكان الفرس يميلون معه، فاستوثق له الأمر في العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخراسان، إلا الشام لاستواء معاوية فيها، فلما قتله الخوارج لم ير الحسن ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضنا ببذل الدماء فنزل له عن الأمر، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخاف اليوم إن صارت إلى ابن عمي أن تذهب من بيتي بلا رجوع، ثم يكون من الفتن ما لا يؤمن غائلته على المسلمين، فأشر على يا أبا الفضل في هذا الأمر، الذي لا يتعاضمه أمر، فانك بحمد الله مبارك الرأي لطيف النظر .

فقال له يحيى يا أمير المؤمنين إنى أرى الزلة في هذا الأمر لا تستدرك، والخطأ فيه غير مأمون، فإن تكتب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكداً في البيعة . فقال له المهدي كنت أفعل هذا لولا أنى أخاف من عيسى نكث العهود، ولكنى أرى أن أخلعه عن الولاية وأخذ البيعة لموسى على المسلمين، فقال له يحيى على أمير المؤمنين أن يعلم شيعته ومسان أهله بذلك، ولم يتعمق في هذا البحث إلى أبعد مما أشار به، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة، وأنه وإن كان يأخذ في تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق، له في حبه للعلويين ما يرى به عدولهم عن العراق الذي ترهق النفس دون التمكن من أهله، وإنما يلتمس لهم من المغرب أمما ترسخ فيهم دولتهم، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب .

ولما جمع المهدي أكابر الدولة وفاوضهم في هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم^(٣) ولكن على أن يجيبه ابن عمه إلى الانخلاع وانتهى بعض من يستخدم

(١) الفخرى ١١٦ .

(٢) السـيوطى .

(٣) ابن الاثير ٦ : ١٦

الفقه في رضا الملوكة إلى أن يقول إن أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلا لتبقى الخلافة في بيته بعد المهديّ ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم ، فكتب المهديّ إلى الرّحبة يستقدم ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر ، أو وصله أنه يعتل بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليه إلا أن يُكره بالقتال . فعمد إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأموراً ألا يأخذه بالقتال ، بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصبوت في الحروب يقال له أبو هريرة محمد بن فروج ، فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصفّ العساكر صفوفا متعارضة ، ويضرب وراءهم مصافّ الخيام ليؤهم باستنكار العدّة والعزم على مثابرة الحصار ، ثم يُنزل بالجنود الزعقة العظيمة التي إذا سمعها عيسى وهو في نومه خامسه الجزع وأفزعه الهول ، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سحراً ورأى سواد الجيش ، فامتلاً قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلا بالاستسلام ، فأخذه أبو هريرة إلى المهديّ ، فلم يفتّر عن استعمال الحيلة في تعويضه عن الولاية بالمال إلى أن أجابه إلى الانخلاع ، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم .

ولما تصرف المهديّ في أمر البيعة بما أراد ، ثار في قلوب المخالفين (١) له ما كان يُخمد فيه حلمه وسعته عطائه ، فحصل في نفسه منهم خوف شديد ، ولكنه لم يرمقواومتهم بالقتل ، وفيهم كثير من أهل السيف ، لئلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يحب ، وإنما رجع إلى من بلوذه من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم ، وأخذ في استصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من أهلها باكره العزّاب على الزواج ، والاحسان إلى المتعففين من الشبان ، مما جرى له قيل وقال بين الناس ، كمثل أن نسبوا ذلك منه

(١) ابن الأثير والفخرى والسيوطي .

إلى غيرة به على النساء ^(١) ، وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازنتها بمكة مهد الاسلام حتى يعظم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

ظهور المهدي بمناصرة العلم

لاني وإن لم أكن على غرض العباسيين في السياسة ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لأنني إلى قوم سواهم لأميل) لأوفى المهدي حقّه من الثناء على ما له من جميل العناية ^(٢) في تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أيّاما ^(٣) معلومة من السنة ، يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فنّ أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويصدروا ما عندهم من النقائس ، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

ولقد رأيتُه أصلحه الله أعطى الخلفاء نوالا للشعراء ، وهو يأذن لهم بالدخول عليه مرة في السنة ^(٤) فيجتمعون ببابه ويتفاحرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول ما ولي الخلافة ، وقد قصده ابن المولى من البادية ^(٥) وسلم الخاسر من البصرة ، وابن الخياط من مكة ، وأشجع السلمي ^(٦) من الحجاز فقالوا فيه الشعر الذي لم يمدح بمثله أحد من الملوك . ومن جملة ما حفظت لأبي العتاهية في تهنئته إياه بالخلافة قوله :

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

(١) في الأغاني ٣ : ٤١ أن المهدي من أشد الناس غيرة .

(٢) الاسحاق ٨٨

(٣) المستطرف ١ : ٣٧

(٤) الأغاني ٩ : ٤٤

(٥) الأغاني ٣ : ٨٨

(٦) ابن خلكان ١ : ١٠١

ولو رامها احد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
وإن الخليفة من بغض « لا » إليه ليغض من قالها
فأصاب لذلك حظا وافرا من المال . وكان بشار المقدم ذكره في الرسالة
السالفة واقفا في صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله ويحكم انظروا هل
طار الخليفة عن سريره ؟

وكان المهدي يقدم عليهم سائما البصريّ ومروان بن أبي حفصة ويعطيهم
عطية واحدة ، فأما مروان فإنه يلتمس الفصاحة في كلامه تشبها بأكابر الشعراء (١) ،
وأما سلم فإنه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون أنسا في عيون السلطان ، فوقع فيما
يتصرفان به من مذاهب الشعر بون يشبه أن يكون ناشئا عما فيهما من تباين المشرب
بين الإفراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فان مروان بخيل يضمن بماله (٢) ،
وسلم سمح ببذل المال ، يأتي إلى دار المهدي على بردون قيمته عشرة آلاف درهم ،
ولباسه الخز والوشى (٣) ، ويأتي مروان بأثواب رثة على حمار يكثره بدرهم لا يخرج
من يده إلا بعصب الريق ، مع كثرة ما أصابه من المال (٤) في صلوات تجاوزت
خمسة آلاف دينار في عطية واحدة كما علمت .

ولئن تكن الفصاحة في كلام مروان أجلا منها في شعر سلم إني لأعيب عليه
المداهنة التي يلتمس بها مرضاة الخليفة بقده في أهل البيت على غير حكمة وعقل ،
كأنه يجزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله في ثبوت الخلافة للعباسيين وبعد
العلويين عن وراثة النبي صلى الله عليه وسلم :

يا ابن الذي وريث النبي محمدا دون الأقارب من ذوى الأرحام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام (٥)

(١) الأغاني ٩ : ٤١

(٢) الأغاني ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥

(٣) الأغاني ٩ : ٣٩

(٤) ابن حلكان ٣ : ١٣١

(٥) الأغاني ١٢ : ١٧ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودي .

وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هي مصلحة دينية لا وراثة دنيوية فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأن الحسن والحسين هما ذريته فإذا وجدت الذرية لم يبق مدخل للاعتماد في الوراثة ، اللهم إلا إذا رجعنا إلى شريعة الجاهلية التي نسخت بحجىء الاسلام ، ولو أنا ضربنا عن ذلك كله صفحا ما وجدنا أصلح للاسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحد من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا من ذكرها الان في شيء ، وإنما أعود إلى الحديث الذي جرى به القلم عن سيرة المهدي ، فاني شهدت بداره أيام الشعراء وأيام القصاص وأيام الندماء وأيام المغنين وأيام الرماة ^(١) وأيام جري الخيل ، وقد سبقه إليها الخلفاء ، إلا يوم السباق فاني لا أعلم عن أحد من بني العباس أنه أقام الحلبة وأجرى بين يديه الخيل في محفل من كبراء الدولة قبله . وكان له فرس سباق الأضاميم ، يقال له الغضبان ^(٢) ، فكان أول خيل الحلبة في ذلك اليوم ، فلما وصفه الشعراء أصاب جائزتهم العمانى وقد ارتجز :

قد غضب الغضبان إذ جدّ الغضب وجاء يحمي حسبا فوق الحسب
من إرث عباس بن عبد المطلب وجاءت الخيل به تشكو التعب
له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التي تكفى المشاهدة لها مرة واحدة ، وأما الذي تتراح إليه الناس ، على التماس الكثير منه في دور الخلفاء ، فهو يوم الغناء وكان المهدي إذا اتخذ له مجلسا بداره ضرب للغنين ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يرونه ^(٣) إلا فليح بن أبي العوراء ، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان

(١) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٢

(٣) الأغاني ٤ : ٩٩ وذكر المسعودي ١ : ١١٨ أن الأوامل من بني العباس ما كانوا يظهرن

والاصوات^(١) وإن لم يكن أحسنهم صوتا ، فانما يحسن الغناء عند من يُشبع
الألحان ، ويملاء الأنفاس ، ويعديل الأوزان ويفتح الألفاظ ، ويعرف الصواب ،
ويقيم الإعراب ، ويستوفي النغم الطوال ، ويحسن مقاطيع النغم القصار ،
ويصيب أجناس الإيقاع^(٢) ، فهو يحسن ذلك كله لمحله الخليل من هذه الصناعة
وليس له فيها شريك إلا مغن آخر يقال له عطرده^(٣) قد أدرك دولة الأمويين
في آخر مدتهم وأما من سواهما من المغنين فليس لهم في الصناعة ما للمتقدمين من
الفرس ، وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأن الزمن الذي مضى عليهم في صدر الدولة
كان مصرجا بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر في مطالب اللهو والترف
إلى التماس الأسباب التي يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة . ثم إن نقل
الغناء إلى العربية^(٤) ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه ، لأنهم
تقلوه من الفارسية في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وهو الزمن الذي أخذ فيه
العرب بسكنى الأمصار وانقلب أمر الأمة من سذاجة الخلافة إلى ترف الملك ،
فلقد نقلت إلينا الأخبار السالفة أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهة
الملك ، ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه إلى التماس النعيم
من الدنيا^(٥) وإنما كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبسون
الثياب المرقعة^(٦) ، ويتخذون في أرجلهم نعلا من ليف^(٧) ويمشون في الأسواق
كبعض الرعية رجالا^(٨) وكان لباس أبى بكر الشملة والعباءة ، ولباس عمر جبة

(١) الأعاني ٤ : ٨٨

(٢) الأعاني ١ : ١٢٦

(٣) الأعاني ٤ : ٩٩

(٤) الأعاني ٣ : ٨٦ والمسعودى ٣ : ٣٥٧

(٥) وكانوا يقولون في خطبهم للمسلمين أطيعونا ما أطيعنا الله ويطعكم فإذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم .

(٦) الطبقات ١ : ١٩ والمقدمة ١٨٥

(٧) الفخرى ٣٣

(٨) الفخرى ٨٩

من الصوف مرقعة بالأديم ، ومركبه الابل ^(١) ، وكان على عليه السلام يتجافى عن جمع المال ، ويقول يا صفراء ويا بيضاء غسرى غسرى ^(٢) وكان مطعمهم على مثل هذا الوجه من الكفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق فى الأطعمة ، حتى إن المناخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الخنطة بنخالها ، ولا يعرفون من الألوان إلا اللحم يطبخونه بالملح والماء ^(٣) ، وكان أبو موسى الأشعري يتجافى عن أكل الطير والدجاج ^(٤) ، وكذلك كان العرب فى سداجة دولتهم على بُعد من ترف المتمصرين فى جميع معاشهم وأحوالهم ، حتى إنه لم يكن عندهم من الغداء الا حذاء الركبان أو ضرب من النصب أرق منه ، فلما ساد فيهم العمران فى عهد الأمويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم فى محاسن هذه الصناعة ، ثم فتقت الفتن فى دولة العباسيين ، وقد طلبوا الخلافة من دون الملك ، فلم يتهبأ لهم مجلس بدورهم إلى هذا الزمان .

ولوع المهدي بمزاولة الصيد

تجد فيما أنا ذا كركك عن المهدي أنه يجمع إلى خلافة الأمة أبهة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره ، وربما التمس الطيبات فى هذه الأبهة والتأنق فى فنون المعيشة إلى الغاية التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله ، فاذا جلس إلى الندماء أحب أن يتمتع نفسه بلذة أحاديثهم ^(٥) وإشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره ، وإذا خرج إلى الصيد ركب فى المواكب العظيمة المزينة ، وربما كان ذلك من أحب الأشياء إليه .

(١) المسعودى ١ : ٣٢٠

(٢) الطرطوشى ١٢٤

(٣) الأبشهى ١ : ١١٤

(٤) المقدمة ١٧٨ وفى البحارى وشرحه القسطلانى ما يخالف هذا .

(٥) السيوطى .

وأنا لا أعدُّ الصيد من الملهى التى تعاب على الملوكة إلا متى أفرطوا فيه وكانوا أقرب به إلى الأشر منهم إلى الزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجلّوا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم فى طلب الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون فى المهدي (أصلحه الله) وإنما هو كلف به (١) من غير إفراط فيه . لأنى رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه فى اتخاذ العدة له ، إلى أن يصنعوا نصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم فى كلام الشعراء :

ومن جوده يرمى العدة بأسهم من الذهب الإبريز صيغ نصالها
لينفقها المجروح عند انقطاعه ويشترى الأكفان منها قتيلا (٢)

وهذه مباهاة لا ينظر إليها الخليفة من مزاولة القنص ، وإنما عنى باتخاذ الصقور والبيزان وتربية الكلاب التى تسبق الظليم فى عدوها ، يلبسها أطواقا من ذهب (٣) ، ويوكل بكل كلب عبدا يخدمه كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة (٤) فى تربيتها للتحرّض على الصيد ، إذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها إلا فيما كان لغير الصيد والحراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يسبق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كنده ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحباله فانقض بازو حمل عصفورا وعلق وإياه فى الحباله ، فأخذه الملك وهو يأكل العصفور ، ورماه فى كسر البيت فراه قد دجن ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاما أكله ، وإذا رأى طيرا طار إليه فاتخذته فى عدة الصيد وطلب به الطير ، وصار العرب يؤدّبونه (٥) لذلك ، ثم يؤدّبون العقبان أيضا ، ويقولون إنها تعمل عملا لا يدركه أكثر الصقور (٦) .

(١) ذكر حب المهدي للصيد فى الأغاني ٣ : ١٥٠ وابن الأثير والالتلیدی وابن عون .

(٢) الالتلیدی .

(٣) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الأطواق من الذهب .

(٤) الأغاني ٦ : ٧١

(٥) المسعودى ١ : ٩١ والأغاني ٧ : ٤٥

(٦) الدميرى ٣ : ١٥٢

وقد ركب المهدي يوما إلى الصيد وكنّت في خدمته مع الأمير علي بن سليمان ابن عم أبيه وأبي دلالة الشاعر ، وكان نروجه من القصر في آخر الليل ، وفي طرف الأفق شفق من الفجر ، وكان يحوطه فرسان من الحرس متنكبون قسيهم ، متقلدون سيوفهم ، يتبعهم قطعة من الجنود ، وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤونة على الخزائن^(١) الخليفة ، وبينهم عدد من الوصفاء في أخف كسوة وأجمل لباس ، وكان مسيره محاذيا للنهر ارتيادا للخصرة التي تجنب إليها الطيور وتسرح فيها المها والغزلان ، حتى إذا انجلى النهار وقد رمى شيئا من الطير تقدم إلى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقة في أرض مطمئنة ممرعة ، ثم يضيقوها رويدا رويدا إلى أن يؤخذ الصيد بين جموعهم من كل جهة^(٢) ، فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع في حلقهم غزال قد نفروا ، وكان الخليفة قد نشط للصيد وخف له في ذلك اليوم ، فقال هو وابن عمه إليه ورشقه بالسهم فأصابه سهم في صدره ، وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه ، فلما جلسا للاستراحة حمل إليهما هذا الغزال ، فوجد في صدره سهم الخليفة ، فارتجل أبو دلالة وهو يريد المزاح^(٣) :

قد رمى المهدي ظبيا شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل أم رمى يأكل زاده

وقد اتفق للمهدي في ذلك اليوم نادرة لم أر أطرف منها فيما يتفق للولك من النوادر ، وهي^(٤) أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره متنبذ من أصحابه ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٠

(٢) الفخرى ٦٥

(٣) الأغاني ٦ : ٤٧ والشرشبي ٢ : ٢٦١ والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥

(٤) المسعودي ٣ : ١٩ وابن الأثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف ٣ : ٣٠٦

والشرشبي ٣ : ٢٥٧ والالتليدي ٨٦

فَرَكَضَ فَرَسَهُ مِلءَ فَرْوَجِهِ حَتَّى لَا يَلْبُدُهُ الْمَطَرُ ، فَانْتَهَى إِلَى بَيْتِ أَعْرَابِي مُلَاجٍ (١) فَبَادَرَ إِلَى نَزْعِ مَا ابْتَلَّ مِنْ ثِيَابِهِ وَجَلَسَ بِجَانِبِ نَارٍ مُوقَدَةٍ ، ثُمَّ قَالَ يَا أَخَا الْعَرَبِ هَلْ مِنْ قَرَى ؟ قَالَ عِنْدِي فَضْلَةٌ فِي رَكْوَةٍ فَقَالَ لَهُ هَاتِ اسْقِنِي ، فَشَرِبَ قَعْبًا وَسَقَاهُ ، فَلَمَّا شَرِبَ قَالَ لَهُ يَا أَخَا الْعَرَبِ أَتَدْرِي مَنْ أَنَا ؟ قَالَ لَا وَاللَّهِ قَالَ أَنَا مِنْ خَدَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَاصَةِ ، قَالَ لَهُ بَارَكَ اللَّهُ فِي مَوْضِعِكَ ، ثُمَّ شَرِبَ قَدْحًا وَسَقَاهُ فَلَمَّا شَرِبَ قَالَ لَهُ يَا أَعْرَابِي أَتَدْرِي مَنْ أَنَا ؟ قَالَ زَعَمْتَ أَنَّكَ مِنْ خَدَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ لَا بَلْ أَنَا مِنْ قَوَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ رَحِبْتَ بِلَادَكَ وَطَابَ مَرَادُكَ ، ثُمَّ شَرِبَ قَدْحًا وَسَقَاهُ فَلَمَّا شَرِبَ قَالَ لَهُ يَا أَعْرَابِي أَتَدْرِي مَنْ أَنَا ؟ قَالَ نَعَمْ ذَكَرْتَ أَنَّكَ مِنْ قَوَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ فَلَسْتُ كَذَلِكَ قَالَ فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَأَخَذَ الْأَعْرَابِي الرِّكْوَةَ وَأَوَكَّأَهَا ، فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ مَالِكُ يَاسِيخٍ ؟ فَقَالَ مَكَانَكَ . وَاللَّهِ مَا آمَنَ أَنْ أَسْقِيكَ الْقَدَحَ الرَّابِعَ فَتَزْعُمَ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . فَضَحِكَ الْمَهْدِيُّ حَتَّى اسْتَلْقَى وَأَقْبَلَ الْجُنْدَ عَلَيْهِ . وَنَزَلَ الْأَشْرَافُ إِلَيْهِ . فَطَارَ قَلْبُ الْأَعْرَابِي مِنَ الْخَوْفِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ وَلَا خَوْفَ . ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِمَالٍ وَكُسُوفَةٍ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ رَجَعَ إِلَى الْحَضْرَةِ بَعْدَ انْكَشَافِ نَالِهِ مِنَ الْعَدُوِّ السَّرِيعِ وَنَزُولِ الْمَطَرِ وَهبوبِ الرِّيحِ الْبَارِدَةِ .

فِي تِمَّةِ أَخْبَارِ الْمَهْدِيِّ وَرِسَالَتِي إِلَى نُحْرَاسَانَ

نَعُودُ إِلَى ذِكْرِ الْمَهْدِيِّ فِي دَوْلَتِهِ وَسِيَاسَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا حَقَّقَ الْبَغْيَةَ بِمَا أَرَادَهُ مِنَ الْبَيْعَةِ لِأَوْلَادِهِ بَقِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْعُلُوِّيَّةِ ، وَقَدْ بَقِيَ مِنْهُمْ فِي السَّجُونَ جَمَاعَةٌ لَمْ يُطْلَقْ مِنْهَا فَيَمُنْ أَطْلَقَهُ عِنْدَ مَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ (٢) ، بَلْ أَبْقَاهُمْ مَعَ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ تَبْعَاتٌ مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ ، وَهَذَا مِنْ شَرِّ مَا يَلَاقِيهِ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا جَدَّهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِهَذَا الظُّلْمِ حَتَّى تَعَمَّدَ مَضْرَتَهُمْ

(١) الْأَغَانِي ٣ : ١٥٠

(٢) فِي ابْنِ الْأَثِيرِ ٦ : ١٥ وَالْأَغَانِي ٣ : ٣٩ إِنَّهُ عِنْدَ مَا وَلِيَ الْخِلَافَةَ أَطْلَقَ الْمَسْجُورِينَ .

باستمالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يسرون ويعلمون ، وفيهم رجل من بنى سُلَيم يقال له يعقوب بن داود ، طوقه أمر الوزارة ومكّنه من بيوت المال ليطلعه على أمورهم ، ويعلمه بمكان الحسين بن إبراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذي حفره إلى محبسه ذور النخوة من رجال الشيعة ، ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المال بغرضه غرضا آخر ، فبقي ميّله مع أهل البيت ، والمهدى وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك ^(١) .

ولما استوثق للمهدى أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركب إلى الحج في كثير من عطاء دولته ، واتخذ من الأبهة ما لم يسبق له مثيل في الاسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين ، واستخلف في الحضرة موسى ابنه ويزيد بن منصور الحميري خاله ، وحمل معه خمسين ألف درهم ومائة وخمسين ألف ثوب ^(٢) يفرقها في أهل الحرمين ، وكان عازما في تلك الحجّة أن ينكّب الإمام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد علي عليه السلام ، وقد علم أنه في جوار مكة ، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الأمان ^(٣) الذي كان مقبوضا عنه وعن آل بيته في خلافة أبي جعفر .

ولما قدّم إلى مكة نزع كسوة الكعبة وطلّى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كسوة جديدة من الحرير ، لأنه كان يخاف عليها أن تتهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذي كساها إياه هشام بن عبد الملك ، ثم أمر بإنشاء أروقة المسجد الحرام ، وحمل لها الأعمدة الرخام من البحر ^(٣) ، وأتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الاحسان ، واتخذ لهم مادبّ أفرغ الوسع في زخرفتها

(١) ابن الأثير ٦ : ١٤

(٢) الخميس ٢ : ٣٣٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٨

وتتميقها للدلالة على عِظم ملكه ، حتى إنه سقاها المبرد بالثلج المحمول من الشام^(١) ، (وكان الذي حمله إلى مكة محمد بن سليمان الهاشمي الذي تقدم في الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الأمور التي توسع أهل البادية تعجبها من اقتدار الملوك على الغريب ، ثم إنه رد عليهم الوظائف التي قبضت عنهم في خلافة أبيه ، وفرق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلثمائة ألف دينار حملت إليه من مصر ، ومائتي ألف دينار من اليمن ، وغير ذلك مما جاءه من الجهات ، فبلغ المنفق في هذا الحج على كسوة الكعبة وصلة الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع في كل منهل منها وتحديد الأميال والبرك وحفر الركايا وغير ذلك نحو من ستة آلاف ألف دينار ، واصطفى لنفسه من الأنصار خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق ، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالي على العرب ليستبدل بجفائهم له محبتهم إياه ، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رخص وخصب بعد جهْد أصاب الناس في العام لما دهمهم الوباء^(٢) الجارف ، فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميه^(٣) .

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تجواله في البلاد اختلالا لم يأمن معه على الدولة من الفساد صرف المهمة في النظر إلى تدبير الولايات ورتب أناسا يؤدون رسائمه إلى العمال ويراقبونهم في إنفاذها وسمائهم الأمناء^(٤) ، ووجههم في جميع الأمصار فكان لا يُنفذ كتابا إلى عامل في أمر خطير حتى يكتب يعقوب الوزير إلى بعض الأمناء بانفاد ذلك . ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزمّة^(٥) وأقام على

(١) الخميس ٣ : ٣٠

(٢) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠

(٣) الأغاني ٣ : ٩٤

(٤) ابن الأثير ١٦ : ٢٠ ويقول في موضع آخر إن المنصور كان يحب أن يوحد في دولته

مثل ذلك ٦ : ١٠

(٥) ابن الأثير ٦ : ٢١

الشُّرطة من تبين فيه حسن النظر والتدبير ، فاستوثق له الملك من الوجه الذى يرومه فى استمالة الناس إليه .

إلا أنه تواترت عليه فى منتصف هذه السنة ، والدهر له صاف ، رسائل من أبى عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال دولته وتغاب رجل أعور من مرو قد ادعى الربوبية وأغوى الخلق ، وقامت له فى الصفد وبُخارى أنصار فد عاثوا فى البلاد ، واتخذوا البياض شعارهم لمخالفة السواد ، فتخوف المهدي أمرهم وأنخرج إليهم مُعاذ بن مسلم موعزا إليه بأن يلتزم مع الحرشي الذى هو أمير الجيش فى خراسان ، حتى إذا كان على انتظار البشائر منه وصله من أبى عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين ، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصالح بين الأميرين ، فوقع الخلاف بين يعقوب وأبى عبد الله فيمن يطوفانه أمر هذه الرسالة ، فرام يعقوب أن يقلدنيها ، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها إلى أمير من آل قَطَبَة وكان الربيع حاجب أبى جعفر راغبا فى توجيهي بها أيضا حبالى ، وكانت وقعت نُفرة ^(١) بينه وبين أبى عبد الله فاشتغل فى معاكسته وبلوغ المكروه منه .

ثم إن المهدي وقع رأيه على أن يبعثنى إلى مرو لأنظر فى أمر هذا المقنع الأعور ، وجعل لى التصرف فيما أرى حله وعقده من خلاف القواد ، إذ يكون خيرا للجيش المرجو ما لم تتقلب بأمرائه الأغراض ، ولا سيما أن له فى خراسان عدوين يتفقان جميعا عليه . جماعة خارجي يقال له يوسف البرم ^(٢) وشيعة هذا المقنع الذين يدعون ألوهيته وقيمون دعوته على بذل الدماء . فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلا فى أمر من السياسة ، ولذلك كانوا أقل على الدولة خطرا من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أن الله تعالى خلق آدم فتحول

(١) الفخرى ٢١٦ وابن الأثير ٦ : ١٩

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

في صورته ثم في صورة نوح ثم في صورة غيره من الأنبياء حتى تحول في صورة هذا المقنع بعد أبي مسلم رحمه الله . وقد نقلت الأخبار السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أراهم في السماء قرا آنحرياه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال .

وإما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحول قبله في صورة أبي مسلم ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعية الامامية رحمه الله وإن كان بعيدا عن إظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامه الدين لنيل مناه وجهها من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام إليه ، وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقدما بالسحر فغلب السحرة ، وعصر عيسى عليه السلام مقدما بالطب فغلب الأطباء ، وعصر النبي صلى الله عليه وسلم مقدما بالبلاغة ففضل الباغاء ، فرأى أن عصره مقدم بالكيمايا فأراد أن يهز الناس بما يستنبطه من المركبات .

وقد فرغت من تفهيد هذه الرسالة في ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة وأنا على أهبة السفر إلى خراسان وسأصدر لك منها كتابا أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم وغيرهم والله نعتضد فيما نعتهد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدي والهادي

ولما^(١) وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلام الفضل^(٢) أعزّه الله وأطفئ ما بنفسي من الشوق إلى الأنس بقربهم المحبوب ، إذ كانت المكتبة بيننا طول هذه الأيام لم تزدني إلا شغفا بحاسنهم واستطلاعاً إلى محيا جمالهم . ثم إنني قصدت باب فقيه الاسلام وقد اتخذ المهدي (رحمه الله) قاضي قضاة المسلمين ، وصارت إليه جوائز الهادي والرشيد من بعده حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف^(٣) من ناحية الكرخ الدار التي لم يبن مثلها إلا ملك أو أمير ، فألفيته في مجلس حافل بالأدباء والأمرء وعاليه^(٤) المبطنة والطيسان وقائنسوة طويلة^(٥) قد حوَّطها بعمامة سوداء دعتة الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم ، وهذا هو الزّي الذي يروم أن يكون مخصوصاً بالفقهاء^(٦) لتمييزهم عن سائر الناس ، فكان لملقانا موقف يستبكي الحمام لفرط ما بنا من الأشواق ، وصرفت اليوم بقيته بحضرته أجازبه أطراف الحديث ، وقد نبأني بأحوال القوم في المدة التي كنت منفصلاً فيها عن دار السلام ، لأن القضاة قد

(١) الرسالة المكتوبة في خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه

(٢) كان في ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور في ابن الاثير .

(٣) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠

(٤) المسعودي ٣ : ٣٣٧

(٥) وجدت في العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة

(٦) ابن خلكان ٣ : ٥٠٠ والأغانى ٥ : ١٠٩

يرد عليهم من طرائف الأخبار^(١) ما لا يرد على غيرهم ، ولا سيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليجلسه على سريرته بجانبه^(٢) ، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلد القضاء^(٣) ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به إليه .

ولقد ذكرت لك في رسالتى من خراسان ما اتصل بى من أخبار المهدي والهادى رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارهما الخاصة فقد حدثنى بها لسان الشريعة على إسهاب لا موضع له فى هذا الكتاب ، على أن المهدي ما برح مستمرا إلى انقضاء خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ، ولقد جرت الشريعة فى أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لا تقطاع النظر فيها إلى أبى يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتول القضاء الا أهل العلم ومن لا يميل به طمع النفس إلى الخروج عن جادة العدل . وقد أقر رجاله فى وظائفهم إلا وزيره يعقوب وقد وضح له ميله مع أهل البيت^(٤) ورفع إليه المفسدون بيّتين من الشعر أغروا بشارا على قولها ، وأطاروا ذكرهما كل مطار :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

فنكبه لذلك وألقى فى بئر عمى فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات فى خلافة الرشيد قبيل عودتى من خراسان .

(١) الاتليدى ٧٩

(٢) الاتليدى ١٤١

(٣) الماوردى والاسحاق ٩٠

(٤) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسعودى ٢ : ١٩٦ والفخرى ٢٢١

وكانت مأثرة المهدي في آخر أيامه وضعه البريد ^(١) لبلا وبغلا في كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى العراق ، وهو أول من أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لما يروم من تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من العرب في مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من أهل الشام في استظهارهم على عماله بما يجاورهم من العرب الذين ما كانوا بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدي إمداد عماله بالرجال والعرب بالمال حيناً بعد حين ، حتى دعت له الحال إلى الشيوخ برفقته إليهم فزار دمشق ^(٢) وبيت المقدس ^(٢) ، وأخذ في إزالة الخلاف الذي كان بينهم في بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجسام .

أما الهادي (رحمه الله) فإنه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع الزنادقة فضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكّل بهم رجلاً يقال له عبد الجبار ^(٤) وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عينا تطريف فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف إلا لزّ شير في عقيدتهم وإن بدا للناس ظاهر لهم من الظرافة وحسن السيرة ^(٥) ، كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد أثمهم بالزندقة ^(٦) :

لست بزنديق ولكنما أردت أن تؤسم بالظّرف

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ وأبو الفداء ٢ : ١٠ والسيوطي والكنز ١٠٦

(٢) قضاة الشام .

(٣) الأغاني ٦ : ٦٧

(٤) الأغاني ٣ : ٧٢

(٥) ابن الأثير ٦ : ٣٨

(٦) الأغاني ١٧ : ٧٢

فإنما يتعدّون مذهبهم من التكذيب بالأنبياء وتعليم الناس بغض الخلفاء إلى أن
يمسّوا الشرع الشريف بما لا يحلّله كتاب الله ، فقل للفترين على الله إنه يحضرهم
في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون . واعلم أنه لم يل الخلافة قبل الهادي أحد
في سنّته ، ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدّة ولايته
سنة وشهرين إلا أياما ، وكان ذا جبروت ^(١) وإذا ركب مشيت الرجال بين يديه
بالسيوف المشهورة والأعمدة والقسيّ الموترة ، ولذلك كثر السلاح في عصره ،
وأحرز منه الشيء الذي كان يحب التباهي به ، حتى قيل إنه أعطى شاعرا مدح
سيفا عنده كان لعمر بن معدى كرب يقال له الصمصامة عشرين ألف درهم على
هذه الأبيات :

حاز صمصامة الزبيديّ من بـ بين جميع الأنام موسى الأمينُ
سيف عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أغمضت عليه الجفون
أخضر اللون بين خديه برد من دُعا ف تيس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارا ثم شابت به الذعاف القيون
فاذا ما سلّته بهر الشمـ س ضياء فلم تكّد تستبين
ما يبالي من انتضاه لحرب أشمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصار كالقَبَس المشـ عل ما تستقر فيه العيون
وكأن الفِرند والجوهر الجـ رى على صفحتيه ماء معين
نعم مخراق ذا الخليفة في الهيج ساء يقضى به ونعم المعين ^(٢)

(١) الخميس والمسعودي والسيوطي .

(٢) الحصري .

لما صارت المراتب في أيامه إلى الناشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة
 بمن كنت أعرفه صديقا قبل نزوحى إلى هذه الرحلة التي امتدت بى طويلا .
 إلى وزارته الربيع بن يونس حاجب أبى جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله
 ، طريف^(١) ، وعلى حجابته الفضل بن الربيع ، وعلى جنده آل أبى العلاء ،
 حتى بأخباره معهم بعض من كان مقربا إليه من الندماء ومنهم رجل من
 عاز يقال له عيسى بن داب ، وقد بلغ من الخطوة لديه والجلوس
 على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيره في ذلك^(٢) ، فكان يصف لى أخبار
 ما يرفعه إلى مساماة العظماء من أهل الرأى والتدبير ، غير أنى ما عرفت له
 هذه المحاسن وهو صبي ولا رأيت في دولته الزهاء الذى أشرق على دولة
 قبله ثم الرشيد من بعده ، لأنه كان منهمك النفس بحب الله وولد له
 ستة أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى^(٣) فيما سمعت . ولذلك كان الطامعون
 من غير أهل المراتب أكثرهم أهل طو وطرب . وكان أقربهم إليه مكانا
 عن عنده منزلة إبراهيم الموصلى النديم ، وهو أعجى الأصلى بارع فى جميع
 دلم والأدب إلا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه^(٤) وسياط ،
 الإجادة فيه المكان الذى لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز ، ولذلك كان
 إليه أميل منه إلى سواه من الندماء ، يقال إنه كان إذا استعطاء نحسين ألف
 عطاء مائة ألف^(٥) وقد قال لى إسحق ابنه والله أو عاش لنا الهادى لبنيينا
 دورنا بالذهب^(٦) .

٢ الأغاني ٣ : ١٥٣

٢ المسعودى ٢ : ٢٠٢

٢ العقد الفريد ٣ : ٥٤

٢ الأغاني ٥ : ٤

٢ الحصرى ٢ : ٢٠١

٢ الأغاني ٥ : ٦

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما جُلت في المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتُها في سعة من العمران ما كنت أعهدُها قبل هذا الوقت ، فما كفى أهلها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرقي المعروف بالرُصافة ، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات (١) وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنائيات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق ، تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره .

ولقد أکبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحاءها . وتموجهم كالبحر في أرجائها ، يقال إن عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف (٢) ، وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في مدينة من العالم قط ، فأنما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن أيمن (٣) ولا أيسر من الموضع الذي تكوّن فيه تكوّن الرمال . ثم أعظمت بلوغ النعم في أهلها بما رأيت من توفر أرباب الغايات عندهم على الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسع المنفعة من صناعاتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذي يقع في الأثم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

ولأنه يتعذر على بهذا القلم الذي لا مادة فيه أن أصف مفاخر المدينة (٤) التي قل ما تصيبه من الشرف أنها تزهو ببهاء السلطان . وتضم إليها من عيون الأعيان

(١) قال ابن خلدون نقلا عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها في بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجتمعها سور واحد لاتساع العمران .

(٢) في الاتليدي أنهم ألف ألف وخمسمائة ألف

(٣) ابن الاثير ٦ : ٩٦ وأبو الفداء ٢ : ١٩

(٤) يقول الحصري إن أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم كأن بغداد مسروقة من حسنه وظرفه

كثيرا حتى إذا لقي السائر جماعة منهم في الطريق لم يفطن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلهم في الثروة والجاه يتعذر على أكبر المدين أن تحمل سكناه وتسمع جنده وحاشيته والطامعين إليه من كل الوجوه^(١) فلقد يمشي أهل النعمة فيها بالغلمان^(٢) والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيدا عن الصدق ، فشاهدت في محلة العتّابية^(٣) أميرا قد ركب في مائة فارس وأحدق به الغلمان حتى ملئوا الطريق وسدّوا على الناس سبيلهم إلى أن مرّ ، وشاهدت في مشرع القصب^(٤) على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرّجل كأنى به قيصر على مركبه أو كسرى في جلال موكبه ، وربما عدّ المحصى في ولد العباس أكثر من ألف رجل^(٥) يركبون في مثل هذا الجمع ، وكلهم في سعة من الثروة وترّف من الحضارة ، وإنما ساد العمران عند البغاددة إلى حد الترف تشبها بما يرون من الرشيد في إقباله على الدنيا بطلب النعيم ، حتى يصدق المثل الذي يقول « الناس على دين الملك » ، فهو الذي ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ، ولم يُسمع عن الخلفاء من كان أسمح منه ببذل المال^(٦) . يقال إنه ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم^(٧) ، وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام^(٨) ، وقد أخبرني أبو يوسف أنه لما بنى بربيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلها في الاسلام ، وجعل الهبات فيها غير محصورة حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة ،

(١) الأغاني .

(٢) الأغاني ٤ : ١٠٤ و ٥ : ٨٤ وابن الاثير ٥ : ١٤١ و ٢٣١ والمستطرف ١ : ٦٥

(٣) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١

(٤) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩

(٥) في مروج الذهب ٣ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من «رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفا

(٦) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢ : ٣٣١

(٧) المسعودى ٣ : ٢٢٠ و ٣٤٢ والمستطرف ٢ : ٣٤١

(٨) السبوطى والعقد الفريد وتزين الاسواق والمقدمة .

وأواني العضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر ، وبلغ جملة المنفق فيها من بيت المال خمسة وخمسين ألف ألف درهم ، وأمر أن تجلي زبيدة في درع من الدر لم يقدر أحد على تقويمه بثمن ، وزينها بالحلي حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجواهر ، وهذا شيء من الاسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم ^(١) ولا صبية الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المال الكثير .

ومن جمال الدنيا في هذه الأيام أن الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة الانفاق والتبذير ، فان زبيدة زوجه تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوكة ، كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحو من ألف ألف دينار ^(٢) وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجواهر ، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل عليها الكلايب من الذهب الملبس بالوشي والديباج والسَّمُور وأنواع الحرير ، وكمثل اتخاذها شمع العنبر واصطناعها الخف مرصعا بالجواهر واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها ^(٣) ، إلى غير ذلك من الأمور التي تدون في سير الملوك لتعظيم موضعهم من الساطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات .

(١) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سعمائة خادم منهم ثلثمائة عبد أسود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا المرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين .

(٢) المستطرف ١ : ٩٨ وذكر أن التي صنعتها هي أم المستعين .

(٣) المسعودي ٣ : ٤٠٢

ولم أر مثل هذا الترف في غير دور الخلافة إلا عند البرامكة الأمجاد ، وإليهم ينهى جمال المملوك وإشراقهم ، فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروههم أكثر مما يحاسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب المحول من الجانب الغربى ^(١) في موكب عظيم وقد طُرِّزَ ملبسه وبين يديه الجند والغلمان ، والحفد والأعوان ، وهو واضع طرفه على معرفة فرسه ، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبرا وجلالة ، وكان الرشيد نفسه إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة ، والحرائن المجزعة ، والمطارح من الونى والديباج ، والحوارى يرفان في الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التي لا يدري ما هي لطيبها ، خيل إليه أنه في الجنة بين الجمال والجوهر والطيب .

وقد انتهى ترف شبابهم إلى الغاية التي لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم ، وربما كانت مجالس الطرب في دورهم أجلّ منها في دار الرشيد وأجمع لمعدات اللهو ^(٢) ، لأن عندهم الغواني ^(٣) اللواتي لا مثيل لهن في البلاد ولا سيما فوز وفريدة ^(٤) ومسة ^(٥) وهن أظرف القيان غناء وأحسنهن ضربا بعود .

واعلم أن الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلم في دور الأمراء غير الصفر والسود ^(٦) ، فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلموه الحواري الحسان ^(٧) ليزيد جمالهن في الغناء تأثيرا في النفوس ، وقد أخبرني نافذ من بعض حجابهم أنه لما زارهم الرشيد في يوم من أيام فراغه أخرجوهن إلى البستان فاصطففن مثل

(١) ذكر الأغاني ٦ : ٧٨ والمسعودي ٢ : ٢٣٧

(٢) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٣) الأغاني ١٥ : ١٤١

(٤) الأغاني ٣ : ١٨٣

(٥) الأغاني ٤ : ٨٧

(٦) الأغاني ٥ : ٩

(٧) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٧

العساكر صميين صفيين ، وغنين وضر بن بالعيدان وقرن على الدفوف إلى أن طلع إلى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد الملوك السالفين أنه نال من الطيبات ما هو موفور عند ملوكنا في هذا الزمان ، فكأن بغداد قد ألفت جوانبها على مهاد الدعة ، ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكبر^(١) بما توفر عندهم من المال .

ترف البغاددة وانغماسهم في طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئاً شيئاً عند من هم أقل منهم في الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدر لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يمنعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالأسفار التي أكسبتهم التجارب وأرتهم العجائب ، وأوجدت لهم التجارات والمكسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأنخرما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمرت عندهم الأسواق ، وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للريّة والمباهاة ، كابتاعهم السلاح المنزل بالذهب ، وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رسالهم في طلبه من الجهات^(٢) ، فلما حُلّ إليهم كل غال ونفيس من البلاد تحقق لدى أن محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد .

ولقد شهدت سوق الجوارى بعيد عودتي من نخراسان ، وقد أقيمت في الموضع المعروف بسوق النخاسين^(٣) وهم الرجال^(٤) الذين يجلبونهم من أطراف الدنيا

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبر من عيوب بغداد .

(٢) ذكره تزيين الأسواق ١ : ٣

(٣) الاغانى ٩ : ١٢٨

(٤) الأغانى ٥ : ١٢٦

إلى بغداد ، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والحرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف وإيمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن الغانيات اللاتي يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذي لا غاية بعده ^(١) ، وبما يتخذن من العصائب التي ينظمها ^(٢) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفايح الذهب .

ولقد يحال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر في هذا الوهم الطارئ بعد أن يرى تطارحهن على أهل النعيم . ولقد سمعت أن بعض الغواني المترفات يتخلصن سرا من حيث لا يُحسب المَقام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، وموالهن بهن غير عالين ، فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم ، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هي العادة المألوفة في البيع والشراء . ولقد وقفت في ذلك اليوم والدلال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الجمال ^(٣) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة .

أعود إلى ما كنت بصدد ذكره من ذكر البغادة في ترفهم المفرط فإني رأيتهن يزيتون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ، ويلبسون حيطانها الوشي والديباج ، ويعتنون بغرس الأزهار في جنانهم ، حتى لئنهم ليجلبون لها الرياحين ^(٤) من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار ^(٥) ، ويتخذون غلمانهم من أطرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون إلى

(١) الأغاني ٣ : ١٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٣٩

(٢) الكنز ٤٧

(٣) الأغاني وحلة الحكيم .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودي ١ : ١٨١

(٥) الأغاني ٥ : ١١٥

اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويفتتون في ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد في غير أوانه ، والثمار في غير إبانها بما يزن مثله فضة ، ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما يعضفون من الطيب وورق التانبول الهندى الذى يمزجونه بالنورة المبلولة مع القوفل لتطيبب النكهة وتشهية الأكل وإحداث الطرب والأريحية في النفس^(١) ، ويتخذون مقاعدهم في أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقشون في الرعام فاذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا في السقوف مراوح^(٢) يعملون لها حبالا تجرها ، فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ، ويستعيدون في اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم .

دخولى على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت إليه في هذه الأيام ، فأكتب الآن إليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلنى به من جميل العطف والإحسان ، فانى مضيت إلى داره في ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى الحضرة فأصبت ابن البواب جالسا في حجرات الحجاب ، وهو الذى يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة^(٣) ، فلما رآنى أوسعنى سلاما وتحية ، ثم جاوزنى إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه^(٤) لنفسه تجاه دار الضيافة^(٥) من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشه وأفرغ العناية في تجميله بأنواع الزينة ، وأقام فيه

(١) المسعودى ١ : ١٠١

(٢) الكشكول والأغانى ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

(٣) الأغانى ٣٠ : ٤٢

(٤) الأغانى ٥ : ٣٣

(٥) قصر من قصور الخلافة ذكره الأغانى ٦ : ١٣٣

الأساطين التي يصطف بجوانبها الغلمان^(١) ، وقد بناه على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون في الزوارق^(٢) ، وكثيرا ما كنت إذا زرتة بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشباك يستمع غناء الملاحين في الزلاّلات^(٣) ، فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمني إليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفني برقيق الكلام .

وكان الرشيد طويلا عَبل الجسم أشقر اللحية عليه مهابة المملوك وجلالته^(٤) ، وعيانه ودادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصغى لمحدث بين يديه حوْطه بيصره حتى لا يجد سبيلا إلى أن ينطق في حضرته بغير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفزاش^(٥) أن يأتي بما أتكى عليه^(٦) ، وهذا تعطف من الخليفة لا يكون إلا للبرامكة وأبي يوسف وجلة المشايخ من ولد العباس . ثم إنه استدنانى^(٧) إليه وأخذ يحدثنى بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لى بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لى حديثه عن خراسان فأخبرته عما كان هناك من الاختلال ، وأن الفضل رثى الفتى الذى دبره أهلها بالمحال . وأطاع يده فبهم بالضرب والنكال . وكنت عندما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفى كما جرت العادة بألا يكلم الخليفة أحد بما فيه الوهن إلا بادر إلى سيفه^(٨) تعظيما للأمر وقياما بواجب الإجلال . فقال سبحانه الله لقد أوصينا الفضل بهم خيرا لأنهم محبوبون لنا^(٩) ، وهم سيوف دعوتنا وأنصار دولتنا ، ومن لهم حق الدالة علينا

(١) الأغاني ٦ : ٧٦ و ٥ : ٣٣

(٢) الأغاني ٩ : ٦٧

(٣) الأغاني ٣ : ١٧٧

(٤) العند والخميس والسيوطى وابن الأثير .

(٥) ذكره الأغاني ٩ : ٦١

(٦) ابن الأثير ٦ : ٣٨ والأغاني ٥ : ٢٣ و ٩ : ٦١

(٧) الأغاني ٥ : ١٠٦

(٨) الأغاني ٥ : ٥٩

(٩) العقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٧

وحمة الوسيلة عندنا، فقلت يا أمير المؤمنين إن الفضل أخاك لم يمكن السيف في رقابهم إلا بموافقة القواد الذين إذا ما شاورهم في الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلة خوارج قد تراخت بهم الحال. وصارت فتنتهم إلى سوء المآل. فلما ذكرت له ذلك أعرض عن الإفاضة في هذا الحديث، وأخذ ينكت الأرض بشيء في يده، ثم قال وهذه مصلحة التجارة مما الذي يكتب إلينا المفضل عن لزوم حراستها بالجنود؟ فقلت له إن في خراسان تجارة تباع بأجنس الأثمان فإذا أمن السابلة الأعراب جلبوا خيراتها إلى العراق واتجروا بها مع أهم البحر، فقال حسن ولكن لنا أعداء ينبغي أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الإسلام، ونحن ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجنود إذ لا بد للراعي من حراسة الرعية^(١)، ولقد يكفي التجار ما أمنا لهم من السهل في غير الديار العران، وما احتفروا لركبهم من الركايا، وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق التجارة فيها دائرة، وأما تجار خراسان وما إليها من البلدان النائية فانا لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجنود ووافية بأرزاقهم.

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة، ثم يقبل على نفسه التأمل والفكرة. فأوهمت أنه يرى فيها مسألة نتقبض نفسه دون بسطها إلى. فإذا الأمر على خلاف ذلك، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإيثار بعضهم على بعض بالخلافة^(٢) فاتفق وأنا بالحلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فتفترسه الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور؟ فقال ما تحب يا أمير المؤمنين. ثم قام مقامه الذي كان إذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يسأله بشيء^(٣)، فأوماً إليه بالدنو فألقى في أذنه كلاماً ثم تنحى، فقال لي الرشيد هذا خادمنا الأمين نرتاح إليه في الأسرار والمهمات، لم يحدثنا جهرًا بحضورك ولكنه سآنا

(١) قالها الرشيد وذكرها الوطواط ١٠١

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

(٣) الأغاني ٥ : ٣٣

في أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية ، لأننا نرضى سيرته ونأمن
ضعفه^(١) ، ويعرف فيه حزم المنصور^(٢) ونُسك المهدي وعزّة نفس الهادي ، مع
أن بني هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد :^(٣)

أحاف التواء الأمر بعد استوائه ون يُنقض الحبل الذي كان أبرما

فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدّم به يحيى
إلى أبيه^(٤) ، والفضلُ إليه^(٥) من مبايعة الولد بعد الآخر ، مع علمي أن ذلك
أمر لا يجري فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذي يريده الرشيد بعد ما رأينا من
العباسيين تطاولهم في أمر الخلافة ونقضهم العهود التي كانوا يكتبونها على أنفسهم
في حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر^(٦) لما رسخت دولته ، ومضت في الناس
كلمته ، لم يجد من نفسه رادعا فخلع ابن عمه من الولاية وصيرها إلى المهدي من
بعده ، فلما ولي المهدي بحيلة الربيع ، وأخذ في استمالة الناس بما فُرق فيهم من
المال لم يجد منهم عند إظهاره أغراضه فيهم إلا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه
كما علمت ثم لما صارت الخلافة إلى الهادي وفي أعناق المسلمين المبايعة للرشيد
بعده أراد أن يخلعه^(٧) عنها ويصيرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رجاه
الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمت بعد الأوبة من خراسان .

ولما كان المأمون أحق بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن
أمه هاشمية مثله ، فلو صارت خلافة إلى من هو أصغر منه وهو حاضر لم يصبر

(١) المسعودي ٣ : ١٥ والمستطرف ١ : ٩٣

(٢) الأغاني ١٧ : ٨٠

(٣) الحصري ٣ : ٤٩ والمستطرف ١ : ٩٣

(٤) المسعودي ٣ : ٢١٥

(٥) الأغاني ١٧ : ٧٨ وابن الأثير ٦ : ٤٣

(٦) ابن الأثير ٦ : ٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١١

(٧) ابن الأثير ٦ : ٥٨

على ذلك ، فكان يخشى الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعا إلى الواقفين لها من أهل البيت ، أو إلى من كان أقرب الهاشميين إلى استخلاف أبي العباس ، فإن عم عم الرشيد إلى ثلاثه أعمام حاضرون فعبد الصمد بن علي عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون ^(١) فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد ، فلا تسع الرشيد مخالفتهم في تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأي الذي تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته ، ومصيرها إلى من يحب ^(٢) من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر

هذا فصل أفردته لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بيده وبين أبي جعفر ^(٣) إن صحت المقابلة بينهما ، فاني لم أجد في الملوك من جمع فنون السياسة إلى عقل الملوك وفصلهم ^(٤) وحكمتهم ودهائهم مثله ، تجتمع محامده في قربه من الخير وبعده عن البغي الذي كان طبيعة في أبي جعفر وبعض العباسيين ، حتى إذا صار إليه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تعاد إلى الناس السباع التي اغتصبها آباؤه وترد الأموال المغصوبة إلى أهلها في جميع الواحي والأمصار ^(٥) ، فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكنفى الناس فرجا ورحمة واسعة ، بعد ما شملهم من المكاره في خلافة أبي جعفر وما استمر عليه المهدي من حفظ الضاع المقبوضة عنهم ، إما لطمع في استغلالها ، وإما استصوابا لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه إنه ظلم العباد في أموالهم .

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤

(٢) وهو المأمون عبد الله .

(٣) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يفتنى سيرة جده في السياسة ويطالب العمل بآثاره .

(٤) المعرى ٢٣٣

(٥) المارودي ١٥٦

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من الصدق وحفظ
لودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم ، حتى إنه ليزيد عماله نحلة كلما عظم قدرهم
استفحل في الاسلام لمكهم ، فهذا رُوح من أمراء آل المهلب ، لما عظم
الدولة أمره ، ودانت الرقاب المتطاولة له ، أفرغ النعمة الواسعة عليه ، وجعل
ولاية من بعده إرثا في ولده ، وكذلك إبراهيم من أمراء الأتابكة ، لما تمكن
لمطامه من أهل المغرب أمره على إفريقية إلى أطراف الثعور ، وجعل له الولاية
، بيته ليكون ممتعا على العدو وكفيلًا برد الفَرْنَجَة إلى ما وراء البحر . وهذا أمر
دل على الحكمة التي فيها مصلحة الملة وإن دن وراءه من استقواء الأغلبية خوف
ا كان ليصير على مثله أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال ،
ان كان المنصب رِيحًا للأمر حتى لا يقع فيه ، فان الرشيد يحتال لما يقع في يومه
ن الأمور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الاسلام .

ولقد سمعت من يقول إن الرشيد يقتفى سيرة جده في السياسة . وذلك
سردود عندى ن حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم ، وإلا فان كان الرشيد
يخفى بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالاحسان إليهم حتى لا ينصرفوا عن
لماعته ، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطاعوا مغالبتة ، فما الغاية
للقصودة من سياستهما إلا واحدة غير أن سياسة الحلم حذر من سياسة القتل والظلم ،
ذ يكون لصاحبها من داللة الرعية غلبة يحرمها البغاة الذين في نفوسهم مرض من
ظلم ، لا يحجبهم عن رعيتهم ستر الخوف ، ثم يقتلهم استنكار من حولهم من
ناس والأشياء ، كما تقدم في الكلام على أبي جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت فيظن فيها خروج عن العدل لاستمراره على
مضم حقوف اندرية ، وإن لم تكن مجرأة على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم في كل
لوجوه وإنما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياسات بين الالين والعنف . ولقد
كنت أسير الرشيد في بعض الأيام فقال لى بلغنى أن العامة يظنون لى بغض على
بن أبى طالب فوالله وترية أمير المؤمنين أبى لى ما أحب أحدا حى له ، ولكن

هؤلاء (يريد آله) أشد الناس بغضا لنا ، وسعيا في فساد دولتنا ، بعد أخذنا بثأرهم من بني أمية ومشاركتنا إياهم فيما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بني أمية اليوم منهم إلينا فكنت في ذلك الوقت بعيدا عن الوثوق بصحة هذا الإيهام ، ولكن ظهر لي بعد ذلك أنه لا يروم إقصاءهم إلا على غير مكروه يصيبهم ، وأنه لو تدر أن يرفع عنهم الصيم الذي يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة في يده من غير منارح له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفسا ، فلقد علمت أن المكروه الذي ألمَّ بجي بن عبد الله بن الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسعه مخالفتهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنة ، وكذلك مقتل موسى بن جعفر الإمام لم يقع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن متهما في بدعة ولا ظنينا على دحلة مكروهة ، ولما قتلوه في حبسه أظهروا أنه مات حتف أنفه ، ومشى الرشيد في جنازته إلى باب التن حيث مقابر قریش فويق نهر عيسى الهاشمي ، فكنت أحيط به في ذلك اليوم مع البراءكة فسمعت يترحم عليه ، ويظهر براءته من دمه ، غير أن تغاضيه عن هذه المؤامرة ، وإن هو لم يدخل فيها غرر يسأل عنه يوم الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبعوا سنته التي هي العدل ، ولا يتساحوا في قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صححت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبي جعفر إلى الغاية التي يرجوانها جميعا من تأييد الدولة بها ، وإن لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدت للرشيد أعزّه الله فضلا في تدبير الملكة أحق بالشاء الجزيل ، وأبقى للذكر الجليل مما رأينا لأبي جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيد من المشقة في ركوبه إلى اطراف الملكة لتفقد ثغورها ، والنظر في تظلم الناس من ثقل يقع عليهم في الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور

العمال . فاذا صار إلى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يعرف اللسان العربي
أخذ التراجمة^(١) معه حتى لا يفوته شيء من أمر الرعية ، فهو يحج سنة ويغزو سنة ،
كذلك عادته من يوم ولي الخلافة^(٢) قال الشاعر يمدحه على بعد هذه الهمة منه^(٣) :

فمن يطلب لقاءك أو يُرده ففي الحرمين أو أقصى الثغور

وقال الآخر^(٤) :

ألف الحج والجهاد فما يند منك عن غزوتين في كل عام

و ربما راه في أسفاره أو بالزوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الأحاديث
والأخبار فيتخفى في زى التجار^(٥) ، ويطوف الأسواق مع جعفر وزيره ومسرور
خادمه لاستطلاع مالا يصل إليه خبره من أمر السوق والعوام ، فتجسم عن عنايته
بهذا الأمر كثير من الفوائد التي صالحت بها دولته ورعيته جميعا ، فقد قال جعفر
(أعزّه الله) إنا ما ضبطنا بغداد بالشرطة ولا عيننا بتقدير الأوزان وتمييز المغشوش
من السكه إلا بما وجدنا من الاختلال في نطوفنا بين الناس .

البرامكة نُكُتَةُ محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي يباشرها الرشيد إنما هي بإشارة البرامكة الذين رفعوا منار
الإسلام^(٦) بصلاح مشورتهم إليه في أمور الخلافة ، ولذلك صير إليهم النيابة

(١) المقرئى ١ : ٨

(٢) هو أمر معروف تجده في كتب المؤرخين وزاد في العقد الفريد على ذكر حجه ما شيا أنه لما مشى
إلى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدراك أمامها وتطوى حلفهما .

(٣) أبو الفرج والخيس ٢ : ٣٣١

(٤) فوات الوفيات ٢ : ٣٩١

(٥) الاغانى ٦ : ١٣٧ والاتليدى ١٢٦ والاسحاقى ٩١

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٧

في الدولة^(١) والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة ، وحفظ السان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار بعض الفساد^(٢) فصار جعفر يسمى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره في عموم الخلافة ، لأن الخطط كلها بيده إلا الحجابة لم تكن له لاستنكافه عنها لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والآداب التي تلزم بين يدي أمير المؤمنين^(٣) ، وذلك مما يتره نفسه عنه ، وهو بالموضع الذي علمت من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة .

ولقد كان يحبي أعزّه الله قائماً بأوَد الوزارة من قبل ، وهو الذي قلد الرشيد الخلافة بحكمته ودرايته^(٤) حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلسني في هذا المجلس بينك وبركك ، وقد قلدتني الأمر يا أبت ، ثم دفع إليه خاتمه وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى ، ويعزل من يرى ، ويستعمل على الولاية من يرى ، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي النديم^(٥) :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هرون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملسكه فهرون واليهما ويحيي وزيرها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة في المشرق حيا في الرشيد أن تعظم في الاسلام صولته ، على حين لا يحجر أهل البيت قيام ملكهم فيما وراء البحر ، مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة ، وسلوك السنن الشريفة ، فأنتج له حسن نظره أن يطوّق أمر الحمد إلى غير العرب الذين لا يقدرّون

(١) المقدمة ٢٠٧

(٢) المقدمة ويتضح ذلك من كتب الذين دقنوا اللغة في أيام الرشيد .

(٣) المقدمة ٢٠٧

(٤) ابن الأثير والمغزى والطبرى .

(٥) المسعودي ٢ : ٢٠٧ وابن الأثير ٦ : ٣٩ والأغاني ٥ : ٤١ والمستطرف ٢ : ٩٧ والابتليدي ٩١ والمخاضرة ٣ : ١١٤ والسيوطي وابن خلدون .

بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من إخوانهم بما يكون بينهم من القرابة والدالة ،
فألقى دون بلوغ غرضه من هذا الأمر صعوبة كادت تفضي إلى الفتنة ، بما وقع من
الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد^(١) وغيره من أمراء الجيش ، إلا أن الرشيد كان
على موافقته^(٢) فيما يرى فيه مصلحته ، فإذا فتح الناس عليه باب الفرقة أرسل إليهم
الفضل أو هـرثمة بن أعين^(٣) خبيرا الوهي في أقل من طرفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أركه الشيب ، ففوضها الرشيد إلى الفضل
ثم إلى جعفر^(٤) بعده ، وعيَّده بالمراتب إلى إخوانه وأقاربهم^(٥) ، وهم بمكان من
الطعنة^(٦) إلى توارثوها مع المجد طرازا وتلاذا ، فقاموا بأود الوزارة وجمعوا إليهم
مراتب السيف والقلم ، يقول سلم الخاسر^(٧) في شرف الدولة محاسن عقولهم :

إذا ما البرمكي غدا ابن عشر فهُمَّتُهُ أُمِيرٌ أَوْ وَزِيرٌ

إلا أنه كان ممتلي نظرم في السياسة^(٨) إلى جعفر ، هذا السلطان ، وهو حاضر
الرؤية ، مؤيد البديهة ، جامع لحصال الخير ، مؤتمن على الأسرار نارع في مهمات
الأمور ، وليس في أهل الادب من هو ذكي^(٩) ولا أفطن ولا أعلم بكل شيء
ولا أفصح لسانا ولا أبلغ في مكاتبة منه ، خلق جميل ، وأصل نبيل ، وعلم جزيل ،

(١) ابن الاثير ٦ : ٥١ يذكر انحراف بني شيخان عن البرامكة كما مر .

(٢) المقدمة ١٥٩

(٣) راجع كتاب المؤرخين .

(٤) و (٥) المقدمة والعقد الفرید .

(٥) ابن خلکان ٢ : ٣٦١

(٦) المحاضرة ٣ : ١١٤

(٧) العقد ٣ : ٢٧

(٨) الوطواط ٩ : ٢٤٩ وابن خلکان .

(٩) الأعاني ٤ : ٨٥ والحصري ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢

وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما يسرع في استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب ، كما يقول فيه الشاعر :

وزير إذا ناب الخلافة حادث أشار بما عنه الخلافة تصدر

ووجدت في نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على مفارقتها في ساعة من نهار أو ليل^(١) ، وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة بجانبه وأجاس بني هاشم على الكراسي والوسائد^(٢) دونه ، وربما قدمه في المشورة على أحب أهل بيته إليه ، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم بمال إلا برأيه ورضاه ، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم^(٣) أن الرشيد غضب عليه فقصد باب البراءة ، فقال له جعفر أنت تقصدني وهل من حاجة تبغها مقدرتي وتحبط بها نعمتي فأقضيها لك ؟ فقال عبد الملك نعم . إن في قلب أمير المؤمنين على مودة أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه جميل رأيه في ، فقال له جعفر قد رضى عنك أمير المؤمنين ، وزال ما عنده منك ، قال عبد الملك وعلى أربعون ألف دينار دينا ، قال هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنني أجل قدرك عن أن يصلحك بالمال غيره ، قال وابن إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الأولوية على رأسه ، قال لتطلب نفسك ، إن الرشيد قد ولاه مصر أو قال ما شئت من البلدان . فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والاعجاب به ، حتى إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار ، وكتب سجل ابنه على مصر^(٤) . فهذا أمر يدل على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من المصانة المرحية والشفاعة المقبولة عنده ، بحيث إنه

(١) الاتليدي .

(٢) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة الأغاني ٩٢ : ٤

(٣) هو من القواد الذين غزوا الروم وقد عقد الهداء مع نقفور في اللامس على جانب البحر على اثني عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبع مائة . ابن الأثير ٦ : ٥٧

(٤) الأغاني ٥ : ١١٩ والتفخري والأشبهى ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والاتليدي ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢

يضمن عنه ضمانات لا يجحد بدا من وفائها ، كما يدلك أن مشاركته في الملك لا تقف على حد السياسة فيما يبيديه له من رأى جميل أو تدبير حسن ، وإنما يتناولها في أكثر الأحيان بما بينهما من الدالة التي ليس مثلها بين الاخوان^(١) ، فما أذكر أن رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفسا بغير محضره^(٢) ، بل كثيرا ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة^(٣) ، ويجلسان معا . على محبة ومصافاة خلان .

وإن كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فإن لجعفر فضلا في تدبير مملكتها أتم وأجمل في عين الرشيد ، وقد أغناه بنفاد سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستلاء على بلاد المغرب ، ثم يبيت على خطر الفتنة التي لا يأمن إن حدثت أن تبقى الخلافة في يده ، فلم يكن بد لصالح أمره من سلوك السبيل الذي مهده له جعفر لستم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق . فوقفت مصالحة الدولة والاسلام جميعا على أن يتبع الرشيد هذه الخطة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدم ، ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمم .

ولقد شملت عناية جعفر خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم . إلا أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين^(٤) أشد منه عناية وأقرب ميلا إلى النظر في مصلحة الجند وهم الفرسان الذين لم ير لهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد ، التي لا يطيق الأعاجم مناجرتها فيهم ، إلا أن يصرف إليهم أرزاقهم في إباها ويرضيهم بسعة المطاء من غير مال الخليفة^(٥) بما يقتصد فيه من نفقات الدولة . وأما مآثره في تدبير المملكة فانها تتناول ضبط الأموال وترتيب

(١) الحصرى ٣ : ١٠٢

(٢) الاتليدى ١٦٩

(٣) الأغاني والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون .

(٤) إنما دور العرب الدواوين عملا بطريقة الفرس من قبلهم ولفظة الديوان فارسية كما هو

معروف .

(٥) ذكر المسعودى ١ : ٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله .

ديوان الأعمال والجبليات^(١) على غير ما رسم أبو عبد الله في كتابه^(٢) على الخراج ، وإنما اقتصد من النفقة قدرا أبقاه للزيادة في أرزاق الجند . وأقام على السجلات قوما مهرة في الحساب^(٣) ، ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه ، وجعل لها " الديوان شعبا ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضياع والنفقات^(٤) ، وغير ذلك ، وأحب أن تحفظ دفاتر الخليفة للراجعة^(٥) لينظر فيما يتصرف فيه بموازنته للدخل الذي دُون في سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر في أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم ، وصح عنده مساواة الناس بالأحكام التي لا تفرق بين المسلم وغير المسلم^(٦) إلا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة ، وأقام رجال العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع^(٧) ليكون في ذلك حفظ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها^(٨) ، وأمرهم بأن يجلسوا في الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على سنن العدل الذي يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان (أعزه الله) يقول^(٩) الخراج عمود الملك ما استغُررَ بمثل العدل وما استنزر بمثل الظلم .

(١) المقدمة ٢١٢

(٢) ذكر الفخرى هذا الكتاب ٦١٦

(٣) المقدمة .

(٤) الأعاني ٩ : ٢١ و ٢٦

(٥) ذكر الأعاني هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤

(٦) المأوردى ٣٩٣

(٧) العقد الفريد ٣ : ٢١١

(٨) المقدمة ١٩٦

(٩) العقد الفريد ١ : ١٣

ثم إنه نظر في صلاح الزوراء ودس فيها العيون بإمرة عبد الله بن مالك صاحب الشرطة^(١) لملافة اخلاص الذي يطرا عليها من وفود الأغراب واختلاطهم^(٢) ، وأقام العسس^(٣) الليل لحراسة الدروب^(٤) إلى أن وقع الأمن في أحيائها ، وخيم السلام على أرباضها ، وذلك ينذر أن يكون في مدن الأعاجم ومحاشد مللهم ؛ فلقد يئى إلينا عن قاعدة الروم أن المكروه نازل بها كل يوم لا محالة ، مع أنها محتسدة النصرانية ومبائة الملوك الدين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصلوة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم ، مع أنهم حملة العلم المتقربون في مهاده العمران على سعة واستقامة من الملك ، غير أن النرف قد غلب على عايتهم حتى لا سهيل إلى ردعهم عن معاورة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء^(٥) .

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعا بلغت منه الثقة به إلى أن يطوقه الساطة التي تقارن سلطته ويشارك فيها معه ، ففوض إليه القضاء بجلس المظالم ، وهو القضاء الذي كان يباشره الخلفاء^(٦) من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهدي من بعدهم كما رأيت في موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يجلس^(٧) بجانب الرشيد على سريرته ويشاركه في توقيعه على القصص التي يرفعها

(١) ذكره الأغاني ١٧ : ٤٦ والمسنودى ٢ : ٢١٢

(٢) ابن خرد ذبة ١١٦

(٣) الأغاني ٢ : ١٥٧

(٤) الأغاني ٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦

(٥) المقدمة ٤١٩

(٦) وكان هذا من أسباب التواني في دولتهم .

(٧) أبو الفداء ٢ : ١١ وابن الأثير ٦ : ٢٩ وأبو المرحج والسيوطي والذهبي ٢١٢

والمأوردى .

(٧) الأغاني ٤ : ١٦٢

الناس إليه ولكن بالعبارة التي يتنافس^(١) في بلاغتها العلماء^(٢) فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الأمثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعض عماله إليه « قد كثرت شاكوك . وقل شاكروك . فإما عدلت وأما اعتزلت »^(٣) . وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآية^(٤) . ووقع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » . ووقع في قصة محبوس « العدل أوقعه والتوبة تُطْلِقُه »^(٥) . ووقع في قصة متظلم « طب نفسا فكفى بالله للظلم ناصرا » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئة حسنتين » ووقع وقد قرأ كتابا فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منشورها . ويُفَصِّلُ فيها شذورها » ووقع في قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » ووقع في قصة رجل تظلم من بعض عماله « أنا لمثله حتى ينصفك »^(٦) ووقع في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابتهم « يرحل عنكم » ووقع إلى بعض عماله « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك »^(٧) ووقع في قصة رجل استأذنه في الحج « من سافر إلى الله نجح » إلى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها الأدباء^(٨) إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهما ثمنا^(٩) في أيدي

(١) الكنز ٩٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٧ والمقدمة ٢٠٧

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٧

(٤) العقد الفريد ٢ : ٢٣٣

(٥) العقد الفريد ٣ : ٢٣٢

(٦) العقد الفريد ٢٣٣

(٧) الوطواط ٣٥

(٨) السيوطي .

(٩) المقدمة ٢٥

الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذى ليس له ند في الرجال ، وقد فضّل المملوك فاطمة بالعلم والعقل والسياسة ^(١) ، وزاد الرشيد عزة ومنعة على محولم :ه قِدماء في دول الخلفاء فتولى الله مكافأته عن المسلمين والإسلام بما هو واسع له من الحميل ، وجعل المجد لائداً يجنباه والسعادة حافه ببابه . آمين .

صلاح التجارة والمعاملة

أخرج بك قليلا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الراجحة بين الناس بقدر ما يسمح لى المقام ، فإنه لما توفرت في أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام ، وقد نزلوا الأمصار التي كانت مستودع الدعة عندنا ومستقر ملاذ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر ، فتحولت طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش ، وأخذوا يتأثّلون الكسب ويطلبون حاجات الترف من جميع البلدان بما تيسر لهم من أسباب الاتصال في زمن الخلفاء ، فما أتم الرشيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها لسفر تجارهم ، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق ، فحملوا من الهند آيتها ومن أصبهان وشيراز ويزد شراها ^(٢) ومن خراسان حديدتها ومن كرمان رصاصها ومن قشمير النسيج الملون ، ومن الصين الكمكام والعود والمسك والسنور والسروج والغضائر والدارصيني والخولنجان ، ومن اليمن العطر ^(٣) وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاح والمصوغات ، ومن عيذاب اللالي ^(٤) ، ومن الوقواق الذهب والآبنوس ، ومن الهند والسند القسط والقنا والخيزران والكافور والعود والجوزبوى والقرنفل والفاغره والكجابه والذارجيل ^(٥) والثياب القطنية

(١) أعلام الناس وابن خلكان ٣ : ٢٦١

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٤٤

(٣) القزويني ٢٠٩

(٤) المسعودي ١ : ٣٩

(٥) ابن نرداذبة ٦٨

والمُخَمَّلَة والفيلة ، ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهها والملابس والدر والسُنْبَادَج الذى يعالج به الجوهر^(١) ، ومن ناحية الجنوب البقم الدارى ، ومن البحر الغربى المرجان ويكون بأرض الفرنجة ، ومن الروم المصطكا والعلمان والريق^(٢) ، ومن الشام الفاكهة والسلاح والحديد الذى يقطع من جبل لبنان . ومن روسيا جلود الخنزير والثعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق جرجان^(٣) ثم تحمل إلى أصبهان والجزيرة وآمد ونصيبين^(٤) ويتجر بها .

هذه هى تجارة الشرق^(٥) قد حملت إلى العراق ، وأما تجارة الغرب فقد تعذر نقلها لبعده المسافة وتراعى الشقة ، ولذلك كان يرى الرشيد فتح البحر عند السويس^(٦) حتى يقرب المجال من المغرب إلى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق ولا سيما أن على البحر الرومى سواحل إفريقية وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة إلى الشمال ، وسواحل الروم والشام إلى الشرق ، ولأنها لبلدان كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ، ولكن جعفر (أعزه الله) قد شاء عن هذا الأمر وخوفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جدة ، فيخربون المواطن المشرفة^(٧) ، على حين لا يتوقع لقدومهم أثر ، فمال جعفر « يا أمير المؤمنين إن نحرق السويس نحرق فى الإسلام ولو أنك وجدته محروقا بأيدي

(١) الأغاني ٥ : ٢٤

(٢) ابن خردادبة ٨١

(٣) ابن خردادبة ١١٦

(٤) ابن الأثير ٥ : ١٠١

(٥) الأغاني ٥ : ٢٤ وابن الأثير ٥ : ٢٢٥ والقزويني ٢٠٩

(٦) المسعودي ١ : ٢٩٩ والمقرئى فى الخطط والسيوطى والمقدمة ٢١

(٧) السيوطى والمسعودي

الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سده لأن مصالح التجارة لا تقضى على الإسلام بتصنيع الفتوح التي دانت له ببذل الدماء « وهذا رأى لا يبدو إلا لمن رُكِب فيه إجحاح الخليفة ومعدلة النظر ، فإن العلماء كلهم قد ضلوا عن إراك ذلك ، وإنما خوفوا الرشيد علو البحر الرومي على بحر القلزم ، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عيذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز ، ولكن قولهم بعيد عن الصحة ، لما يعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطعم ماؤه على سواحل البحر الرومي مع كونه يعالوه من حيث الإقليم ، فإشبهت عند العاقل إلا أن سطح البحور متساو في الشمال والجنوب ، ولم يسمع بحر أخفض من غيره إلا بحر أوط في أرض الأردن من إقليم فلسطين ، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقيانوس المحيط ، وإنما هو مياه تصب في متحدث من الأرض .

ولما اتسع نطاق التجارة في بغداد أصبحت موردا لأهل الإغواز من البلاد كافة يتناولون فيها حاجتهم من المال ، فوقع غش فاحش في التجارة وصارت الصيارف من اليهود^(١) وغيرهم^(٢) يعطون ما لهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين^(٣) وأكثر منهما ، فأقام الرشيد محتسبا يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان والمكاييل وينظر في معاملات التجار^(٤) أن تكون جارية على سنن العدل ، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء ، إذ الواجب على الملوك أن يمهّدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثر منه للتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم يبيعونها بما يشاءون من الغلاء ، فإن ذلك احتكار يفصى إلى فساد العمران كما مر

(١) الأغاني ٣ : ٨٥

(٢) الأغاني ٣ : ٨٣ و ٥ : ١٦١

(٣) كليات ٩٩ والأغاني ٢ : ١٥٤

(٤) الأغاني ١٧ : ١٠٨

في موضعه من الكتاب . وقد أخبرني الرشيد في بعض مجالس إلى أنه يروم أن يصلح معاملة التجار ويغير تقدير الدنانير والدرهم على وزن واحد صحيح (١) ، ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم ، مع أنه أصح ما يكون للعمران ، وإن كان ضرب السكة في الإسلام قد حدث عن نكايه وقعت ضمايتها بين عبد الملك ابن مروان وقصر الروم كما هو معروف (٢) فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تقدر أوزانها بعد ما ساءت المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قديما بالذهب والفضة وزنا (٣) ، وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها الكسروية والقيصرية ، فلما ذهبت سداجة الإسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية ، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم ، تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقصر ، فعنى عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدرهم ، فضرب السكة في دمشق (٤) وصرفها في جميع النواحي والأمصار ، ولكن من غير أن يقدر أوزانها ، فبقى منها الخفيف (٥) والثقيل وما هو بين بين ، ولذلك لم تسهل المعاملة بها بين التجار ، حتى إذا تنبه لها فاته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميز القديم منها عمدا إلى تعيين السنة على السكة المقدرة بعد أن كان يضر بها خلوا من التوقيت إلا «بركة الله» في أحد الوجهين واسمه في الوجه الآخر . وهذا كان منشأ الخلاف في أول من ضرب السكة التي ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمر بن الخطاب (٦)

(١) المحاضرة ٢ : ١٧٤

(٢) الاتليدي ٢٧٤

(٣) المقدمة ٢٢٧

(٤) ابن الأثير ٤ : ١٧٤

(٥) ذكر الدراهم الخفيفة الأغاني ١٠٤ .

(٦) المقرئ .

ويقول غيرهم إنها لمُصَّعَب بن الزبير^(١) ، ويقول بعض إنها معاوية بن أبي سفيان ،
ويزعمون أنه صوّر نفسه عليها متقلدا سيفاً^(٢) كأنه فاتهم علم موضعه من الخلافة
وحرّصه على متابعة الملة والشرع ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس
يجمّع على رأى منه . ولم يقع إلى من الدنانير الموقوتة إلا ما ضرب هذا الخليفة
المقدم ذكره في السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة ، وعليه جرى
الخلقاء بعده في ضرب السكة ، بأن يرسموا فيها « بركة الله » من وجهه^(٣) ، وعلى
دائره « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمهم
من الوجه الآخر يحوطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقطرة فإن المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطبري وهو أربعة
دوانق ، والدرهم المغربي وهو ثمانية ، والدرهم ايمنى وهو ستة والدرهم البغلي
« وهو الذى يقال إنه ضرب في خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكسروية »
وهو ثمانية دوانق ، فأمر الججاج أن ينظر الأغلب في المعاملة فكان البغلي والطبري
وهما اثنا عشر دانقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق .
وأما وزن مثقل الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جمّع عشرة دراهم
كان وزنها سبعة مثاقيل^(٤) ، والباس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الججاج
إلا أن ما فى أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم فى الخراج إلا
الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية^(٥) واليوسفية والهبيرية ، وهى أجود النقود
التي ضربها بنو أمية^(٦) على يد عمالهم فى العراق مثل أبى هبيرة ويوسف بن عمر
وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبق للغش
فى التجارة مجال ، ولا يحصل عنف فى جباية المال .

(١) ابن خلدون ٣ : ٤٥٠ والمأوردى ٢٦٩

(٢) الاتليدى نقلا عن الدميرى

(٣) الأنس الجليل ١ : ٢٤٠ والمحاضرة ٢ : ١٧٤ والاتليدى ٢٧٤

(٤) المقدمة ٢٢٧

(٥) المأوردى ٢٦٩

(٦) ابن خلدون ٣ : ٤٥٠

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا إلماع بذكر محاسن دولة الرشيد وإنها لدولة خيرٍ وصالح كما علمت ،
 في حدث أهل الأخبار أن الإسلام كان في أية دولةٍ أعزَّ جانباً ولا أوسع رُقعة
 مملكة^(١) منه في خلافة الرشيد . ولعمري إن الملوك الذين يتعهدونهم النصر مثله
 في جميع ما يباشرون من الأعمال قليل في العالم ، فما رأيتُهُ والبرامكة أعوان له قد
 نكَب في حرب قط ، ولا توجهت عليه هزيمة ، وإنما أعزَّ الإسلام باجتماعه
 في المشرق كله إليه ، ورمى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم
 من الروم وسائر الفرنجة ، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من
 الدول السالفة مقروناً بفضائل العلم وجمال الحضارة ، وكفى بشرف دولته أنه
 اجتمع ببابه من الوزراء^(٢) والأمراء والقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء
 والمحدثين والقراء والرواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره
 مثله ، فإن البرامكة أعوان دولته ، وأبا يوسف قاضيه ، وهَرثمة بن أعين أمير
 جمده ، والعباس بن محمد عم أبيه حليسه^(٣) ، وصروان بن أبي حفصة شاعره ،
 والأصمعي محدثه ، وأبا نواس نديمه ، والفضل من آل الربيع حاجبه ، وإبراهيم
 الموصلي وإسحاق ابنه مغنياه ، وابن بختيشوع جبريل^(٤) ، وبني ماسويه أطباؤه^(٥) ،
 والعلماء والأدباء كلهم قيام على بابه لا يفارقونه في حضر ولا في سفر ، حتى أنه
 ليطالب شاعره في أطراف الليل^(٦) فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم .

(١) الفخرى ٢٣٣

(٢) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخميس ٢ : ٣٣٢ والمأوردى ٣٣

(٣) الخميس ٢ : ٣٣٢

(٤) الفخرى والمسعودى ٢ : ٢١١ وابن الأثير ٦ : ٧٥ والمقدمة ١٦

(٥) أبو الفرج .

(٦) الأغاني والتليدي .

• وإنما قرب العلماء إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب^(١) والحرص على إحراز العلوم^(٢) ، حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم^(٣) من حيث العلم والتواضع له ، لا من حيث السيادة عليهم ، وهو بموضعه بالليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أن النواضع طبيعة في نفسه ، لأنه لو لم يأته الكبر من ناحية العلم لأتاه من ناحية السلطان ، وكلاهما داع إلى الإعجاب بالنفس ، فكثيرا ما كنت أراه إذا انتصب في عرشه يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردّه^(٤) ، غير أنه ربما كان يبتغي بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع في نفسه من الإجلال له أن تحصل له الغاية التي يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر في تنخير ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذي تقدم الإلماع إليه فيما مضى من الكتاب ، ورأيته يتوسع في أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام ، فإذا دخلت عليه عرضه على في سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله في جارية^(٥) تركية له :

يَا رَبَّةَ الْمَنْزِلِ بِالْفِرْكِ وَرَبَّةَ السُّلْطَانِ وَالْمَلِكِ
تَرْفُقِي بِاللهِ فِي قَتْلِنَا لَسْنَا مِنَ الدَّيْلِمِ وَالْتَرَكِ

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والاسحاق ٩٠ والدميرى ١ : ٩٥

(٢) الشرقاوى ٢٢٢

(٣) القزوينى ١٠٦

(٤) السيوطى والأغانى ٩ : ٨٦

(٥) الأغانى ١٢ : ١٨

وهوله في قينة له (١) :

تبدي صدودا وتحفى تحته مقة فالنفس راضية والطرف غضبان
يا من وضعت له خذى فدله وليس فوق سوى الرحمن سلطان
وقوله (٢) في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة وقد عمراه على فقدها من
الحزن ما ضاق له الصدر ، وفرغ دونه الصبر :

قاسيت أوجعا وأحزا لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشي حين فارقتها فما أبالي كفما كانا
قد كثر الناس ولكني لست أرى بعدك إنسانا
والله لا أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد اغصانا

إلى غير ذلك ، وكان من الفضل بحيث إن مادبه لم تخل قط من عالم أو أديب
أو شاعر. وكان يستدعى إليه العمري والفضل بن عياض (٣) وابن السماك الكوفي (٤)
وليسحق الفزارى وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في مسائل الدين (٥) ويبكي (٦) من
مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم ، حتى إذا جلس معاوية المحادث الضرير
، طعامه فام من موضعه وصب الماء على يده تعظيما لقدر العلماء ، فقال له معاوية
مير المؤمنين إن تواضعك في شرفك لأشرف من شرفك (٧) .

(١) العدد الجديد ٣ : ٢٥٧

(٢) السيوطي .

(٣) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخميس ٢ : ٢٣١ والاسحق ٩٠ والسيوطي .

(٤) العقد الفريد .

(٥) سراج الملوك ٣٠

(٦) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والطراطوشى ٣٨

(٧) السجى ٢٣١ والسيوطي .

أما زينة الدولة من الأدباء فتلاثة إسحق بن إبراهيم السديم وعبد الله الاصمعي والحسن بن هانيء المعروف بأبي نواس ، وكلهم إمام في العلم ، إلا أنه غالب على إسحق الغناء ، وعلى أبي نواس الشعر ، وعلى الأصمعي الأخبار والنوادر والملح .

فأما إسحق فإنه بالمسكان الرفيع من الأدب (١) ، وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدققات العلم ما ليس عند الذين يعمون^{هم} بجمع صنف واحد من صنوفه مثله ، واقتد رأيت عنده من كتب اللغة مثلاً ما ليس مثله في خزانة ابن الأعرابي (٢) ، وله مقام سام بين العلماء حتى إنهم ليهدون إليه كثيراً من تأليفهم ودواوينهم كأبي نواس وابن أبي عيينة (٣) وابن الأعرابي (٤) وغيرهم تذايلاً لعلمه وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرجاً للتعيش ، وإنما هو ميل بنفسه إلى محاسن الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يغنى إلا في دور الرشيد والبرامكة وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورته في العلم على جلوسه إليهم في صفوف المغنين (٥) .

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغنى لوليت القصاص بين المسلمين (٦) ، ووجدت في نفسه من جميل الميل إليه ما كان يحمله على أن يقصده داره (٧) على سبيل التحجب ، ولقد كنت يوماً بداره وهي بباب النمامية (٨) من الجانب الشرقي تلقاء قطر بل (٩) ، فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار

(١) الأغاني والحصرى ٢ : ٢٠٦

(٢) ذكر ابن حلكان ١ : ٩٣ أنه كان عبد ابن الأعرابي خزانة جمع فيها كتب اللغة .

(٣) الأغاني ١٨ : ١٢

(٤) الأغاني ٥ : ٥٥

(٥) الأغاني ٥ : ٦٠

(٦) ابن حلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغاني .

(٧) الاتليدي ٢٨٦ والأغاني .

(٨) الأغاني ٥ : ٧

(٩) ذكره المسعودي ٢ : ٣٨٥ و ٣٩٧

الذى يركبه (١) في ساحات القصر وجناته للترهة ، ومعه خمسمائة نفر من خدمه وغلماؤه وندمائهم (٢) ، فقام إسحق بالواجب من إكرام وفادته (٣) ، وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفى الجمع كله ، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء ، فقال الرشيد لست أريد هذا وإنما شوق في النفس دعاني إلى الأئس بقربك .

وأما الأصمعي فإنه قدِم بغداد (٤) في خلافة الرشيد في جملة من وفد عليه من العلماء . وهو إمام في النوادر (٥) والأخبار وأيام الناس مشهور له بصديق الرواية ، ولقد حدث الرشيد يوما عن ملوك بني أمية فقال إن سليمان كان نهما إذ قدّم إليه السمات لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمه ، وإن يزيد كان إذا جالس للشراب يسقط الخمر في ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله ما أصدقك في نقل الأخبار ! والله إن ثيابهما عندي وإن الدهن لفي أكام سليمان والخمر في ثياب يزيد (٦) ، على أنه لم يكن بيني وبينه مع طول المدة التي أقمتها في بغداد قرب ولا ائتلاف لا انقطاعه عن مجالس البرامكة ، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد ، فأراه لا يغفل عن نادرة مليحة إلا يذكرها له ، ولكن بالألفاظ التي تأخذ بمجامع القلوب ، وكنت يوما بين يديه وقد بدر من رجل ظريفة فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعي (٧) . وقد أخبرني بعض أصحابه أنه أقام في صباه بالبادية أياما طويلا يستطلع فيها عادات العرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم ، وقد شاهد ما يقيمون من المجالس

(١) الأغاني ٥ : ٣٠ و ٤٦

(٢) ذكر ياقوت ٤ : ١١٨ أن الخليفة كان يركب في كذا وكذا رجلا وخدمه .

(٣) واتخذ الفرش من الخز المطهر بالسنباب لذا في العقد الفريد ٣ : ٢٤٠ وهذا نص كلامه "فدخلنا دار إبراهيم الموصلي فاذا هي لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خز مطهر بالسنباب" .

(٤) ابن خلكان ١ : ٤٠٨

(٥) الشريشي ٢ : ٢٧٩

(٦) المسعودي ٢ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠ وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٧) المسعودي ٣ : ٢١١ والأتليدي ٩٦ والعقد الفريد .

والأسواق ، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق ، وما وقع لبساتهم مع الشعراء ، فلما أقام ببغداد أخذ يتحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار علماً في المدينة ، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه .

وأما أبو نواس فإن الشعر هو الذي يقدمه اليوم عبد الرشيد ، وقد (١) كان أبو نواس يحادثه من قبل بنوادر الناس ولكن من غير أن يفكّه بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضرني شيء ، فقال بجيأتي (٢) إلا ما قلت شيئاً ، قال كان الكذب عملي واليوم هجرته يا أمير المؤمنين (٣) ، فضحك وقال هذا أحب إلى من الحديث ، وله كلام ظرب في المجنون والجماعة (٤) وحوادث تدل على خفة روحه . وكان إسحق يتعصب له (٥) ويؤشيد بذكره ويجهز بتفضيله ويحجب له الرفد من الرشيد ويحيط من قدر الأصمعي لتنافس بينهما (٦) حتى أخذ المقام الأول بين الندماء وبني لنفسه الدور (٧)

(١) ورما حفظ له شيئاً من أمهات يثقل بها في محالسته الأدباء فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفى لنا نفسك وكانت من يتناق ما سمت نفسها بأكثر من قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيت تكشفت له عن عدوى ثياب صديق
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

العقد الفرید ١ : ٣٦٩

(٢) كلمة يقولها الخليفة عند التعجب الأغاني ٦ : ٧٥

(٣) المستطرف ٢ : ١٠

(٤) الكنز ٩٤

(٥) الأغاني ٥ : ١٠٧

(٦) الشريشي ٢ : ٢٧٤

(٧) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغاني ٣ : ١٦١

التي لم يبين مثلها عظماء الناس ، بينما الأصمعي يستقرض من أصحابه (١) .
المال .

ومن خلال أبي نواس المأثورة أنه يميل مع أهل البيت سرا لا
المجاهرة به ، وقد قيل له في إعراصه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى
وهذا على بن موسى الرضا في عصره لم تقل فيه شيئا ، فقال والله ما
إلا إعظاما له وليس في قدرة مثلي أن يقول في مثله وأنشد (٢) :

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادما لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد الماء
النبي صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوال والناس يتجهزون للخروج
الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

(١) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر المسعودي ٣ : ٢٢٣ أنه رأى في دار الأصمعي

وعليه دراعة حلقة ومقعد وسم وكل شيء عليه رث .

(٢) ابن خلكان ١ : ٤٥٧

الرسالة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى علىّ في بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين ما زلت منقطعا فيها إلى البرامكة حافظا لمقامي في الدولة تحت ظلهم وعنايتهم ، وكنت أتردد في خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بي في خلواته إلى أن صرت منه بالمنزلة التي لا يطمح إليها غيري من المقرئين إليه ، وكنت أقف على أمور بيته وأولاده ، فرأيت (أكرمه الله) صالح السريرة شديد الإغراق في الدين محافظا على أداء الصلاة في أوفاتها وشهود الصبح لأول وقتها ، يصلي في كل يوم وليلة مائة ركعة لا يتركها إلا لعله (١) ، وأذكر أنه لما حصل في أحد الأعوام لَزَنَة وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتدادا عظيما أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة (٢) ، وذلك دليل على موقع العبادة عنده ، ومظهر يروم منه تأييد الدولة بإجلال الدين حتى يكون الإسلام مغتبطا بمناحيه .

وإن كنت رأيت له في تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل فإني ما وجدته له في تدبير أهل بيته ومواليه ، وإنما يرجع الرأي في ذلك إلى زوجه أم جعفر ، وهي أنفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة ، وقد ربيت في مهاد الدعة والدلال كما يشير إليه اسمها ، فإنما سماها أبو جعفر جدها بزبيدة لغضاضة بدنها ، وقد كان يرقصها تهللا بها وإعجابا بملاحمها ، فسماها بزبيدة لذلك (٣) فلما بنى بها الرشيد ووجدها طرفة حديث ومصدر رأي جميل لم يردا من الانقياد إليها في قضاء ما ترومه من

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧ والفخرى ٢٣٠ والمقدمة ١٥

(٢) المستطرف ١ : ٨٢

(٣) الاغانى ٩ : ١٠٢ والشريشى ٢ : ٢٤٥ والحصى ٣ : ٢٣٦

الحاجات ^(١) ومن ذلك أنه مكنها من بيوت المال فأنفقت من سعة ما يُنَقِّف على ثلاثين ألف ألف دينار، فبنت مسجدا مباركا على ضفة دجلة بمقربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة ، ومسجدا سامي الحسن في قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر ^(٢) بين باب خراسان وشارع دار الرقيق ^(٣) ، وحفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المشاش ^(٤) ، ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا إلى مكة ، فبلغ ما أنفقته عليها ألف ألف دينار، وهذا من الأعمال التي لم تباشرها امرأة في الإسلام إلا الخيزران أم الرشيد فإنها عَمَرَت كثيرا من المساجد ^(٥) أيضا وبنت بمكة دار ابن يوسف التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا ^(٦) جزيل البركة ، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذي خلفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائة ألف ألف درهم ^(٧) فإن لم يكن عند زبيدة من المال ما يبلغ هذا القدر الجسيم فإن لها في السياسة رأيا تسمو به إلى التدخل في أمور الدولة كأفطن من يكون من الرجال .

وقد صير الرشيد أمر بيته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد ، وهو حاجبه وسيد مواليه ^(٨) . وله في قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزته من خدم وحرس وغلمان ، والكاتب له زياد بن أبي الخطاب ^(٩) يقيم بمقربة من مجلس يوسف

(١) في المسعودي أنها كانت من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢ : ٢٢٧

(٢) ياقوت ٤ : ٤٢١

(٣) ابن خلكان ١ : ١٨٩ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٤) المسعودي ٢ : ٤٠٢ وابن جبير ١٧٣ والشرشي ٣ : ٢٤٥

(٥) ابن جبير ٢٧٦

(٦) المسعودي ١ : ٣٠٦

(٧) المسعودي ٣ : ٢٠٧

(٨) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣

(٩) الأغاني ٤ : ٩٩

ابن القاسم صاحب ديوان الإنشاء^(١) ومن قام بين يدي الرشيد حين أخذت له البيعة ، وفي ذلك دليل على مكان كُتّابه من الشرف وعلو المرتبة . ولا غرو فإن له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمرء والحكام مثله ، إذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلا بإذنه ورضاه ، وكثيرا ما رأيت الملوك يترافون بالهدايا إليه ليخاطب الرشيد في حاجاتهم ، إذ ليس في أهل بيته من يتجرأ عليه سواه^(٢) حتى كان إذا ركب الخليفة لا يحسر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيره^(٣) .

وإلى مسرور الأمر فما يختص بالسراري والقيان وإنهن لكثير في دار الرشيد يبلغن زهاء ألفى جارية^(٤) يرفلن في أحسن زى من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهب ، غير أن المقدم عليهن جميعا ثلاث أهدهن إليه الفضل بن الربيع : سحر . وضياء . وخنث ذات الخال .

أما حريم الخلافة فإنه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر ، وأعظمها دائرة أم جعفر ، لها قصر السلام كله ، وهو أطرف القصور وأبهجها زينة وأجملها في العيون والقلوب موقعا يقول فيه إبراهيم النديم^(٥) :

سُقيت الغيث يا قصر السلام فنعم محملة الملك الهمام
لقد نشر الإله عليك نورا وخصبك بالسلامة والسلام

(١) المحاضرة ٢ : ١٣٢

(٢) الاتليدي ٢٨٦

(٣) الأغاني ٩ : ٩١

(٤) الأغاني ٩ : ٨٨

(٥) الأغاني ٥ : ٨١

ثم دائرة أولاد المهدي ، ثم دائرة أولاد الهادي ، ثم دائرة أولاد الرشيد من غير زبيدة زوجه . ولهن جميعا من الخدم والغلمان ما ينتهي إليه إسراف الملوك في السعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والإشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن في أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكحلة بالجواهر اقتداءً بعُلىة أخت الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصابة لعيب في جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه النساء (١) .

أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتأنق فيه إلا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة ، وإنما ينصرف همه إلى لذة المطعم بالتأنق في صنوف الألوان ، وقد جلست إلى طعامه (٢) أكثر من مرة في مجلس كامل الزينة قد فرش به بالرخام الأخضر ولبس حيطانه بالوشى المنسوج بالذهب (٣) فرأيت يفتن في طعامه ولكن على غير شره في الأكل ، يبدأ بالمرق من السكاج وغيره تنشيطاً لجسمه ، ثم يأكل الفاتر (٤) من الطعام من البقول وأشباهاها ، ثم الدجاج وأنواع الطير ، ثم الشواء ثم أنواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسق (٥) ، وهى رقاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتطرف بالخلردل (٦) ، وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التى تشبهه إليه (٧) ، فإذا اكتفى منه تناول الحلوى من الأسواق والربكة واللوزينج والفالودج أو غيرها ، ثم الفاكهة بعدها ،

(١) الأغاني ٩ : ٨٣

(٢) ذكر الأغاني ٥ : ٢٤ أنه ما كان يجلس إلى طعام الخليفة غير أمير وعالم .

(٣) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الأغاني ٣ : ١٨٤

(٤) المسعودى ٣ : ٢٢٠

(٥) المسعودى ٢ : ٤٢٦

(٦) الأغاني ١ : ٣٩

(٧) يتبدى بالطعام الحار وينتهى بأكل الوارد المسعودى ٣ : ٢٢٠

ثم النقل (١) وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلى ، ولكن فى الصحاف التى لم أر
أظرف منها فى آنية الصين ولا أغلى ثمنا وقيمة ، فكنت أحسب أشدة تألقه
فى فنون المطعم أنه لو لم يمه النبي صلى الله عليه وسلم عن الأكل فى صحاف الذهب
والفضة (٢) لاتخذها كذلك وتزل فيها اليواقيت والجواهر . فإذا اكتفى من التعلى
جاءه الغلمان بماء الورد الممسك (٣) فى قماقم الذهب مع شئ من الريحان فيغسل يديه
ويتبخر ، فإذا انتهى من الغداء دخل مخدعه للقيولة (٤) ، وإذا فرغ من العشاء
جلس للمغنين والندماء . كذلك عادته من يوم ولي الخلافة .

أما أولاد الرشيد فكلهم مترف يتقلب فى النعمة والإسراف إلا أحمد (٥) فإنه
يحاول العزلة ويقعد مقعد ضنأة ويتكسب بيده فيما يقولون شيئا ينفعه على نفسه
مع مقدرة أبيه كلها (٦) ، أما القاسم فإنه ذو كبر شديد ونعمة طائلة وبذخ زائد ،
وإليه ينتهى جمال ولد الخلافة (٧) ، وكان أبوه قد طوَّقه أمر الفداء الذى وقع
بين المسلمين والروم بعيد عودتى من نراسان فخرى ذلك على يده (٨) وعمره يومئذ
اثنتا عشرة سنة ، فتزاحم ركب الملوكة على بابه ، ومكنه أبوه من بيوت المال
فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشتري الجوارى (٩) والغلمان ، ويقوم المجالس
للشعراء والمغنين والندماء ويقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات (١٠) إلى
أن يصيب بعضهم فى ناحية ما لا يصيبه من جوائز الخليفة من المال .

(١) المسعودى ٢ : ٢٢٠ والأبشهى ١ : ٨٤

(٢) الاتلدى ٩

(٣) الاتلدى ١١٣

(٤) الأغاني ٥ : ١١ والمستطرف ١ : ١٣٢

(٥) ولده من سرية لبعض نسائه العقد الفريد ٣ : ٥٦

(٦) ابن خلكان ١ : ٥٧

(٧) الأغاني ٣ : ١٥٩ و ٩٦ : ٩٦

(٨) ابن الأثير ٦ : ٥٧

(٩) الأغاني ٣ : ٥٧

(١٠) ذكر الأغاني ٣ : ١٦٨ و ٤ : ١١٦ عطاء أولاد الخلفاء .

أما الأمين والمأمون وليا العهد فإنهما دونه في الإسراف ولا سيما الأمين فإنه يومئذ كان كثير العقل وإن كان ضعيفه (١) ، ويتخذ الوقار برقاً لوجهه لما يحدث به نفسه من أمر الخلافة . ولأنه ابن هاشمي وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم ، فإن أبا العباس وأبا جعفر والمهدي والمهدي والرشد كلهم أولاد سراري (٢) وأما عبد الله المأمون فإنه زينة أولاد الرشيد ، وسمته سمة خير وفضل وعفاف ، لم أر في أبيه خلّة من الخلال المحمود ولا خلّفاً من الأخلاق الرضية إلا وجدتها في نفسه طبيعة تسمو به إلى أرفع مقام في أدب الدنيا والدين ، ولم أر في أولاد الملوك غير البرامكة (أعزهم الله) من يتعشق العلوم الحكيمة (٣) على حداثة سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم (٤) في جميع أنواع العلوم مثله ، فما أذكر أني دخلت عليه مرة إلا وقد لقينته في مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألفيت بحضرته (٥) جماعة من أئمة العلم ومنهم الخزيي والعباس بن زفر ومنصور النمرى ، وهو السليم شعره من العيب لولا أن له طعنا في الشيعة يبتغي به مرضاة العباسيين ، ومحمد الراوية المسمى بالبندق لقصره وهو المنشد للرشيد أشعار المحدثين (٦) ، وفقى من أمراء آل نوبخت يقال له الفضل بن سهل وهو خليل المأمون (٧) وصديقه لا يصير على فراقه في نهار ولا ليل ، وإذا ركب في موكب أركبه معه على التجائب المخضوبة

(١) ابن الأثير والمسعودي والفخري .

(٢) السيوطي .

(٣) المقدمة ١٨

(٤) الدميري ١ : ٩٨ والمسعودي ٣ : ٤٠٢ والعقد الفريد ٣ : ٤٣

(٥) الأغاني ٢ : ٢٢

(٦) الأغاني ١٢ : ٢٠

(٧) ابن الأثير وذكره الطواط ١٤٢

بالحناء وعليها القطوع والديباج^(١) ، وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا به إحداق الهالة بالقمر، منهم الكسائي وأبو محمد مؤدباه^(٢) وهم يتباحثون معه في مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم (زيد) على الرفع والكسائي يقول بل (زيدا) منصوبة بأن فتطرح العلماء الجملة الإعرابية التي دار عليها كلامهم وهي « إن من خير القوم أو خيرهم نية زيد »^(٣) فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله في ذلك اليوم وعرفت أنه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير إذا جلس للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه من التسلية أدبا وفائدة ، ولم يكن شيء من الملاهي أحب إليه من لعب الشطرنج^(٤) يمارسه كأبيه^(٥) لاستنباط الخيل فيه ، حتى لم يكن في الناس من يفضله فيه وهو القائل في الشطرنج^(٦) :

أرض مربعة حمراء من آدم	ما بين الفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شهما	من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على	هذا يُغير وعين الحرب لم تم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة	في عسكرين بلا طبل ولا علم

(١) ذكر زينة المراكب هذه الأغاني ١ : ٨٨

(٢) الأغاني ١٧ : ٧٢ والمستطرف ٢ : ١٣ والمسعودي ٢ : ٢١٣

(٣) الأغاني ١٨ : ٧٧

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٥٤

(٥) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف -

(٦) المستطرف ٢ : ٣٠٦ والمسعودي ٢ : ٤٠٦

وأما لعبه بالأكرة والطَّبْطَابَة ورميه في البرجاس النُّشَاب . وكثره بالصوالجة في الميدان واقتناؤه طرائف الطير والخيول^(١) والحيوان . واتخاذه الديكة لبقاتل بعضها بعضا والأكباش لُيناطح بها بين يديه إلى غير ذلك من ملاذ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يُعَدُّوا أمثال هذه الملاهي على سبيل المفارقة والمباهاة . فإنه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من الملك المترف وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التي تعود عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة . فقد عني بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدر العظيم الثمين ، رأيت في بعض مجموعات صدوقا أودعه خواتم الخلفاء جميعا من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفي صدر الدولتين ، فكان جامعا لجميع خواتمهم^(٢) إلا خاتم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن ضاع من عثمان في بئر أريس كما تواتر في الأنباء^(٣) ما كف عن طلبه حتى يجده ، وفي هذا المجموع وأمثاله من المجموعات أدبٌ مع الفكاهة والزينة . وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير وليس هو إلا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

(١) من المعلوم أنه كان لأمرأ العرب العناية التامة بتربية الخيل ووجدت في العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه في الخلبة قال في الجزء الأول ٦١ : ركب الرشيد في سنة ١٨٥ إلى الميدان لشمود الخلبة قال الأصمعي فدخلت الميدان لشمودها فيمس شهد من خواص الخليفة والخلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى بن جعفر بخاء فرس أدهم يقال له الريذلهرون الرشيد سابقا فابتهج لذلك ابتهاحا علم في وجهه وقال على الأصمعي فنوديت من كل جانب فأقبلت سريرا حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعي خذ بناصية الريذ ثم صفه من قونسه إلى سنيكه فانه يقال إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأستدته شعرا جاء ما فيه . . . فأمر لي بألف درهم . وذكر المسعودي ٣ : ٢٢٠ أن الرشيد أجرى الخيل يوما بالركة وكان في أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملهما فقال فرسي والله وفرس ابني المأمون .

(٢) في العقد الفريد والمسعودي والمقرئ والخبز وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا ينقشون عليها .

(٣) أبو الفداء ١ : ٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم .

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) فإنها في الجانب الشرق بإزاء دور الخلافة ليس بينهما إلا عرض دجلة ^(١) ، وهى من الجمال والإشراق بمكان تسامى ^(٢) به قصور الرشيد ، لأنهم بنوها على السعة التى لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألف ألف ^(٣) درهم ، فهى مظهر الأئس والصفاء ، ومشرق الأنوار والسناء . مغشاة بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليها صور من الحص المجسم ^(٤) ، وقد فرشت مجالسها بالوشى والإبريسم وزينت بالمتاع الثمين والقماقم الذهبية ^(٥) والجلمات المنقوشة ^(٦) والقوارير الفرعونية ^(٧) ولطائف الصيغ وغيرها من التحف التى تأتيتهم من الملوك فى سبيل المراضاة والاستمالة ^(٨) ، ولبست طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة ^(٩) مما قالته الشعراء فى مدحهم ، وهى تأتيتهم من مصنوعات الفرس ، لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بن مروان ^(١٠) ، ولا يكتبون على البسط والستور إلا كلاما يتبرك به ، بخلاف الفرس فإنهم يزینون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات .

(١) الفخرى والالتيدى ١٦٧ والقزوينى ٢١٠

(٢) الديميرى ١٥٤ : ٣

(٣) ابن الأثير ٦٢ : ٦٢

(٤) كانت العرب تعرفه كما فى المقدمة ٣٥٧

(٥) الكنز ٣٦

(٦) الأغاني ٢٧ : ٣

(٧) الأغاني ١٣٠ : ٦ و ١٠٣

(٨) الفخرى ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفى ابن الأثير ٦ : ٥٨ أنهم كانوا من المنزلة الكبرى فى عيون الملوك بحيث إن خاقان ملك الخزر حمل ابنته إلى الفضل بن يحيى تقربا إليهم فى المصاهرة .

(٩) رسم الأبيات على الأستار مذكور فى الأغاني ٥ : ٨٦ و ١٠٠

(١٠) الالتيدى ٢٧٢

وقد اتصلت عمارة البرامكة في حي لا يخالطهم فيه أحد ، وهى من السعة بحيث تنتهى من الجنوب إلى شارع المدينة ^(١) ، ومن الشرق إلى درب دينار الصغير ^(٢) ، ومن الشمال إلى باب الشّاسية ^(٣) ، وهو الموضع الذى فيه قصر يحيى المعروف بقصر الطين ^(٤) ، المسمى بذلك معارضة لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة ، وفي جوارهم موضع يقال له البردان ^(٥) . يشترى فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب ^(٦) ، لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم والسماحة ^(٧) ، وأصبحت أعطيّاتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك ، فإن يحيى إذا ركب يعدّ صررا في كل صرة مائتا درهم ، ويدفعها للمتعرضين له في الأسواق والشوارع ^(٨) . وقد قالت الشعراء في ذلك :

ياسمى الحصور يحيى أتيت لك من فضل ربنا جنتان
كل من مرّ في الطريق عليكم فله من نوالكم مائتان

أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فما لا تحضرني عبارة تنفى بالإفصاح عنه ، وإنما للعين أن ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحفد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثله ، وإن إقبال المؤمنين عليهم من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون إليهم رجال الرجاء ويستقون من موارد إحسانهم ،

(١) ذكره الأغاني ٦ : ٧٨

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣١١

(٣) الأغاني ٥ : ٨ وذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ وقال إنه في الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الأثير ٦ : ٩٨ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد .

(٤) الأغاني ٥ : ٨ وياقوت ٤ : ١١٤

(٥) الأغاني ٥ : ٨ وذكر المسعودى هذا الوضع ٢ : ٢٦٧

(٦) الأغاني ٥ : ٧٢

(٧) الأغاني ٥ : ٧٢ والاتبليدى والابشيبى والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون والفخرى وابن نباتة وابن خلكان وغيرهم .

(٨) ابن خلكان ٢ : ٣٦٣ والفخرى ٢٤٠

نهلاً وعللاً لأشهر من أن أحاول نعته بالوصف الذى لا يعبر عنه القلم ، فكأنما
يلتهم محط الركائب يضعن فيه المدائح ويحملن منه المال .

ولقد رأيت من الأعراب من قصد الفضل من قضاة فسأله عن حاجته
فاستجده عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنا وبنفسك
يا أخا العرب ، وإنما تعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة ، فلما أخذ المال انصرف
وهو يبكى فقال له الفضل مم بكائك آستقلالا لئال الذى أعطيناك ؟ قال لا
ولكننى أبكى على مثلك تواريه الأرض ويا كلة التراب وأنشد^(١) :

لعمرك ما الرزية فقد مال ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حُرِّ يموت لموته خلق كثير

فنظر إلى الفضل بعد انصرافه وقال لى إن مثل هذا يقصدهنا من البلد البعيد
ليسترفدنا مرة واحدة فى زمانه فيقوم بحرمة الصنعة ، ومن الأمراء من نغمه
باحساننا كل يوم^(٢) ثم يغمط النعمة ويدب فيه مرض الحسد فيكون من أشد
الناس بغضا لنا وسعيا فى فساد ملكنا .

وقد انفجر البرامكة بالكرم^(٣) حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر فى سعة
العطاء ، فيقال فلان من الملوك يتبرمك ، وقد أخبرنى الخازن القائم على بيت مالهم
أنهم يغنون فى كل سنة عشرين ألف ألف دينار^(٤) فإذا انقضى الحول لا يبقى منها
فى الخزان دينار واحد ، فهم يتخذون الكرم قاعدة فى الحالين من نعيم الدنيا

(١) الاتليدى .

(٢) الفخرى ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والمستطرف ٣ : ١٩٢

والأغانى ٥ : ١١٩

(٣) الأغانى وابن خلدون وابن الأثير وأبو الفداء والمسعودى والعقد الفريد والمستطرف والاسحق

والاتليدى والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٨

وبؤسها . يقول أبو الفضل^(١) (أيد الله ملكه) إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى
وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى . وقال أبو نواس في مدحهم^(٢) :

إن البرامكة الكرام تعلموا فعل الجليل وعلموه الناسا
وإذا هم صنعوا الصنائع في الورى جعلوا لها طول البقاء أساسا
وقال فيهم نصيب^(٣) :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافع وأرى البرامك لا تَضُرُّ وتنفع
إن العروق إذا استسربها الثرى أشرّ النباتُ بها وطاب المزرع
فإذا جَهِلَت من امرئ أعراقه وقديمه فانظر إلى ما يصنع
وقال أبو النضير البصرى :

إذا كنت من بغداد منقطع الثرى وجدت نسيم الجود من آل برمك
وقيل فيهم وهو منتهى المديح :

أتانا بنو الآمال من آل برمك فيا طيب أخبار ويا حسن منظر
لهم رحلة في كل عام إلى العدا وأخرى إلى البيت العتيق المستر
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت بيحي وبالفصل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغداد وتمحولنا الدجى بمكة ما تمحو ثلاثة أقر
فما خلقت إلا لجود أكفهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعا به وناهيك من راع له ومدبر

(١) الاتليدى فى كتاب أعلام الناس .

(٢) الأعانى ٥ : ١١١ و ٣٠ : ٣٤ والحصرى ١ : ٣٧٥

(٣) الأعانى ١٠ : ١٠٠

وقال سلم الخاسر في يحيى^(١) أعزّه الله تعالى :

يأيها الملك الذى أضحى وهمته المعالى
انت المنوّه باسمه عند الملهمات الثقّال
لله درك من فتي كم فيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر^(٢) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعا لطيفا فى القلوب
نام الخليّون من همٍّ ومن سقمٍ وبثّ من كثرة الأحران لم أنم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا اعمد ليحيى حليف الجود والكرم
وقال فيه آخر^(٣) :

سألت الندى هل أنت حرف قال لا
فقلت شراؤه قال لا بل وراثته
واكنى عبد ليحيى بن خالد
توارثنى من والد بعد والد
وقال غيره^(٤) :

لا ترانى مصافحاً كفّ يحيى
لو يمسّ البخيل راحة يحيى
إننى إن فعلت ضيّعت مالى
لست خت نفسه ببذل النوال
وقال غيره فى كرم الفضل^(٥) رعاه الله تعالى :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد
إليه يسير الناس شرقا ومغربا
فقامت به التقوى وقام به العدل
فرادى وأزواجا كأنهم نحل

(١) الطواط ٢٤٩

(٢) الأغاني ٥ : ١٣ والاتليدى ٢٣٨

(٣) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ١٠٠

(٤) الفخرى ٢٣٦

(٥) اعلام الناس ٠

واعترضه وقت خروجه إلى خراسان فتي من التجار كان قد شَخَص إلى الكوفة
فقطّعه عليه الطريق وأخذ جميع ما كان معه ، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال (١) :

سأرسل بيتنا ليس في الشعر مثله يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأس في كل منزل أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

وقال آخر من شعراء البادية (٢) :

قد كان آدم حين حان وفاته أوصاك وهو يهود بالحوباء
بينه أن ترعاهم فرعتهم وكفّيت آدم عيلة الأبناء

وقال فيه أشجع السلمي الشاعر (٣) :

وما قدّم الفضل بن يحيى مكانه على غيره بل قدّمته المكارم
لقد أربّ الأعداء حتى كأنما على كل ثغر بالمنية قائم

وقال أبو النضير البصري (٤) :

ويفرح بالمولود من آل برمك بغاة الندى والسيف والرمح والنصل
وتبسّط الآمال فيه لفضله ولا سيما إن كان من ولد الفضل

وقال غيره (٥) :

ولأمة لامتك يا فضل في الندى فقلت لها ما يقدح اللوم في البحر
أردت لئنني الفضل عن سنن الندى ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر

(١) العقد الفريد ١ : ١١٩

(٢) ذكر في العقد الفريد ١ : ١١٤ أن البيتين قيّلا في الحكم بن حنطب .

(٣) الأغاني ١٧ : ٣٤

(٤) الأغاني ٥ : ١٤ و ١٠ : ١٠٠

(٥) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ٢٩٨

مواقع جود الفضل في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر
كأن وفود الناس لما تحملوا إلى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر
وقال آخر (١) :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رأيت بها غيث السحابة يُنبت
وقال ابن الخياط المكي (٢) :

لمستُ بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يُعدي
فما أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأتلقت ما عندي

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه في تقبيل يده
فأذن له فما انتهى إلى الباب حتى فزق المال بأسره ، فعوتب على ذلك فقال
البيتين المذكورين ، فبلغ ذلك الفضل فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال
بعضهم (٣) وهو أمدح بيت في الكرم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء
وقال مروان بن أبي حفصة في جعفر وهو صبي (٤) :

بنى لك خالد وأبوك يحيى بناء في المكارم لن ينالا
كأن البرمكى لكل مال تجود به يداه يفاد مالا

(١) المستطرف ١ : ١٩٦

(٢) حلبة الكهيت والوطواط ٢٥٠ والأغاني ١٨ : ٩٤ وهو يقول إنه أنشدهما في المهدي .

(٣) ابن خلكان ١ : ٥٦٨

(٤) هما من بحر القصيدة التي رثى بها معنا ولم يثبه عليها أحد من أولاده وقد قالها في مدح جعفر
البرمكى وألحق بهما بعض أبيات . ومما قاله مروان في هذه القصيدة في رثاء معن :

كانت الشمس يوم أصيب معن من الإسلام ملبسة جللا
هو الجبل الذي كانت معن تهد من العدو به الجبالا
أقنا باليمامة بعد معن مقاما لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال فلا نوالا

وهي من جيد الشعر . الأغاني ١٨ : ١١٦ والخصرى ١ : ٣٧٧

وقال فيه أيضا (١) :

أفى كل يوم أنت صبٌّ وليلةٍ إلى أم بكر لا تُفريق فتقصر
أحب على المهجران أكثاف بيتها فيا لك من بيت يحب ويهجر
إلى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سُرَّاهَا نَحْوَهُ وَالتَّهْجِرُ
إلى واسع للجبدين فناؤه تروح عطاياهم عليهم وتبكر
وقال فيه (٢) :

لدولة جعفر حمد الزمان لبابك كل يوم مهرجان
جعلت هديتي لك فيه وشيا وخير الوشى ما نسج اللسان
وقال العتّابي ، وكان في نفس الرشيد عليه موجدة واستعطفه جعفر عليه ،
فقال فيه (٣) :

ما زلت في غمرات الموت مطّرحا قد ضاق عني فسيح الأرض من حيلي
ولم تنزل دائما تسعى بلطفك لي حتى اختلست حياتي من يدى أجلى
وقال فيه أشجع السامى (٤) :

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بأبوابه إذا نابها الحَدَثُ الأَفْظَعُ

(١) الأغاني ٥ : ١٥

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧

(٣) الأغاني ١٢ : ٧

(٤) الأغاني ١٧ : ٣٤

وقال فيه (١) :

ذهبت مكارم جعفر وفعاله في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس
فإذا تراءته المملوك تراجعوا جهر الكلام بمنطق همس
ساد البرامك جعفر وهم الألى بعد الخلائف سادة الإنس
ماضر من قصد ابن يحيى راغبا بالسعد حل به أم النحاس

إلى غير ذلك من الأشعار التي لو حاولت تقييدها في هذا الكتاب لبلغت أكثر
من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة ليس فيها بيت سخيف بارد . وقد
وجدت للرقاشي (٢) وحده ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت في مديحهم ، وهى
من البلاغة بحيث إن البرامكة (أعزهم الله) يروونها لأولادهم تفضيلا لها على
شعر غيره من المحدثين .

الدولة فى خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته ، فقد سبق القول
بأن دولته من أوسع دول الإسلام بل دول العالم رُقعة مملكة ، فإنها تنبسط من الهند
وفرغانة فى الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الزقاق ، كذلك كان
امتدادها فى أيام أبيه فيما عدا البلدان التى غلب عليها الروم فى حروب متواترة قد
استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء فى رفع السيوف عليهم
منذ صدر الإسلام ، فإن الدولة الأموية قد حملت عليهم المرة بعد المرة وحملتهم

(١) الأغاني ١٧ : ٣٣

(٢) الأغاني ١٥ : ٣٥ ويظهر من كلام ابن الأثير ٦ : ٦٤ أن الرقاشي كان
شاعر البرامكة .

خسائر عظيمة من الرجال والمال ، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش ولم يزل أبو جعفر في مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء ، وكانوا مع ذلك لا يفترون عن الثورة ويأبون إلا نكث العهود ونقض العقود المبرمة ، فلما ولي المهدي أنخرج إليهم الرشيد^(١) وهو في قيادة يحيى وزيرنا ، فركب في عدّة وأهبة لم يكن مثلها في الإسلام ، وتحركت في نفسه نخوة الجهاد حتى اتسم بسمّة المحاربين في الجيش ، وحمل الرمح في يده^(٢) . وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها ريني لم تُطق مقاومتها ، فهزم جندها وتفرق المسلمون في البسائط^(٣) يعقون الآثار ويبيحون الذمار ولا يبقون على أحد من الروم ، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المنجنقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كليكية ، وحملت إليه الجزية التي كان يحملها أسلافها إلى الخلفاء ، وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة في إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ، ففي نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء في أمرهم ما بقي لهم ملك تجاه دول الإسلام العظيمة .

ثم إنه بعد أن ولي الرشيد وقع في نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه . فعبا لهم العساكر وشحنها في أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام^(٤) وسير الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويبنون الخراب ، ففتحوها وغنموا^(٥) وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافوا بمعاقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم ، فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم ، ورأت الجند بين يديها وهوشتهم ، صالحتهم على الجزية وراحت تحملها إلى بغداد وهي صاغرة إلى انقضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل واستشعروا

(١) أبو الفداء ٢ : ١٠ والخميس ٣ : ٣٣١ وابن الأثير .

(٢) الأغاني ١٧ : ٤٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٧٠

(٤) أبو الفرج : وذكر إمارة الأساطيل بسواحل الشام ومصر أبو الفداء ٢ : ١٩

(٥) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبي من أهلها ستة عشر ألفا ابن الأثير ٦ : ٧٠

من عزة الإسلام في غزوتهم تلك ما أفاضوا في التحدث به إلى هذا اليوم. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وتصدر رايات الإسلام راويات .

ولما هلك ربي نصّب الروم عليهم تقفور وكان ملكا شديدا البأس إلا أنه قليل الخبرة بأمور السياسة غير عارف بمكان الإسلام من الصولة والدولة ، بل كان يظن في المتمصرين من العرب فتورا في العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دعة العمران. فكتب إلى الرشيد في منتصف هذه السنة كتابا بنقض الهدنة التي كانت بينه وبين ربي يقول فيه :

«من تقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعد فإن الملكة التي كانت قبل كانت أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا (١) ، وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيني وبينك » .

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يجسر أحد أن ينظر إليه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى تقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه » (٢) .

ثم حشد الجنود ليومه ، وركب في صفوف المترجلين والفرسان ، وحمل القوّات والأقوات استظهارا على نفوذ العزيمة ، ولم يزل حتى وافى مدينة هرّقلة (٣) ونصب عليها القتال ، وهي مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الإسلام في الوصول إليها لخشونة مكانها ، فدك أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله أكتاف الروم فنفلهم رقابهم وأموالهم وفي ذلك يقول الشاعر المكي (٤) :

هوت هرّقلة لما أن رأت عجبا حوائما ترتمي بالنفط والنار
كأن نيراننا في جنب قاعتهم مصبغات على أرسان قصار

(١) في تاريخ أبي الفداء أنه قال فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بجمل أضعافه إليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن إلى آخر الكتاب .

(٢) الأغاني ١٧ : ٤٥ والطبري وابن خلدون والسيوطي والمسعودي ١ : ١٥٨ وأبوالفداء ٣ : ١٨

(٣) أبو الفداء ٣ : ١٩

(٤) الأغاني ١٧ : ٤٧ والمسعودي .

وهذا كلام ضعيف لين ولكن قدره عظيم في ذلك الموضع والوقت (١) ،
ولم تقف هزيمتهم على هزيمة فقط بل كانوا يسمون كثيرا من المعادل والبلدان ،
فكان ذلك الفتح فتحا عظيما لا كفاء له . وهنأت الشعراء الرشيد قال أبو العتاهية
في ذلك (٢) :

قضى الله أن صفى لهرون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضيا
تحييت الدنيا لهرون بالرضا وأصبح تقفور لهرون ذميا

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قبل رغبتهم في المسالمة والمواصلة ،
وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست أقول إن هذا الفوز
كان سهلا على الرشيد فإنه قد طوح من الرجال وأنفق من الأموال ما هو حقيق
بأن ينظر فيه ، فإن الروم أهل بأس ومراس شديد ، وهو يقاسى (٣) معهم الحروب
الصعاب ، ولم يكن في شأنه معهم حيلة ولا سياسة ، وإنما هي حروب تواصلت
تباعا وأخذ بعضها برقاب بعض لما يروم من نفوذ السلطان حتى يركب عليهم
سيف الإسلام ، وإلا فإن الجزية التي يطمع فيها لا تنفي بالقليل من الأموال التي
تنفقها الدولة ، وهي بمكانها من الهجوم ومكان الروم من المدافعة في ظلال الأسوار ،
وفي ذلك تفاوت بعيد في خسائر القتال ، والذي يدل على قوة الإسلام أنه غزاها
غزوات كثيرة ما أخفق في واحدة منها كما رأيت .

(١) الأغاني ١٧ : ٤٧

(٢) المسعودي ١ : ١٥٨

(٣) ذكر الأغاني ١ : ٣٨ أن الرشيد قال للاصمعي عقب قدومه من بلاد الروم أنشدني أحسن
ما قيل في رجل لوجه السفر فأشده قول عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر
أخا سمر جواب أرض تقاذفت به فلوات فهو أشعث أغبر

وفي العقد الفريد ٣ : ١٧٨ تكملة هذه الأبيات وهي قصيدة مشهورة يستحسن الطرفاء طريقة نظمها
لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين .

هذا كان شأن الرشيد مع صُهب السبال ، أما السياسة التي أتعبت خاطره فكانت منصرفة إلى إذلال العلويين في المغرب قبل أن تسود بهم الحال ، وتسود عندهم جموع الرجال . لأنه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم لتجافى عظماء دولته من أهل الرأي والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة إلا ضياع المال وضيعة الرجال ، ولذلك جعل الملك في إفريقية لآل ابن الأغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمعو على الشرق كله ، فكأنه وقع بين أمرين مخوفين فاختر ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملك الأغالبة المغرب حتى إذا قامت دولتهم رسخت في مكانها ولم تتجاوز الرمال التي بين إفريقية ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب ، ولم يأل ابن الأغلب في مناوأتهم جهدا وهو لا يبلغ الغاية التي يرومها من إذلال ملكهم وتضييع نفوذهم في المسلمين ، لأن جندهم مطيع لهم فيما استقروا فيه من تلك الأقاليم ، وكلهم صادق الحملة مدرب على القتال ولا سيما قبائل صنهاجة من بطون حمير^(١) ، وهم أمنع الناس ذمارا ، وأبعد الفرسان مغارا . وذلك أمر طيب متى النفس لا بغضا في آل العباس لأنى لا أريد بهم مكروها ، وإنما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الأئجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم^(٢) كما يقول الفرزدق الشاعر في مديحهم . فلعمري إنهم أحق من الأغالبة بهذا الملك الذي أراه اليوم يثبت في أيديهم إلى ما شاء الله من الزمان لاتجاههم إلى غاية واحدة وسياسة راشدة ، فقد عرفت أن تمزقهم فيما مضى إنما حصل بتفريق دعائهم على أغراض لم تجمع بينهم إلى الوحدة . وفيما تقدم من الكلام عن أبي جعفر ما يبين لك أنهم لو لم يفترقوا لظفروا . أما اليوم فإنهم مجتمعون إلى إدريس ابن إدريس وله دون غيره من أهل البيت «السلام عليك يا ابن رسول الله»^(٣) .

(١) ذكرهم ابن خلكان ١ : ١٢٢

(٢) الأغاني ١٤ : ٨٧ والانتليد ٤٤ والشبلنجي ١٧٠

(٣) ابن خرداذبة ٧٩

وإنما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بإيعاز البرامكة الأجناد، وهم الآخذون بناصرهم والمتغرضون معهم^(١) والمقلدون الولايات لكثير من أهل الشيعة^(٢) إلا أنهم لا يتعمدون في ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته، لأن المغرب فيما يرون إذا انسلخ عن بغداد لا يُحدث في الخلافة ضررا لعظم الممالك الإسلامية، وإنما يضر التجزؤ بالدول إذا كانت الدولة منحصرة في إقليم غير متسع إلى طرف العالم وكان في جوارها أمة ثانية متغلبة فإنها تسطو عليها شيئا فشيئا إلى أن تلتهمها جملة واحدة، كما رأينا في سير الأئمة الماضية، أما الخلافة الإسلامية فإن الجهاد في الأعاجم يعمل على استقرار ملكها ووقايتها، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك في أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوها من قبل أن يصل إليها فتحفظ خزانها من إنفاق المال، ورجالها من تغرير القتال. وتبيت في شؤونها آمنة بحراستهم. اللهم إلا أن يكون فيهم من هو أشد سلطانا، وأكثر جنودا وأعوانا، وهذا بعيد عن أن يكون في دولة متجزئة من الخلافة، ولو انضمت جميعا إلى قيادة واحدة ما ناوت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلة، حتى لقد يُجىء إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كعصر مثلا ما لا يجيىء إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف.

فكان ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) يرون أن قيام الدولة العلوية في المغرب داع إلى صلاح الرشيد، وأنها تكون مجتبا للخلافة بما تجاهد لها في رد الأئمة النصرانية.

(١) في تاريخ أبي الفداء ٣ : ١٢ أن الرشيد لما جهز الفضل بن يحيى إلى قتال يحيى بن عبد الله كتب إليه الفضل وبذل له الأمان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن إليه ويكرم وفادته عليه وفي ذلك دليل واضح على محبة البرامكة لأهل البيت. وذكر ابن الأثير أن الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين كان يتشيع وأن البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦ : ٧٠

(٢) المحاضرة ٣ : ٨

وكان جعفر يقول لى إنه لو لم يكن للرشيـد فى هذه البلاد النائية إلا قضاة حاكمون كما كان لملوك بنى أمية فى الأندلس ما ظهروا على الفرنجة والجند بين أيديهم قليل ، ولو أنه أثمنهم لاستنفدوا ماله ، أو استنصـحهم لكانوا عليه لاله ، فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين ، لأنه إذا قامت دولتهم فى المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس فى يد المسلمين^(١) . وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الفرنجة من البلدان التى فتحها طارق ابن زياد والله يبيد أمما ويحيى أمما لا إله إلا هو ذو الملك والسلطان .

عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيد إلا أن نذكر قدر المال الذى يحمل إليه من جميع الممالك والبلدان ، فإنه لم يسمع عن دخل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز القدر الذى يحمل إلى بيت المال فى زمانه ، مع أنه يسلك مع الملوك مسلك الحلم ، ولا يضرب عليهم الخراج إلا على قدر ميستهم . وإن كان قد زال عنه القليل مما يحمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية التى غلب عليها الروم من الأموال التى لا يصح أخذها^(٢) من المسلمين كالخراج والعشور التى تؤخذ على جميع غلاتهم^(٣) ، فقد بلغ المحمول إليه فى كل سنة نحواً من خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب ، ما عدا الغلال والمصنوعات كما ستراه . فحمل الناس كثرة هذا المحمول على أن يعدوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولوا إنه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب^(٤) ،

(١) نذكر هنا أنه قامت فى المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التى فتحت الفتوح وأعزت الاسلام .

(٢) ابن جبير ٧٦

(٣) الزرقاوى .

(٤) مقدمة ابن خلدون .

إلا أن ذلك غلو وإفراط في تعظيم الشيء ، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار . ويبعد أن يكون في العالم ألفا ألف ألف دينار من الذهب ، ولو جاز وجودها ما صح أن تحمل كلها إلى بيت المال ولا يبقى منها شيء في أيدي الناس لمعاملاتهم . وتقديرهم هذا وإن كان بعيدا عن الصحة يدل على الكثرة وأن المال يحمل إلى بغداد بالصُّبَر^(١) لوفور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصفه إلى خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بني العباس ، ولا يبعد أن عمالهم كانوا يحجزون من مال الجزية قدرا لا يحملونه إليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهما تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصنائع وأهل الحرف واثنى عشر درهما من ذوى الفاقة والإعسار^(٢) : دون أن يكون في الدواوين عمل لذلك . ولما قام وزيرنا^(٣) ، أيده الله بأعباء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يقرر الدخل في السجل من قبل أن يحصل في يديه ، فلم يبق سبيل إلى نقص الأموال إلا فيما يؤخذ من المكوس على السلع وما يتصرف به العمال من نفقات^(٤) ولا ياتهم وليس هو إلا القليل في جانب الكثير من دخل الدولة .

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شيء من الزيادة والنقصان بتنقل البلاد من حال إلى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل فقد كان حاصل السواد وهو أرض^(٥) ما بين الموصل وعبادان في الطول وما بين عذيب بالقادسية

(١) القزويني ١٠

(٢) المقرئى والمتطرف ١ : ١٣٨

(٣) هو جعفر بن يحيى البرمكى .

(٤) ذكره المقرئى ٣ : ٢٧

(٥) الماوردى ١٩٩

إلى حلوان في العرض عشرين ألف ألف درهم في زمن المجاج^(١) لكثرة الظلم ، فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران^(٢) حتى صار يحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم . وكان حاصل فارس وأصبهان وكرمان في عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعد ما جباها عمرو ابن العاص في زمن الخير اثني عشر ألف ألف دينار »^(٣) تدلّ إلى ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال فلما تولّاها البرامكة جبا منها للرشد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ،^(٤) واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم .

ويحمل إلى بغداد غير هذه الأموال المقررة والغلال الكافية لأرزاق الجنود وعلف خيلهم قدر من المصنوعات والغلات التي تكون في البلدان ، فيحمل من السواد مائتا حلة من الحلل النجرانية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الأحمر الذي يطبع به على طرف الرسائل السلطانية ، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألف رطل من السكر ، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد ، ومن أصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب الأسود . ومن مكران خمسمائة ثوب من المتاع اليماني وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكون ، ومن السند مائة وخمسون رطلا من العود الهندي ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلاثمائة ثوب ، ومن خراسان ألفا نقرة من نقار الفضة وأربعة آلاف برذون وألف رأس من الرقيق يتخذون خدما في دور الخلافة ، ويكون لأمرأى بنى هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم ، وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلاثون ألف رطل من الإهليج وألف وثلاثمائة قطعة من صفائح الحديد ، ومن جرجان ألف شقة من الإبريسم . ومن قوّمس خمسمائة نقرة من نقار الفضة . ومن طبرستان ونهاوند ستمائة

(١) المستطرف وان خرداذبة ٣٦

(٢) المستطرف ١ : ١٢٥

(٣) المقرئى ١ : ٩٨

قطعة من الفرش الطبرى ومائتا كسوة ونحسمائة ثوب وثلثمائة ألف متديل وثلثمائة جام . ومن الرى وقزوين عشرون ألف رطل من العسل ، ومن همدان ألف رطل من ربّ الرمان واثناعشر ألف رطل من التين ، ومن الموصل وما إليها وأعمال نينوى عشرون ألف رطل من العسل الأبيض . ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثناعشر ألف زق من العسل وعشرة بزاة مرباة لصيد الملوك وعشرون كسوة من الحرير للبيت الحرام ، ومن أرمينية قدر من البسط ومن قنّسرين والجنّد ألف حمل من الزيت ، ومن جند فلسطین ودمشق قدر كبير من الفاكهة اليابسة وثلثمائة ألف رطل من الزيت ، ومن إفريقية مائة وعشرون بساطا ، ومن اليمن شئ كثير من المتاع ، وكذلك من نجد وعمّان واليمامة والحجاز وكنكور وحلوان ومهران وشهرزور وأذربيجان ومصر وجند الأردن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التى تصرف على الجنّد وتتفق فى مصالح الدولة (١) .

وهذا المال كله يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة إلا فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين للوازنة بين دخل الدولة ونخرجها . وقد تجمع كثيره فى بيت المال منذ صدر هذه الدولة حتى إن أبا جعفر (غفر الله له) لما أدركه الموت قال للهـدى فى وصيته إنه خلف له من الأموال ما إن كسّر عليه الخراج عشر سنين كفاه لأرزاق الجنّد ومصلحة البعوث وغير ذلك (٢) ولقد أخبرنى يحيى (أعزه الله) عن خالد أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ما خلف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم ، (٣) فلولم يكن إلا هذا فى خزائن الرشيد (٤) لكفى دولته نفرا على دول الخلفاء ، وبهاء ليس مثله من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المنعة لأنه مادام بيت مالها

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن خرداذبة .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧

(٣) المسعودى ٣ : ١٩٤

(٤) ذكر ابن الأثير ٦ : ٧٦ أنه كان فى بيت المال لما توفى الرشيد ستمائة ألف ألف ونيّف .

عامراً فلا تزال ممتنعة على العدو ، وأما البهاء فيأتيها من المال وإنفاقه في الوجوه التي ترفع الدولة وفيما يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون في نعيم العيش إلى تزيين دولهم برواج الأدب كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء إليه وارتفاعه بعلمهم في دينه ودنياه .

مجلس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه (رحمه الله) ثم يجيزهم على موضعهم من العلم بما لا يكاد يحصى من الجوائز ، وإن الذي كنت أرتاح إلى شهوده من المجالس بداره إذا حضر وقته هو مجلس الغناء ، على أنى لم أره في السنين الماضية أحفل منه في هذه السنة ، وكان الرشيد قد نشط له وقام بلبسته التي يلبسها في الصيف ، وهي غلالة ^(١) رقيقة يتوشح عليها بازار رشيدى عريض العلم مخرج ، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير ^(٢) يجيز بها من يطيب منه المسموع وتصلح عنده الصنعة ، ومن حوله جماعة من بنى هاشم والفضل وجعفر من البرامكة (أعزهم الله) ، وهما جالسان بجانبه على سرير الخلافة .

ولما اجتمع المغنون جالسوا في صفوفهم بناحتين من المجلس للمناظرة ^(٣) بينهم في الغناء . فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة إسحق النديم ، ومنهم المقصرون عن أدائه والمغترون له وهم جماعة إبراهيم بن المهدي . وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم وإسحق أن إبراهيم تغنى بلحن قديم أضاع صناعته فرد عليه إسحق وعاب عليه تغييره فقال أنا ملك وابن ملك أغنى كما أشتى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا في ذلك فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء ويحيى المكي وعمرو

(١) ذكرها الأغاني ٥ : ٣٣

(٢) الأغاني ٩ : ٥٨

(٣) ذكر هذه المناظرة الأغاني ٥ : ٢٦ بين الموصلي وابن جامع .

ابن بانة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن مُحَرِّز والهذلي وغيرهم ، وبقى مع الموصلى المترفعون عن الأغراض والآخذون بحاسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل مُحَارِق وعُثْوِيَّة وعَرِيب وبَذل وسُليم بن سلام وزبير بن دَحْمَان وأحمد بن يحيى المكي ومحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم ^(١) وكانت قوم إبراهيم بن المهدي قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثر عددا من حزب إسحاق ، لأنهم كانوا يتقربون بكفالاته إلى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر إسحاق وجهروا بتفضيله رجع إلى غرضه كثير من المجيدين ، ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعون ، فلم يكن من مفسد له إلا الذين تقسّمت أسماؤهم وجماعة من أولاد العباسيين مثل إبراهيم وأخيه يعقوب وأختهما عُلَيَّة وعبد الله بن الهادي وعيسى بن الرشيد وغيرهم ^(٢) ممن يترفعون عن أن يقيد غنائهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة . فهذا إبراهيم ليس في الناس أعلم منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبع على الغناء . ولقد رأيتُه إذا غنى يجلس الرشيد قُرب لكل من في دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعه فيه لحسن صوته ، وقليل ما كانوا يسمعون إذ كان لا يغنى إلا على حال تصوي عن الغناء وترفع إلا أن يدعو إليه الرشيد في خلوة أو إذا كان عنده جعفر فيقول له أحب أن تشرف جعفر ^(٣)

(١) من كتاب الأغاني .

(٢) انظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء في الكتاب التاسع من الأغاني .

(٣) كذا في كتاب الأغاني وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحبباً لأخيه وهي « لا تنقص من قدر جعفر شيئا » فقد ذكر صاحب العقد ١ : ١٠٠ أن منزلته كانت عظيمة حتى إذا دعا إبراهيم بن المهدي ليعفّر قال له إبراهيم جعلني الله فداك إنما أسعد بمساعدتك وآنس بخالاتك وأعاد القصة نفسها في الكتاب الثالث صفحة ٣٤ وذكر في الكتاب الأول صفحة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبي أنت ما دعاك إلى أن تحمل عبدك هذه المنة التي لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢ : ٢٢٧ عن مسيرة الرشيد ليعفّر أنه كان إذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعا له .

بأن تغنيه صوتا فيغنى . ولقد كنت ذات يوم في خدمة أميرنا (أعزّه الله) فغنى إبراهيم على أبيات لمروان بن أبي حفصة يقول فيها (١) :

طرقتك زائرة ففى خيالها زهراء تخط بالجمال دلالها
هل تطمسون من السماء نجومها بأ كفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقلها

فلما بلغ قوله « جبريل بلغها النبي فقلها » هن حلقه فيه ورجعه ترجيعا زلزلت الأرض منه ، فما أظن أحدا يقدر على أداء الأصوات مشله إلا إسحق المخالف له على هواه والمقر بما له من جميل الصناعة لولا أنه أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقا إلى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى في ذلك اليوم إبراهيم أبو اسحق وكان ذلك بإشارة مسرور العبد إذ كان أمر المغنين مفوضا إليه (٢) ، وإذا أحب الرشيد أن يسمع صوتا (٣) أشار إليه فأشار هو إلى المغنين فغنى إبراهيم :

ولى كبد مقروحة من يديغنى بها كبد ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح
والحن فيه ماخورى (٤) لا يعرفه أحد مشله . ثم غنى على أبيات قالها في بعض قرى الرى :

أنا فى الرى مقيم فى قرى الرى أهيم
ربما نهى الاخ وان والليل بهيم
حين غارت وتدلّت فى مهاويها النجوم
للتى تعصر لما أيعت منها الكروم

(١) الأغاني ٩ : ٧٢ والانتليدى ٢٨٧

(٢) الأغاني ٦ : ٧٤ والمسعودى ٢ : ٢١٩

(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٤٢

(٤) الأغاني ٥ : ٣٦

ولحنها من الثقيل الأول باطلاق الوتر في مجرى البنصر^(١) ثم غنى :
ألا يا سلمى يادارمى على البلى ولا زال منها بجرعائك القطر

الشعر لذى الرمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثانى^(٢) . ثم غنى :
وقفت على ربع لمية ناقتى فازلت أبكى عنده وأخاطبه
وأستقيه حتى كاد مما أبشه تكلمنى أحجاره وملاعبه

الشعر لذى الرمة أيضا والغناء ثالث ثقيل مطابق في مجرى البنصر^(٣) ، فأجاد
إبراهيم حتى كأن كل ما في المجلس يحياه ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، فطرب
الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما في شعر ذى الرمة
لأنه كان يحفظ أبياته كلها في صباه ، فكان إذا غنى فيها صوت أعجبه أكثر من
جميع الأصوات التي يصنعها المغنون فيما لا يحفظه من الشعر ، ففطن إبراهيم لذلك
وطلب إليه أن يقطع شعر ذى الرمة ويحظر على غيره من المغنين أن يداخلوه فيه
فأجابه إلى ذلك فأصاب إبراهيم عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير^(٤) .

ثم أشار مسرورا إلى إسماعيل بن جامع القرشى وهو من المتعصبين على
إسحق فغنى :

لم تمش ميلا ولم تركب على قتب ولم تر الشمس إلا دونها الكلال
تمشى الهوينى كأن الريح ترجعها مشى اليعافير في جيئاتها الوهل

الشعر للأعشى^(٥) والغناء الأول لابن سريج بلحن الرمل بالبنصر^(٦) ثم غنى
بلحن خفيف الثقيل الأول بالوسطى^(٧) على أبيات عمر بن أبي ربيعة :

(١) الأغاني ١ : ٢

(٢) الأغاني ٥ : ٣٩

(٣) الأغاني ١٦ : ١١٦

(٤) الأغاني في الجزء الخامس .

(٥) العقد الفريد ٣ : ١٧٣

(٦) الأغاني ٦ : ٨٢

(٧) الأغاني ٦ : ٨٢

كان أحور من غزلان ذى بقر أعارها شَبَّهَ العينين والجيدا
أجرى على موعد منها فتخلفنى فما أملّ ولا توفى المواعيدا
كانى حين أمسى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا
ثم غنى بلحن الهزج بالوسطى^(١) على هذين البيتين :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سِراعا وما يغشى لنا النوم أعينا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب^(٢) ممن يحب الخلعة في الأصوات ،
فهو يميل إلى ظُرف الغناء والنغم الكثير العمل^(٣) كما يميل إلى ظُرف المعاشرة
والافتتان في خلعة الملبس^(٤) .

ثم أشار صاحب الستارة إلى إسحق بن إبراهيم صاحب هذا الفن بخاء غلام
من غلمان الدار يعود هندی^(٥) كان مودعا له في خزانة المجلس^(٦) قد أصابحت
أوتاره قبل ذلك الوقت ، لأن العيدان لا تصلح في مجالس الملوك^(٧) ، فضرب
عليه نغماتٍ صاح لأجلها القوم جميعا ثم غنى :

قل لمن صدعاتى ونأى عنك جانب
قد بلغت الذى أردت وإن كنت لاعبا

(١) الأغاني ٦ : ٧٧ و ٨٢

(٢) المستطرف ٣ : ١٨٨ والأغاني ٤ : ٩٨ و ٦٥

(٣) ذكر ابن حاتم هذا صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ وقال إنه أحل المغنين نغمة .

(٤) الأغاني ٦ : ٩٦

(٥) ذكر العود الهندي الاتليدى ١٣٠

(٦) الأغاني ٥ : ١٠٩

(٧) الأغاني ٥ : ٥٨

الشعر والغناء له ولحنه من الثقيل الثاني بالسبابة في مجرى الوسطى^(١) ، ثم غنى بلحن وضعه معبد في أبيات لأبي صخر الهذلي^(٢) . وهى :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فياحبها زدنى جوى كل ليلة وياسلوة الأيام موعذك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فطرب الرشيد وقال له زدنا يا أبا صفوان من غنائك ، وأبو صفوان كنية يلقبها عند التحجب^(٣) ، فغنى بهذين البيتين :

الطلول الدوارس فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها فهى قفر بسابس

غناء لم أجد أحسن منه موقعا في القلوب ، وكنت في ذلك الوقت جالسا بمقربة من أبيه فقال " لو لم يكن من بدائع إسحق غير هذا لكفى . « الطلول الدوارس » كلمتان و « فارقتها الأوانس » كلمتان أيضا وقد غنى فيهما استهلالا وصاح وسجع ورجع النغمة واستوفى ذلك كله في أربع كلمات وأتى بالباقي مثله . فمن شاء فليجعل مثل هذا أو ليقاربه " . ثم قال " والله ما فى زماننا فوق ابن سريج والغريض ومعبد ، ولو عاشوا حتى رأوه لعرفوا فضله واعترفوا له " (٤) والغناء

(١) الأغاني ٥ : ٧٥ و ١٢٦ و ٩ : ٥٤ و ٥٧ والشريشى ١ : ٣١٢

(٢) الأغاني ٥ : ١٦ والوطواط ٩٠ والالتيدى ١٤٣

(٣) الأغاني ٥ : ٥٢

(٤) الأغاني ٥ : ٨٧ و ١٢٨

لا سحق خفيف بالينصر . ثم وجد في نفس الرشيد إقبالا عليه وطربا من صناعته
فغنى لحنا صنعه في شهر لذي الحجة يشكرى يقوله في بعض بنات الملوك المناذرة (١) :

ولقد دخلت على الفتاة الحدر في اليوم المطير
فدفعتها فتدافعت مشى القطة إلى الغدير
فلشمتها فتتنفست كتتنفس الظبي الغرير

فأجاد في الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة
الطرب « والله ما الغناء الذي يُلبّن العريكة ويُفسح في الرأي والصدر ويُحدث
في النفس طربا إلا غناء هذا الرجل » :

ثم أشير إلى فليح بن أبي العوراء فغنى على لحن صنعه في بيتين لعدي بن الرقاع
العامل (٢) :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم
وسنان أقعده النعاس فرقت في عينه سنة وليس بنائم

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الأول باطلاق الوتر في مجرى ينصر صنعه (٣)
في بيتين للأومل من شعراء الدولة الأموية :

ألا يا ظبية البلد براني طول ذا الكمد
فردى يا معذبتى فؤادى أؤخذى جسدى (٤)

(١) الأغاني ٩ : ١٦٦ و ١٨ : ١٥٢

(٢) المستطرف والشريشي ٣ : ٢٨٠

(٣) الأغاني ١٩ : ١٤٧

(٤) في قول الشيخ ابن الفارض :

أخذتم فؤادى وهو بعضى فبا الذى يضركم او كان عندكم الكل
التفات إلى هذا البيت .

وهو يعارض فيه اللحن الذى صنعه أبو إسحق فأجاد ولكنه قصر عن أن ينحو نحو صناعة الموصلى ، وإن كان قد مضى فى بعض كتبه السالفة ما يشهد لموصعه بالليل من هذه الصناعة^(١) ، إلا أنه قد وجد اليوم من برعه وبرع الناس كلهم^(٢) فى طيب المسموع ومحاسن الصناعة .

ثم أشير إلى فخارق^(٣) من حزب إسحق ، وهو طيب الصوت يعد هو وإبراهيم ابن المهسدى وابن جامع وعمر بن أبى الكنات من أحسن الناس صوتا^(٤) فغنى بصوت رخيم :

يا ربع سلمى لقد هيجت لى طربا زدت الفؤاد على علاته وصيا
فكنت أحسب أن الدنيا قد صارت أحرانا^(٥) لما ألم فى غنائه من إبراز معنى
البيت وما وراءه من توجع العاشقين ، ثم غنى :

إنى استحييتك أن أفوه بحاجتى فاذا قرأت صيفتى فتفهمنى^(٦)
وعليك عهد الله إن أخبرته أحدا وإن أظهرته بتكلم
الشعر لابن هرمة والغناء لعبادل من مغنى الجواز ، ثم غنى :

فبت فيما شئت من نعمة يمنحنيها نحرها والفم
حتى إذا الصبح بدا ضوؤه وغارت الجوزاء والمُرزم
نرجت والوطى خفى كما ينساب من مكينه الأرقم
الشعر لاسماعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل^(٧) .

(١) ذكر مثل هذا الأغنى ٤ : ٩٨ ، ٩٩

(٢) الأغنى : وابن خلكان واللاتيدى وحلبة الكيت .

(٣) ضبطه ابن خلكان ١ : ١١ بضم الميم .

(٤) الأغنى ٩ : ٣٥

(٥) الأغنى ٢ : ١٨٩

(٦) الشعر مذكور فى الحصرى ٢ : ١٨٣

(٧) الأغنى ٤ : ١٢٣

ثم غنى يحيى المكي بلحن صنعه في بيتين لمحمد بن أمية من كتاب إبراهيم
ابن المهدي (١) :

أحبك حبا لو يفيض يسيره على الناس مات الناس من شدة الحب
وأعلم أنى بعد ذلك مقصر لأنك فى أعلى المراتب من قلبى .

ثم غنى بلحن خفيف الرمل (٢) :

طرقتك زينب والمزار بعيد بنى ونحن معرسون هجود
فكأنما طرقت برىا روضة أنف تسحسح منىها وتيجود

فكان لحنه كثير العمل حلو النغم صحيح القسمة محكم الصنعة ولولا ذلك ما أظرب
الناس غناؤه وهو شيخ مسن :

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحق (٣) :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجمل
اغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ثم غنى (٤) :

أنتيك عائذا بك منك لما ضاقت الحيل
وصيرنى هوالك وبى لحنى يضرب المثل
فان سلمت لكم نفسى فما لا قيته جلال
وإن قتل الهوى رجلا فانى ذلك الرجل

(١) الأغانى ١١ : ٢٤

(٢) الأغانى ٦ : ٢١

(٣) ذكر المسعودى ٣ : ٢٩٦ غناء بهذين البيتين .

(٤) الأغانى ١٨ : ٨٣

الشعر لمحمد بن أبي محمد اليزيدي ويكنى أبا عبد الله ، والغناء له نزيل أول
بالبنصر إلى أن قال :

وقفت على ربع لسامى وعبرنى تَرَقُّقٌ في العَيْنين ثم تسيل
أسائل ربعا قد تعفّت رسوده عليه لأصناف الرياح ذيول
واللحن له هزج خفيف بالسبابة^(١) ، فطرب الرشيد وقال لو كنت حَمَّاء الوادى
ما زدت على هذا الإحسان في هزجك^(٢) .

ثم غنى حسين بن محرز باحن صنعه يحيى^(٣) المقدم ذكره في هذين البيتين :
هل هيجتك مغانى الحى والدور فاشتقت إن الغريب الدار معذور
وهل يحل بنا إذ عيشنا أنق بيض أوانس أمثال الدُمى حور
ثم غنى :

خمس دسسن إلى في لطف حُورُ العيوس نواعم زُهر
فطرقهن مع الجرى وقد نام الرقيب وحلق النسر

الشعر للأحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر^(٤) ، فأجاد لكتنه
لم تظهر له صناعة يسمونها إلى مقامات المتقدمين في الغناء ، وكذلك جميع من غنى
بعده في ذلك اليوم إلا الزبير بن دحمان فاني وجدت لغنائه موقعا حسنا في النفوس
وكننت أرى الرشيد يتمايل طربا من غنائه إذ غناه :

رضيت الهوى إذ حل بي متخيرا نديما وما غيرى له من ينادمه
أعاطيه كأس الصبر بينى وبينه يقاسمניה مرة وأقاسمه

(١) الأغاني ٦ : ١٢

(٢) الأغاني ٦ : ١٣

(٣) الأغاني ٦ : ١٩

(٤) الأغاني ١٦ : ٩٢

الشعر لبشار بن برد والغناء له هزج بالوسطى ^(١) ثم غنى :

أسرى بطارقة الخيال وما أرى شيئاً ألد من الخيال الطارق ^(٢)
أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل مذ بنتٍ قلبي كالجناح الخافق ^(٣)

الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رمل بالوسطى ثم غنى :

حييا خولة منى بالسلام درة البحر ومصباح الظلام
لا يكن وعدك برقاً خلباً كاذباً يلمع في عرض الغمام
واذكرى الوعد الذى واعدتنا ليلة النصف من الشهر الحرام

الشعر لأعشى همدان والغناء لأحمد النصيبى ولحنه من القدر الأوسط من
الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البصر وعروضه من الرمل ^(٤) فأجاد فى هذا
الصوت الإجابة التامة حتى ليس فى المنين من بقائه بالحن الثقيل .

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات فى نوباتهم فلم أستحسن منها إلا صوتاً
لعبير صمعه فى بيتين لابن الدمينية ^(٥) :

وأذكر أيام الحمى ثم أنثى على كبدى من خشية ان تصدعا
وليس عشيات الحمى برواجع عليك ولكن خل عينيك تدمعا ^(٦)

(١) الأغاني ١٧ : ٧٣

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦

(٣) الأغاني ٩ : ٥٠

(٤) الأغاني ٥ : ١٤٦

(٥) الأغاني .

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٤٠

ولمنا واحدا صنعه في شعر وضاح اليمين :

إن الوشاة إذا أتوا كتنصحوها ونهوك عن
إني تهيجني إليك حمامان على فن
فاسقى خليلك من شرا ب لم يكدره للدرن
الريح ريح سفرجل والطعم طعم سلاف دن

حتى إذا ظن في نفسه اقتدارا على الصناعة وأراد أن يعارض إسحق بالحن
الذي صنعه في شعر العباس بن الأحنف وهو :

لا جزى الله دمع عيني خيرا وجزى الله كل خير لسانى
كنت مثل الكتاب أخفاه طي فاستدلوا عليه بالعتوان

سقط في يده وقصر دون بلوغ المرام . وكان في جملة المغنين رجل أعشى يقال
له أبو زكار وهو شديد التعصب للحناء القديم وكان آخر من غنى في ذلك اليوم بدأ
بالحن صنعه في هذا البيت :

يا راكب العيس التي وفدت إلى البلد الحرام
وثنى بأخرا لبراهيم الموصلى صنعه في بيتين لعمر بن أبي ربيعة (١) وهما
قوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشففت أنفسنا مما نجد
واستبذت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن تغنى بهذه الأبيات :

با أيها القلب المطيع الهوى أنى اعتراك الطرب النازح
تذكر جملا فاذا ما نأت طار شعاعا قلبك الطامح

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ وذكر ابن خلدون في المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوغر صدره
على البرامكة . وقد أكر ذلك ١٥

هَلَّا تنَاهَيْتِ وَكُنْتِ امْرَأً يَزْجُرُكَ الْمُرْشِدُ وَالنَّاصِحُ
مَا لَكَ لَا تَتْرُكُ جَهْلَ الصَّبَا وَقَدْ عَلَاكَ الشَّحَطُ الْوَاضِحُ
وَلَحْنُهَا ثَانِي ثَقِيلٌ بِالسَّبَابَةِ فِي مَجْرَى الْوَسْطَى^(١) فَأَحْسَنُ كُلِّ الْإِحْسَانِ
فِي تَأْدِيَةِ النِّغَمِ كَأَنَّهُ لَا تَظْهَرُ صِنَاعَتُهُ إِلَّا بِغِنَاءِ مَا فِي مَعْنَاهُ زَجْرٌ وَتَذَكِيرٌ مِنَ
الْأَبْيَاتِ^(٢) .

وَمَا تَوَلَّى النَّهَارَ أَوْمًا الرَّشِيدَ إِلَى الْمَغْنِينَ بَأَنٍ يَحْلُو صَفْوَتَهُمْ ، ثُمَّ فَرَقَ فِيهِمْ
الْجَوَائِزَ بِقَدْرِ أَهْلِيَّتِهِمْ مِنَ الصَّنَاعَةِ ، فَمَنْ مَصِيبَ أَلْفِ دِينَارٍ وَمَنْ مَصِيبَ خَمْسَمِائَةٍ ،
وَمَنْ مَصِيبَ دُونَ ذَلِكَ . ثُمَّ فَرَقَ فِيمَنْ يَتَخَلَّلُ الْغِنَاءَ بِضَرْبِ الْمَعَارِزِ دُونَ مَا فَرَقَهُ
عَلَى الْمَغْنِينَ مِنَ الْمَالِ ، فَأَصَابَ الْجَوَائِزَ السَّنِيَّةَ أَرْبَعَةً مِنْهُمْ وَهُمْ مَنْصُورٌ زَلْزَلٌ^(٣)
وَكَانَ يَضْرِبُ عَلَى عَوْدٍ مِنَ الْعِيدَانِ الَّتِي صَنَعَهَا مَعَارِضُ لَعِيدَانِ الْفَرَسِ وَهِيَ عَجَبٌ
مِنَ الْعَجَبِ^(٤) ، وَكَأَنَّمَا تَزَلُّزِلُ الْمَجَالِسُ بِحَسَنِ نَغْمِهَا^(٥) ، وَبِرِصُومِ الزَّامِرِ^(٦) وَهُوَ
أَحْسَنُ النَّاسِ زَمْرًا بِنَائِي ، كَانَ إِذَا زَمَرَ فِيهِ يُحْدِثُ النِّغَمَ الَّذِي يَرِيدُهُ مَعَ صِحَّةِ
الْمُقَاطِيعِ وَالتَّقْسِيمَاتِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْطَلِقُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِلِسَانِ آدَمِي . وَجَعَفَرُ الطُّبَالِ وَهُوَ

(١) الْأَغَانِي وَلَكِنْ لَمْ يَذْكُرْ لِأَبِي زَكَارِ صِنَاعَةَ بِهَا .

(٢) إِنَّمَا نَسَبْتُ لِأَبِي زَكَارِ صِنَاعَةَ النِّغَمِ الْحَزْنَ لِأَنِّي طَالَمَا ذَكَرْتُ الْبَيْتَيْنِ اللَّذَيْنِ غَنَى بِهِمَا جَعْفَرًا قَبْلَ
أَنْ يَتَكَبَّرَ الرَّشِيدُ وَهُمَا قَوْلُهُ :

فَلَا تَبْعُدْ فَكُلُّ سَيِّئَاتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطَارِقُ أَوْ يَغَادِي
وَكُلُّ ذَخِيرَةٍ لَا بَدَّ يَوْمًا وَإِنْ كَرُمْتَ تَصِيرُ إِلَى نِفَادٍ

فَلَمْ تَمَثِّلْ لِي صِنَاعَتَهُ إِلَّا بِمَثَلِ مَا ذَكَرْتَهُ لَكَ بِلِسَانِ الرِّوَايَةِ .

(٣) ذَكَرَ صَاحِبُ الْعَقْدِ ٣ : ٢٣٩ أَنَّهُ مَغْنٍ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ وَلَكِنَّهُ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّهُ كَانَ
أَضْرَبَ النَّاسَ لِلْوَتْرِ .

(٤) الْأَغَانِي ٥ : ٢٤

(٥) ابْنُ خُلِكَانٍ ١ : ١١ .

(٦) ذَكَرَهُ الْأَغَانِي ٦ : ١٢ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٣ : ٢٥٩ وَقَالَ إِنَّهُ كَانَ مَغْنِيًا .

يحسن التوقيع على الطبل ^(١) وكان يضرب بالكوبة ^(٢) في ذلك اليوم ، ورايهم الغرييض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدف ^(٣) . ولما انصرف المغنون لم يبق في مجلس الخليفة إلا إسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة وقد طلع علينا من هواء دجلة في ذلك الوقت نسيم طابت النفوس به انتعاشا بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرها ، حتى إذا رفعت أستار الطيقان التي تطل على حدائق القصر وقعت في موضعنا شمس الغروب وهي ترسل علينا شعاعا متناثرا كالذهب يهتر في نواحي المجلس كاهتزاز الغصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر يرقص بنا سرورا بأهله وعزرة مقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلا المحفوظ في ذهني من غنائهم مجردا عن بيان طرائقهم في الأصوات وصناعاتهم في وضع النغمات ، لأنني لو أخذت في ذلك ما وعته الصحف الكثيرة الواسعة ^(٤) . وقد وقع تدوين هذه الرسالة في غرة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية .

(١) الأغاني ١٤ : ٥٤

(٢) ذكرها القناوى ٣١

(٣) الأغاني ٣ : ١٢٩

(٤) راجع كتاب الأغاني إن شئت فيها مطولا .

الرسالة السابعة في ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردتها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد في محاوره فقهاء ، وحلق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليين ، ومراوغة رواة ، ونوب مغنين^(١) . وذلك من الحظوظ التي لا يتفق مثلها لغيري من المتصلين بالملوك ، لأنني كنت أقرب الناس مكانا إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الحظوة لديه بحيث إذا جلست إلى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع إلى محاسن المنادمة من إطلاق النفس على صفاء الإخوان ، فكان يعتمد إلى مخدة^(٢) يجعلها تحت نخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول لهم بمحدثك^(٣) ، وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء . وكنت إذا انفردت بجلوسه دون أحد من المقربين إليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكلايات بالأزهار^(٤) مزينات بالؤلؤ والزبرجد^(٥) وأنقر أنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهي إلى هُدى من الليل ، فإذا أتاه من الحرم^(٦)

(١) واحدها نوبة وقد ذكرها الأغاني ٣٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون

اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب .

(٢) الأغاني ٥ : ١٢٢

(٣) الاتليدي ١١١

(٤) الأغاني ٧ : ٣٦

(٥) الأعاني ٤ : ٦٢

(٦) المسعودي ٣ : ٥٦

التفاح (١) المنقوش المطيب (٢) وغيره من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم على أن جلس الى طعامه (٣) ، وكان يحب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم لما طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيرا وصلاحا ، وينعم فيها العلم روحا واسترواحا . حتى اذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداءه حقق لهم جميل أملهم فيه ، وبسط يده لإقطاعهم الضياع العامة ، وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ، بعد أن رأى جعفر وزيره يبتاع من صحفهم ما يأمر الترجمة بتعريبه (٤) ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهباً ، لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة (٥) (أعزهم الله) وهم الذين استنهضوا همم العلماء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم ، وقد رأوا الرقوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل السلطان لا تكفيهم في تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فأروا من عمل الكاغد (٦) ذريعة إلى نشر العلم الذي عنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا إلى انتفاع الأمة به الا سلوكه ، وقد أعقبهم هذا المسلك نفرا تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأحذوثة ففسدهم الرشيد على ذلك ، وفي نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع على كنوز الحكمة ما قد رأيت في كتب السالفين إليك ، فأنفذ رسله في إحراز الأسفار القديمة ، وكتب بأشخاص الترجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم

(١) وجدت في بعض الكتب أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكهة لأنه اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر ويلد به من الحواس العين ببهجته والأنف بريحه والفم بطعمه . العقد الفريد ٣٧٥ : ٣

(١) الأغاني ١١ : ٣٥

(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠ والقنارى ٣٦

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٣٦

(٥) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه .

(٦) المقدمة ٣٦٨

من أهم النصرانية ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التي تفهمها العامة وترضى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هذه الأسفار مهروا في استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها (١) ، فرقوا من الأدب المقام الذى لم ترقه أمة قبلهم في المشرق . وهذا من الأمور التي تدل على ذكاء العرب (٢) ونبل الهمة عندهم وأنهم يبالغون الغاية التي يروونها من جميع المطالب في برهة يسيرة من الزمان ، فإننا لانجد في أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عند ما صار الأمر إلى بنى أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا الأعاجم ساطانهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند ونجاو زوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالا . وما مثلهم في سرعة هذه الفتوح إلا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلغه أهم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذى ينطق بما عندهم من الهمة والقطاة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحا (٣) أصابو الرأى بالزيادة فيه بعد البحث والتمحيص (٤) ، وذلك غير ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعلم في خلافة أبي جعفر (٥) لأنه كان يعزز جانب الحكمة ويبحث عن مكان العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتابة

(١) راجع المقدمة وكتاب حاجى خليفة .

(٢) المسعودى ١ : ٢٣٦

(٣) حاجى خليفة ٣ : ٩٢

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٦٣

(٥) السيوطى وأبو الفرج ٢٤٦

أن يدونوا الأسفار الكثيرة لإذاعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معروفا عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذى وضعه الله تعالى فى صدورهم وبضاعة مزجاة من النجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود ، فلما جاءت هذه الأيام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعيم بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التى وقعت فى صدر هذه الدولة وجهوا همهم إلى النظر فى فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم ، فكتبوا فى جميع فروعه وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة عهد بال عمران ما وجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب . ولانى أذكر أن الرشيد لما ركب إلى الرقة فى بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقا من أسفارهم^(١) ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها إلا نخبة مما فى خزائنه وقد وجدت فى قصر بناه بالقاطول ليخرج إليه للتنزه^(٢) خزانة كتب تحتوى على أكثر من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهدا على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التى دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

الطب والأطباء

كان أبو جعفر (غفر الله له) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم فىبنى لتعليمه حلقة كبيرة فوضى أمرها إلى طبيب أعجمى يقال له « فرات بن شحاتنا » وهو من تلاميذ تياذوق^(٣) الذى كان طبيبا بدار الجحاج أمير العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصارى^(٤) دون المسلمين ولست أحسب السبب فى إعراضهم عن هذا العلم إلا ظنهم كفاية ما لديهم من التجربات التى توارثوها من مشيخة الحى

(١) الأعانى ٥ : ٦٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦٦

(٣) أبو الفرج ٢٠٠

(٤) فى الأعانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين .

وعدم حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة في كسب الرزق وترفعهم عنها كغيرها أنفة .
وذلك خطأ عليهم شئنه وخسرانه ، إذ قد خاست منهم في دور الخلافة مراتب
استندت إلى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم في هذا العلم وعزّبوها كتب جالينوس
وأبقراط من حكماء اليونان وأضافوا إليها كثيرا مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم
على مقالات ارسينداس^(١) وديمقراطيس^(٢) وغيرهما من العلماء الذين يرجع إلى
كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مُظهِرَ الطب في النصرانية رجل يقال له ماسويه أبو حنا وكان أميا
لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أدواه اليونان وطالت به المراتبة والتجربة
غيه إلى أن بلغ منه المكان الذي لا يدفع ، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا
فتخرجوا عليه في علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل بن ينجيشوع فبرعوه في شفاء
الأمراض .

فأما يوحنا فإنه صار طبيبا بدار الخلافة ودون رسالة طويلة أودعها ما عرض
له من التجربة في معالجة أهل السقام ، واتخذ مجلسا أفرده للنظر في استنباط طرق
العلاج باجتماع الرأي مع غيره من الأطباء ، وكان الرشيد قد ولاه ترجمة الكتب^(٣)
التي وصلت إليه من مدونات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما
فأحسن تعريبها كل الإحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التي نال منها مشقة
عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التي عرّبت في خلافة المهدي وأبي جعفر فإنها
لم تكن جديدة بالثقة بها ولا الالتفات إليها ، إذ كانت عارية من القواعد التي
وضعها الحكماء وليست تحوى سرى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من
الأطباء ، وكانت إلى الجهل والخرافة أقرب منها إلى العلم والحقيقة ، فلم يجد التراجمة

(١) المسعودي ١ : ٩٢

(٢) حاجي خليفة ٣ : ١٢١

(٣) أبو الفرج ١٣٧

في تعريبها عناء يجهد النفس . أما الكتب التي عربها ابن ماسويه فإنها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفسه .

وأما جبريل بن بختيشوع فإنه تبحر في جميع العلوم الداخلة في علم الطب ، وكتب في حياة الحيوان رسائل^(١) تدل على سعة اطلاعه ، وكان جعفر^(٢) (أعزه الله) شديد الحب له والاحتفاظ به حرصا على ما وسع صدره من العلوم ، فقربه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذ في دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدما^(٣) من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام بالليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يشيره من هذا العلم حملهم على الإعراض عن الدجالين ، وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الحرف منهم فيزعمون أنهم يَطْبُونُ الناس بالمواعظ^(٤) ليملكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخرافة ، فوفق بعلمه إلى بلوغ الغاية التي رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتفاق بهذه الجهالة التي تमित الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية من الأطباء . كلهم من أمة النصرانية إلا عيسى أبا قريش الصيدلانى ، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشر الخيزران في خلافة أب جعفر بأنها تحمل مولودا ذكرا يصير إليه أمر الأمة ، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاما أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيبا في دار الخلافة^(٥) ، وقد سمعت من يقول ان الخيزران إنما قربته لمهارته في الحجامة لا في الطب ، فإن صحت الرواية كان

(١) حاجى خليفة ٤ : ١٢٥

(٢) أبو الفرج ٢٣٥

(٣) أبو الفرج ٢٣٨

(٤) المسعودى ٣ : ٥٨

(٥) أبو الفرج ٢٩

عندى أحق بالثقة به حجما منه بالثقة به طبييا ، إذ لست أثق من الطب إلا بما يحفظ الصحة للصحيح ، أما وسائل العلاج التي يزعمون أنها تبعد العلة عن العليل بعد تمكنها منه فما أنا من الثقة بها على شيء ، لأنى أحسبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة ، وطالما وجدت للاطباء في العلة الواحدة آراء متباينة ، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف في الأمر الواحد لا يطابق الحق فيه الا وجه واحد أما الحجة فإنها على خلاف ذلك ، والرأى فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله ، وإنى وإن كنت على بعد من الطب لا أجد بدا من الإقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركبات العقاقير التي لم يسبق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، ولا غرو فإن للطب صناعة لا تبلغ 'حاية' منها إلا على طول التجربة والاختبار في المراتة والممارسة ، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة ، وقد قال على عليه السلام (١) :

ألا لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وإرشاد أستاذ وطول زمان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الإلماع إلى ذكر النجامة وأنها من العلوم التي كانت معروفة قديما عند العرب ، غير أن الاجتهاد فيها كان محصورا في نفر قليل من أتباع الأقبال الذين تداولوا ملكهم قبل الإسلام ، فلما جاء أبو جعفر قزب إليه المنجمين وقدم عليهم فونجخت (٢) المنجم المشهور عندنا بين أعظم المجوس وفضلائهم ومن لا كبير علم وجزيل فضل ، فاتخذ في الزوراء حلقة شهدها كثير من الناس ، إلا أنه لم

(١) الكنز ١٣٩ والشبلنجى ١٠٢

(٢) ذكره القزوينى وابن الأثير وغيرهما في استشارة أبى جعفر أياه في بناء الزوراء .

يخلفه في علمه كالموصلِي المنجم ، فانه كتب في الاصطرلاب سِفْراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولاً يُعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون إليها في علم النجامة والأفلاك .

ثم نجم بعده في المسلمين على بن عيسى الأَسطرلابِي^(١) وإبراهيم الفزارى المنجم ومهرا في استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت في خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة في علم الأفلاك وهيئتها نظمها إبراهيم هذا المنجم^(٢) بجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور في الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان أذكر مما قيده في أقاليم الاسلام أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الأبواب إلى جُدَّة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٣ ميلاً^(٣) ، وعمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعمل إدريس ١٢٠٠ في ١٢٠ فرسخاً ، وعمل فاس لأبي المنتصر ٤٠٠ فرسخ في ٨٠ فرسخاً^(٤) . ثم نبغ بعدهما تيوفيل بن توما الرهاوى^(٥) وكان المقدم على جميع المنجمين في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيلليون في العصر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة^(٦) ، وأميروس هذا شاعر مجيد كان يغترف المعاني من بحار

(١) المسعودى ٣ : ٤٠٠

(٢) المسعودى ٣ : ٤٠٠

(٣) المسعودى .

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة منجماً من الروم يقال له تيوفيل الرومى وأنه كان في أيام بني أمية .

(٥) أبو الفرج ٢٢٨

(٦) المقدمة ٥٣١

التصور و يبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفا لا يسمو إلى متناوله إلا العقول النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو^(١) في كتاب بمدى يرفعه إلى أسمى مقامات العقول .

أما المنجمون في هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ما شاء الله اليهودى ، وأحمد ابن محمد النهاوندى ، ودونهما في الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى^(٢) المنجم . فأما ما شاء الله فيقال إن له حظا في علم الغيب^(٣) ، وكان في جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبي جعفر بعد نوبخت وكسبوا الإنعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة أخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الأفلاك . وأما أحمد النهاوندى فإنه في الموضع الأجل من علم الرصد ألف فيه كتابا سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جُنْدِيسَابُور ما لم يسبق إليه أحد من المنجمين ، ودون في الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتابا آخر صور فيه الدنيا كلها للرشيد بجورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبلدانها وسائر أماكنها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخا والفرسخ اثني عشر ألف ذراع والذراع اثنتين وأربعين إصبعاً ، والأصبع ست حبات وتسعين مصفوفات بعضها إلى بعض^(٣) ، وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر في معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

وقد أهدى إلى هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المستمال في السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرني أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج

(١) الأغاني ١٥ : ٨١

(٢) أبو الفرج ٢٤٨

(٣) ذكرها المسعودى ١ : ٢٧٨

إليه من المراجعة والاصلاح بسبب ما يعرض له من أمور الفلك الذى يباشر رصده فى هذا الوقت .

ولقد مضى فى كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك نقول فى هذا الباب إن الفرس برعوا فى النجامة على العرب ، لأننى رأيت هؤلاء يتجافون عنها ويعدونها هى والسحر^(١) الذى ينهى الشرع عنه علما واحدا ، بخلاف جماعتنا من الفرس فإنهم يوجهون عنايتهم إلى العلا فى مباحثهم ومناظراتهم ، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرصد وما ينبئ عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم ، وكان المقرّب لهم فى الإسلام أبو جعفر المنصور^(٢) كما ذكرت ذلك فى مواضع من الكتاب لأجل أن يطلعوه على طوارئ الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب فى بروجها وينبئوه عن جذب الأرض ويخصبها لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للولاء ، ثم قربهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الأضرلاب^(٣) فى جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال ولينظروا فى النجوم ويدركوا علم الأبعاد ويوقعوا زمن الكسوف^(٤) وعقدوا لهم مجلسا يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من الأفلاك التى تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا إلى من له علم بالنجامة

(١) القناوى ٥١

(٢) السيوطى .

(٣) ذكر صاحب الأغاني والاتليدى أن جعفرا استشار الأضرلاب يوم نكبه الرشيد .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٧٨٥ و ٢٤ المقدمة .

أن يعرب كتاب المجسطى لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الخلق (١) فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركوا في هذا العلم إلا بما يلتمسون من معرفة الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذي يسمونه بعلم الأزياج (٢) .

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذي هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب فيه في صدر الإسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير أن يدونوه في الصحف ، فلما أسرع الموت في العلماء وكانوا كلهم شيوخا فزِع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا يدونون (٣) الحديث مثل ما وجدوه في الناس محفوظا بطريق الإسناد ، ولكن من غير أن ينظروا في الرواية النظر الجلي ولا أن يعتمدوا في النقد الأصل المرعى . فكتب ابن جريج بمكة (٤) ومالك بن أنس بالمدينة ، ومعمّر باليمن ، وسفيان الثوري بالكوفة ، وهشيم بن بشير (٥) بالعراق ، والأوزاعي ببغروت (٦) من ساحل الشام ، وحامد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبي عروبة بالبصرة ، وذلك كله في خلافة أبي جعفر (٧) رحمه الله . وكان

(١) وقال إن المأمون أول من اتخذها في الإسلام وإنها كانت معروفة عند اليونان كما يستدل على

ذلك من العقد الفريد .

(٢) المقدمة ٤٢٧ وحاجي خليفة ٣ : ٥٦

(٣) الزرقاني ٥١ : ١٠

(٤) الزرقاني ١ : ١٠

(٥) ابن خلكان ١ : ٥٢ والاغاني ٥ : ٥٤

(٦) حاجي خليفة ٣ : ٢٨ وذكر ابن الأثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧

(٧) السيوطي

أصحهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن أنس وهو رأس المحدثين^(١)، رأيته إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقلت له في ذلك ، فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجلاً ، ويقول أحب أن أتفهم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطعون على حكمة الفرس واليونان وما في أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة في وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ، ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أول من أخذ في ذلك فقيه الإسلام أبو يوسف ، وكان من علية أهل الحديث وهو الذي أخذ الناقلين بأغلاطهم^(٢) ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب الهجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب^(٣) ، ثم أخذ أخذه العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو إسحق الفزارى وعبد الله ابن المبارك وهما أشهر الأئمة لأيماننا هذه ، والرشيد لا يسمع الحديث إلا عنهما . ولا يلتمس الرد على الزنادقة إلا متهما فكان إذا أخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضر بهم الحدود أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به ؟ فيقول لهم وأين أتم يا أعداء الله من أبي إسحق وابن المبارك يتخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً^(٤) .

(١) ابن حنكان ١ : ٦٢٦

(٢) ابن خلكان ٢٧٦

(٣) العقد الفريد ١ : ١٩٩ و ٢١٣

(٤) السيوطي .

ولقد أخبرني هذان الإمامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكران فيها مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن ويزعمون أنه يحوى غير العرب الفصيح من الكلام ، وهذان المذهبان ^(١) فاشيان اليوم بين الناس ، والأول منهما أشد خطرا على الإسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجّة واهى الدّعاة بما يعلم عن العرب أنهم خالطوا الأمم في تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظا استعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربى الفصيح ، فما ورد في القرآن من الألفاظ الأعجمية إنما دخل في العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق ^(٢) بحيث إنه لا يكاد يرى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد في شعر البغاء من الجاهليين ، وفي هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفتريين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قاطعة لافتراءهم على الله مخدعة لنار الفتنة التي كمنت طي مذهبهم ، وهذا من الأمور التي ينبغى أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر ، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ، ويكون آخر أمرها بوارا على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتئوا البلدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوة الإسلام .

ولقد عثرت في مدونات الفقه على كتب جلييلة أجهلها كتاب لأبي حنيفة في الكلام ^(٣) اسمه الفقه الأكبر ، وله في هذا العلم الشأوالذى لا يدرك ، وكتاب لمالك بن أنس سماه الموطأ ، وذهب في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرده عن مذهب أبي حنيفة ، وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه في صدره ^(٤) تفضيلا له على غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضا

(١) الدمبرى ١ : ٩٨ والكشكول والإتقان ١ : ٦٨ وابن الأثير واللاتلدى ٢٤١ وغيرهم .

(٢) الإتقان في تفسير القرآن ١ : ١٤٩

(٣) حاجى خليفة ٤ : ٥٧

(٤) الزرقاوى ١ : ٩

على كثير مما دونه العلماء فيما يُستقى عن الفقه من علوم الأحكام ، منها لأب حنيفة وأبي يوسف رحمهما الله ، ومنها لابن شبرمة وابن أبي ليلى^(١) ، وقد أفردا نظرهما في علم الفرائض . ومنها كتاب لفتى . قال له يحيى بن أكثم جمع فيه ما استحسن من آراء أصحاب المذاهب ، وهو الكتاب الذي أصبوا إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية ، لأن وجدت قبل صاحبه من قوة الفطنة^(٢) وصدق الحدس ما يؤكد لي أنه إن مد له في العمر سيظهر الفقهاء .

أما الكتب التي وقفت عليها في علوم الحديث فإنها أكثر من أن يأخذها الإحصاء^(٣) ، غير أن الإفادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء وبقى أن جملة ما في غير كتبهم مراجعة وإعادة لما سبقوا إلى تدوينه ، فكان أنفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر في غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر في نقل ما سبقهم إليه العلماء .

في تدوين اللغة

أما اللغة فإن العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية في الإصلاح وتدقيق النظر ، لأنه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلم اضطرابا إلى تفسير القرآن ، إذ كانت الكتابة مجهولة عندهم في صدر الإسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانا^(٤) وكانت ألسنة العرب نصفها محفوظ في صدور الرجال ، وكثيرها ضائع بين الرمال ، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقا من لغاتهم ، وقيدوها في الصحف بطريق الرواية والإسناد .

(١) حاجي خليفة ٤ : ٣٩٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٩٢

(٣) كتاب حاجي خليفة .

(٤) العقد الفريد ٢ : ٢٠٦

وكانت حروف الكتابة في أول الأمر موضوعة بغير علامات ^(١) وظل الناس يقرءون في مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحووا من أربعين سنة حتى كثرت التصحييف لوجود الحروف المتشابهة . ^(٢) وما أستغرب أن يقرأ بعض الناس وما ييحد بأياتنا إلا كل جبار والأصل ختار، وعذابي أصيب به من أساء والأصل اشاء، وهم أحسن أثاثا وزيا والأصل ورثيا، والذين كفروا في غيرة وشقاق والأصل في عزة إلى غير ذلك ، فوكل عبد الملك بن مروان إلى النضر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفرادا وأزواجا فتميز بعضها عن بعض ونجى التصحييف في القراءة .

وضبط اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم .

وأول من دون اللغة مجموعة في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذي قدمت لك في الكلام على البصرة ذكره ، وقد ضمن كتابه ^(٣) أصول اللسان العربي وقيد ألفاظه في مواضعها في الاشتقاق إلا ما كان دخيلا عليه من كلام الأعاجم فإنه اكتفى من ذكره بالإشارة إلى عجميته ، وأسند روايته في ذلك كله إلى أكابر الحفاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدب الأمين والمأمون ^(٤) من أولاد الرشيد ، ومنهم سيبويه ^(٥) والقراء والأخفش وعلمهم النحو فقط إلا القراء فإنه كثير الفضل على

(١) حاجي خليفة ٣ : ١٥٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٧

(٣) هو أول معجم كتب في اللغة العربية .

(٤) المسعودي ٢ : ٢١٣ والأبشهي ٣ : ١٣

(٥) وقت أبو الفداء ٣ : ١٦ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال إنه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائي البحث المشهور في قولهم « كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور » قال سيبويه فإذا هي وقال الكسائي فإذا هي إياها فانتصر الخليفة للكسائي فحمل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر إلى شيراز وتوفي هناك .

العربية بضبطها وتخليصها^(١) ، وقد بلغتني جلالته في العلم ولكن لم يجعني وإياه مجلس إلى هذا اليوم^(٢) ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى البصرى وقد وقع إلى كتاب له في فقه اللغة لتعليم الرشيد^(٣) قبل تشرفي بتأديبه ، وقد أودعه كلام العرب وقيود لغتهم وذكر المترادفات التي وردت لهم في جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيراً إلى صحة استعمالها في مواضعها من الكتابة ، وأتى على متابعة الألفاظ التي تصف الأشياء على ازدياد في معناها أو نقص يبعدها عن الكناية .

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربى^(٤) ، لأنى قد وجدت مباينة بين كلام العرب واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غير اللغة عند أولئك ، فأما إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوى هو الحافظ لمحاسن اللغة التي كان ينطق بها البلغاء والشعراء ، ويكون القسم الحضري قطعة من كلام العرب يخالطها كلام السوق^(٥) وألفاظ المعريين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان مما لا نجد له مسمى في لسان العرب ، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التي نجد أسماءها في كتب الأعاجم ، كما أن في لغات الأمصار إضراباً عن سمية الأشياء التي لا توجد إلا في بادية العرب . ثم إنى وجدت عند أهل اللغة قصورا تسامحوا فيه وتغاضوا عنه ، وذلك أنهم عند ما يصرفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن يشيروا إلى ما كانت

(١) ابن خلكان ٣ : ٣٣٨

(٢) ذكر أبو العدا أنه ولد في أيام يزيد بن عبد الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

(٤) يظهر هذا مما نقله الأصمعي وغيره من كلام العرب .

(٥) ذكر الأغاني كلام السوق في زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ في غير موضع أما ابن خلدون فيقول في المقدمة ١٥ أما ملكة اللسان فكانت محفوظة في الأمصار إلى عهد الزخشري وأمثاله من فرسان الكلام .

تختلف فيه لغة قوم عن آخرين ، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تسميه بها عرب كذا وكذا ، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثل ذلك مع إغفالهم ما نحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد في تصريف الأسماء إلى ما يشتق منها من المعاني مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جالس وطفرة وذلك من الأضداد التي لا أظن أنها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب ، فإن الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير ، وبمعنى الطفر في لغة قريش ^(١) . إلى غير ذلك ^(٢)

الشعر في البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه في صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلا وهو يقدر على قول الشعر طبعاً ركب فيهم قل القول أو كثر ^(٣) ، وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلا المفاخرة بين الأقران كما سمعت الأصمعي يقول « الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنتجج به الحوائج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجده في شعراء هذا الزمان فإنهم يغصبون أنفسهم على الإنشاد بما يستميحون الملوك من الأرفاد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال

(١) في القاموس الوثوب الطفر والقعود بلغة حمير .

(٢) قيد العلماء في كتب اللغة كثيراً من الأفعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له نقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فربما عروا عن الشيء ونقيضه من هذه الأسماء والأفعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلاً لا ينحدر منه الرجل إلا أن يكون قد صعد إليه ثم لا يعقب الصعود إلا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب إلا بعد أن يكون حاضراً كما أنه لا يحضر إلا بعد أن يغيب وهذه هي الألفاظ التي يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة وإنها لكثيرة في كلام العرب .

(٣) الأغاني ٢٠ : ٥١

الاعراب . وامتزجت بهم الأعراب وتجاؤا عن سكنى البادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للناشدة كدأبهم في سوق مجنّة وسوق عكاظ وسوق ذي المجاز (١) فقدوا كثيرا من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلفوا طبيعتهم شيئا لا يقدرّون عليه فيقولون البيت ويحك كونه أياما (٢) .

ولما سهّل على المتقدّمين الإجابة في هذا الفن أنّ شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين نحر ونسيب ومدح وهجاء من غير أن يكون نابغة فيما سواه ثم إن كلام العرب (٣) كان سائرا في أيامهم على الألسنة فلم يعانوا إلى البلاغة تكلفا (٤) فيما قصدوا من المذاهب التي كانوا ينفردون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بها موصوفين ، كاسترسال امرئ القيس في ملاذ الشباب بحيث أتى في نعت محاسن النساء بما ليس لقول غيره موقع مثله من القلوب ، وإن هو إلا أرق المتغزلين حيث يقول :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
أغرّك مني أنّ حبك قاتلي وأنك مهما تأمرى القلب يفعل ؟
وبكّد عنتر بن شدّاد في الفروسية إذ أتى في الحماسة (٥) بما لم يأت به أحد مثله كقوله :

لو سابقتنى المنايا وهى طالبة قبض النفوس أتانى قبلها سبق

(١) هي الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف في موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك في أول يوم من ذي القعدة الذي هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهوّل للحج ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوّقون إلى حضور الحج ثم يحجون .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٥

(٣) الأغاني ٥ : ٢٥٢

(٤) الأغاني ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧

(٥) الأغاني ٣ : ١٨٨

وكفّتح حاتم الطائي يده في سعة العطاء بحيث إنه يتهلل بذكر الساحة
والمكرات في جميع شعره، ويقول (١) :

أماوتى إنّ المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوتى إن يصبح صدای بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا نحر
ترى أنّ ما أنفقت لم يك ضائرى وأنّ يدى مما بخلت به صفر

وكانتفاع السمو ل بن عادياء في درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه أتى من
ذكر الرفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسنى طبقات الشعر وهو الذى يقول :

إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
تعيّرنا أنا قليل عديدا فقلت لها إنّ الكرام قليل
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طلّ يوما حيث كان قتيل

وكانقطاع أمية بن أبى الصلت إلى العبادة بحيث إنه أتى في ذكر أحوال
الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر (٢) وإن قوله :

يوشك من فرّ من منيته في بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرما للوت كأس والمرء ذائقها
لأحكم ما قالته العرب في وصف الموت (٣) إلى غير ذلك مما لا يتسع له المجال
فنقف منه عند هذا الحد .

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المعلقات السبع وهى أصدق شاهد على فضل
المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التى تدل على أنفة
النفس وعلا الهمة على غير تكلف البلاغة ، بما نعلم من إنشادهم إياها ارتجالا بين

(١) الأغاني ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨

(٢) الأغاني ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

العشائر فإن الحارث بن حازمة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها (١) ، فيظهر من ذلك أنه كان لهم في الشعر شأن ضاع عن المحدثين سره لانقلابه فيهم من الطبيعة إلى الصناعة ، لأن العرب كانوا شعراء جميعا وكلهم يرتجز في حرب أو استجداء أو مفاخرة (٢) ، وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حتى إذا أنشدوه قول طرفة من أصحاب المعلقات :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قال هذا من كلام النبوة (٣) ، ثم إن النساء كن يقن الشعر أيضا في أيامهم حتى إن بعضهن قد فضّلت كثيرا من الرجال مثل ليلى والخنساء وكلتاها شاعرة فصيحة ، ولقد وجدت من كلام ليلى في وصف الشجاعة ضروبا من الإبداع كقولها (٤) :

مهفوف الكشح والسربال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس مُسَاه ومُصْبِحه في كل فج وإن لم يغز يُنتظر
ووجدت في تأبين الخنساء لصخر توجهما كثيرا بالبكاء عليه حيث تقول :
يذكرني طلوع الشمس صحرا وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أنحى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي
وتقول في رثائه وهي تصف محاسنه :

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
وتقول وهو أخفر بيت قالت له العرب :
وإن صحرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

(١) أبو عبيدة والأغاني ٩ : ١٧٨

(٢) الأغاني ١٨ : ٦٤

(٣) العقد الفريد ٣ : ١٢٢

(٤) الأغاني ١١ : ١٧

ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير^(١) يرفعها إلى مساماة البلغاء من الرجال .
وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة ، وهم
يصفون الركبان والطيف ويذكرون ربوع الأحباب وتعفيه الرياح رسومها ومخاطبتهم
إياها فيما مضى لهم من عهود الأُنس ويصفون ألم الفراق ووحشة الديار وما يخالج
قلوبهم من الصباية في وقوفهم بالعيس على أطلال الديار^(٢) إلى أن يتخلصوا
من هذا الاستهلال إلى ما يرون إنشاده فيما يأخذون به من المذاهب ، ولكن
على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء ، إلا الذين يتوسطون
بالبلاغة في مطلعهم فيستمررون إلى آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلنون علوا
حسننا ثم لا يزالون صاعدين في بلاغة تعجز الفصحاء ، ولكنهم نقر قليل مثل
أمرئ القيس وزهير بن أبي سلمى والباينة الذبياني وهم المقدمون على جميع
الشعراء ، ووضعهم من البلاغة واحد^(٣) ، إلا أنه غلب على ذى القروح
التجمل بالمعاني وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة ، وعلى زهير
العناية بتقويم الألفاظ . وقد سمعت الأصمعي يقول وقد سئل من أشعر
العرب ، الذين شَرَّقَ شعرهم وغَرَّبَ ؟ فقال «زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب

(١) الأغاني ٦ : ٨٣ و ٩ : ١٦٣ و ١٤ : ١١٦ والعقد ٣ : ٢٣ وديوان الحماسة

والأتلیدی ٢٥

(٢) إنما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمع والآثار فبكى وشكا وخاطب الربيع واستوقف الرفيق
ليجعل من ذلك سببا لذكر أهله الظاعنين من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلال وتبعهم مساقط الغيث حيث
كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجد وألم الصباية والشوق لتبيل نحوه القلوب وتنصرف إليه الوجوه
ويستدعي إصغاء الأسماع فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له شكوا السمر والتعب وسرى الليل وقرر
ما لقي من المكارة في المسير ثم بدأ في المدح فبعث في مدوحه الميل إلى المكافأة وفضله على الأشياء وصغرها
في جنب قدره الجزيل وهزله إلى الفعل الجميل ، الحصري ٣ : ٢٧٤

(٣) الأغاني وتكتاب الموازنة .

وامرؤ القيس إذا طرب . وعنترة إذا ركب . والاعشى إذا شرب^(١) ، وإن يكن
في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسرا لا يؤمن معه الزلل ما أنا براء في أبياتهم
ما يسمو إلى كلام النابغة في الفخر حيث يقول^(٢) :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع السكائب

ولا إلى براعة زهير في المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله^(٣) :

وإن يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

ولا إلى جمال الوصف الذي نظمهم امرؤ القيس في معلقته نظم اللائح في شذور
الذهب فقد لا تحضر البلغاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامه الذي
ذهب مذهب المعجزات ، فإن العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهي معلقة
في الكعبة إلى أن ظهر الإسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى
على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دون طبقة هؤلاء من الجاهليين فإن لهم من محاسن الشعر موزعا
لا يتعدونه إلى التصرف في المذاهب الواسعة كانوا أفراد أبي داود بوصف الخيل ،
وعلقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حجر بوصف النجر إلى غير ذلك^(٤) ، وليس
فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدي^(٥) ، فإن لا
أبياتا حسنا ذكر منها هذا البيت الذي هو أشجع بيت قالته العرب :

قالوا الطعان فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإننا معشر نزل

(١) الأغاني .

(٢) خزانة الأدب ٥١١ والأغاني ٩ : ١٥٨

(٣) الأغاني .

(٤) الأغاني ١٥ : ٩٥ و ٩٦

(٥) الأغاني ٩ : ١٤٠

والكنى وجدته إذا تعالى في شعره كثيرا لم يؤمن وقوعه في الانحطاط (١) ،
وربما أتى من الألفاظ بالغريب الذي يبعد عن الأذهان ، وهذا شيء يصح أن
نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجا إلى
السلامة من العيب إذ يجوزون للمتقدمين ما لا يجوزونه للتأخرين .

الشعر في الحضارة

ولقد وجدت في شعر الإسلاميين المتقدمين علواً كادوا يساهون فيه أهل
الجاهلية ، ولذلك يصح أن نعترف لهم بحسن البلاغة مثل الأحوص وذى الرمة
وحسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والقطامي وجرير والفرزدق والأخطل وجميل
وكثير وكثير غيرهم ، فإن لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجد
إلا في شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين
إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة في كلام حسان بن ثابت حيث يقول :

لنا الحففات الغريلمعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
وكالاستئثار بالفخر في شعر الفرزدق الذي يقول فيه (٢) :

ترى الناس إن سرنا يسرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وكالتوجع في الرثاء في قصيدة الهدلى التي يجزع فيها على فقد أولاده لإطفالا
صغيرا بقي له ومن جماتها البيت المشهور (٣) :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قلبه ل تقنع

وكالتشبيب في شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبي ربيعة (٤) بحيث إن لهم
في ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارة مع عذوبة الألفاظ وجودة السبك
ما لا يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

(١) الموازنة والأغاني .

(٢) العقد والأغاني والكشكول .

(٣) العقد والأغاني .

(٤) صاحب الأغاني يفضل على شعراء زمانه وربما فضله في النسيب على شعراء الجاهلية .

ثم إن الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المجيدين ويفقد كثيرا من البلاغة التي كانت في لسان الجاهليين لإبراز المعاني في فصيح الكلام إلا أنه لا ينحط عنه في الأوصاف البارعة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه ، فلقد نجد لبعض المحذنين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم في طبقات المتقدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذي كان للجاهليين ، والعذر لهم في ذلك أن شاعر البادية إنما كان يلتمس الفصيح من الألفاظ ليسمو كلامه على كلام غيره من الشعراء ، واللغات إذ ذاك كثيرة في عشائريهم ، أما اليوم فإن اللسان الذي نزل به القرآن معروف لدى كل إنسان فلا يضطر الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في الأمصار كافة . وإنما وجب عليه أن يتدع المعاني التي لم يسبق إليها غيره دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام ^(١) ، لأن الألفاظ السوقية لا تمنع ^(٢) أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر في الإسلام ^(٣) إلى طبقات ثلاث أقربها إلى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الإسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر إذ ذاك في ثلاثة من تميم ^(٤) وهم جرير والفرزدق وهو من نَبَغَة ^(٥) الشعراء والأخطل النصرائي وهو المجيد في مدح الملوك ^(٦) ووصف النجر ، وكان المقدم عليهم جرير وقد فعّل الشعراء ^(٧) بقوله في المديح :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(١) ذكر الأغاني ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الألفاظ (وذلك في زمن الرشيد) .

(٢) الأغاني ٣ : ١٣٣ و ١٧٣

(٣) أي في المنتصرين من الشعراء دون أهل البادية .

(٤) الأغاني ١٩ : ٦

(٥) الأغاني ٩ : ١٤٧

(٦) الأغاني ٩ : ١٤٧

(٧) الأغاني ١٠ : ٢ وفي غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ٤٣ والدند القريدي

وقوله في النسيب^(١) .

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حُورٌ قَتَلْنَاهَا ثُمَّ لَمْ يَحْيَيْنَا قَتْلَانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبْحِ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهْنٌ أَوْضَعَفَ خَلْقَ اللَّهِ إِنْسَانَا

وهذا من الكلام الذي تنتهي إليه رقة أهل الصبابة ، ولم نجد من بعده
مثله إلا في شعر جميل وكثير وقد استرسلنا في وصف حياة الشباب وانقطاعا إلى
النسيب^(٢) من مذاهب الشعر ، يقول كثير^(٣) :

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ
ويقول جميل :

وَمَا زِلْتُمْ يَا بُنْتُ حَتَّى لَوْ أَنَّنِي مِنْ الشُّوقِ أُسْتَبِكِي الْحَمَامُ بِكِي لِيَا
وَمَا أَحْدَثَ النَّأْيُ الْمَفْرِقَ بَيْنَنَا سُلُوءًا وَلَا طَوْلُ اللَّيَالِي تَقَالِيَا
عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلَصَ مِنْهُ لَا عَلَى وَلَا لِيَا
ومن كلامه^(٤) :

خَلِيلِيَّ فِيمَا عَشْتَا هَلْ رَأَيْتَا قَتِيلَا بِكِي مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي ؟
وأول الأبيات قوله :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَاشُونَ أَنْ صَرَمْتَ حَبْلِي بِثِيْنَةٍ أَوْ أَبَدْتَ لَنَا جَانِبَ الْبَخْلِ
يَقُولُونَ مَهْلًا يَا جَمِيلَ وَإِنِّي لَا قَسَمَ مَا بِي عَنْ بِثِيْنَةٍ مِنْ مَهْلٍ
والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه في النسيب إلا قول الأحوص^(٥) :

إِذَا قُلْتُ إِنِّي مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا فَحُمِّ التَّلَاقِ بَيْنَنَا زَادَنِي سَقَمًا

(١) الموازنة ٤

(٢) الأغاني ٤ : ٥٨ والكشكول والعقد الفريد ٣ : ١٧٢

(٣) الأغاني وتزيين الأسواق وابن خلكان والمستطرف

(٤) الأغاني والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ١٦٣

(٥) الأغاني ٤ : ٥٧

وأما الطبقة الثانية فإنها عصر أبي جعفر (رحمه الله) وشعراؤه من تقدم لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هي زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثر من أن يأخذهم الإحصاء ولكني لا أرى فيهم إلا أبا العتاهية وأبا نواس ومسلم بن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فإنه انقطع في شعره إلى ذكر أحوال الآخرة^(١) وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعاني الجليلة ما أبرزه في أحسن صورة . من ذلك قوله « روائح الجنة في الشباب » وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان^(٢) ، والناس يقولون إنه نخرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكني لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن يتناول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام في هذا العلم الذي وضعه ولا سيما في بحر المتدارك ، فإن من العروضيين من زاد فيه على ما ذكر^(٣) ، وقد كان أبو العتاهية من الخطوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه في حضر ولا في سفر^(٤) ، ثم آل أمره إلى الزهد^(٥) فليس الصوف وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول^(٦) :

كأنّ كل نعيم أنت ذاتقه من لذة العيش يحكي لمعة الال

(١) الأغاني ١١ : ٣٢

(٢) الأغاني ٣ : ١٤٣

(٣) المسعودي ٣ : ٢٦٥

(٤) الأغاني ١١ : ٣٢

(٥) الأغاني ١١ : ٣٢

(٦) الأغاني ٣ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ماهو فيه من زخارف الملك يبادره بالتذكير
والموعظة ^(١) فيبكي الرشيد من ذلك فيهم الجلّاس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد
دعوه إنه يرانا في عمى فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نواس فإن مذهبه في الشعر مضاد لمذهب أبي العتاهية وأكثر ما يتضمن
شعره الغزل والزهو وذكر المنادمة والخمر تبعاً لما نعرف له من ممارسة الملوك ^(٢)
فهو يذكر إبليس والخمر في شعره كما يذكر أبو العتاهية الآخرة والجنة .
ومن استعاراته الفائقة قوله :

بَسَمَ الصَّبَاحُ لَأَعْيَنَ النَّدَمَاءَ وَالتَّسَقَّ جَيْبُ غَلَالَةِ الظَّالِمَاءِ

وله في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المناديات عليها
والاصطباح والاعتباق ^(٣) ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حفظ منه ، وهذا
ما يدل على اقتداره في الشعر وإن كان مذهبه غير محمود عند أهل الصلاح ، وهو
عندى شاعر الشعراء حقيقة ^(٤) ، وإنى أفضّل شعره على شعر أبي العتاهية لأن
قصائده كلها سالمة من العيب ^(٥) ؛ أما أبو العتاهية فإنه وإن كانت له استخراجات
لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد ^(٦) ، وقد

(١) ان الأثير ٦ : ٧٩ والفخرى ٢٣٠ والرطوشى ١٧ والكشكول .

(٢) الاتليدى وحلبة الكهيت وتزين الأسواق .

(٣) المسعودى ٣ : ٤٢٢

(٤) ذكر صاحب العقد الفريد في باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس

على الشعر وأطعمهم فيه .

(٥) القيروانى وابن حلكان .

(٦) الأغانى ٣ : ١٨٠

ذكر لى ورّاق فى درب القراطيس ^(١) كنت آلف حانوته أنه مر به أبو العتاهية
يوما وعنده ديوان لأبى نواس فوق نظره على هذا البيت ^(٢) :

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فسألنى لمن البيت فقلت لأبى نواس فقال والله إى أحب أن يكون لى هذا
البيت بنصف شعرى ^(٣) ، وأظن أنه لو وقف على قوله :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ^(٤)

أو قوله وهو أمدح بيت للحدثين :

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بحدود كفك تأسو كل ما جرحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت إسماعيل بن نوبخت فى مجالس البرامكة
وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول إن الأصمعى
أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف أن يقال فيه من
أبى نواس ، لأنى ما رأيت فى أهل الأدب من هو أوسع علما فى كل شىء منه
وليس له فى الشعراء من مبار ، يعلى له بغبار . وكفى فى تحقيق فضله عليهم أن كلامه
كله موزون ^(٥) فإن الشعر رنخت فى صدره ملكته وصار فى نفسه طبيعة ترفعه على
جميع الشعراء . وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني فإنه أرق الشعراء غزلا

(١) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

(٢) ذكر صاحب العقد الفرید هذا البيت فى الأمثال السائرة وأبدل بالشطر الثانى قوله « حتى يرى
منها لها واعظ »

(٣) الطرطوشى ١٠

(٤) الأغانى واليتمية ١٠٢ وخزانة الأدب ٥٠٠

(٥) ابن خلكان .

وألطفهم صنعا وأكثرهم من المعاني حظا ^(١) إلا أن ميله مع أهل البيت وقوله الشعر في مديحهم هو الذى جعله مقصيا عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل في نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره ، وقد أبدع مصاغه ورصعه بدرر البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إيه يا مسلم أنت القائل :

أنس الهوى بنى على في الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس
فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحا عله يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامته
من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذى أقول :

أنس الهوى بنى العمومة في الحشا مستوحشا من سائر الإيناس
وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس
فعجب الرشيد من سرعة بديهته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين
فإنه من أشعر الناس ^(٢) وامتحنه فسترى منه عجا فارق له الرشيد وفي نفسه من
الميل إلى الأدب ما قد علمت ، ثم قال له أنشدنا أشعر بيت لك ، فقال يا أمير
المؤمنين أفرخ روعي أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك فإنى لم أدخل على

(١) ذكره ابن الأثير ٦ : ٥٢ بعض أبيات في عرض التاريخ وقال إنها حسنة جدا وذكر الحصرى
أيضا جملة أبيات وقال إن الطائي كان يعول عليه وعلى أبي نواس وإن مسلما أول من لطف البديع . وكسا
المعاني حلال اللفظ الرفيع

(٢) كان مسلم بن الوليد من أشعر الناس ولكنى لم أره ترجمة في الأعاني ولا في ابن خلدون
رما نقلته هنا مأخوذا من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠

خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع في الإنشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له
التي تقول فيها « الوحل » فإنني رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذي أوله :
أديرا على الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلى ذحلى^(١)
حتى إذا انتهى إلى قوله :

إذا ما علت منا ذؤابة شاربٍ تَمَشَّت بنا مشى المقيدِ في الوحل
ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى في الوحل ؟ ثم
أمر له بجائزة وخلي سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشهر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان الثلاثة
المقدم ذكرهم في الفصل السابق يزنيون زمن الجاهلية ولقد لقيت في بغداد كثيرا
غيرهم من الشعراء مثل العمانى وأبى مصعب وأبى الشيص وأبى عبد الرحمن
العطوى وغيرهم ، واتصلت بى أخبار جماعة ممن يتصرفون في فنون الشعر
ويتدعون القول الذى لم يشركهم فيه غيرهم إلى أن ينظموا القصائد التى ليس
في أبياتها حرف معجم . إلا أنهم قد كانوا في أيام أبى نواس ومسلم بن الوليد
فضاع بينهما فضلهم ولم يكن لهم ذكر في مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى فى بعض كتبه السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى بصحة ذوق
العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم أربعة نفر^(٢) ابن
سريج وابن محرز وهما مكيان ومالك ومعبد وهما مديان ، إذ كان أصل الغناء

(١) فى المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات أخر من هذه القصيدة .

(٢) الأغاني ١ : ٩٨

ومعدنه في امهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا وهي المدينة والطائف وخيبر
ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه البلاد مجامع أسواق العرب (١) ،
وكانت النساء ينساركنهم في صناعة الأصوات ، وقد نبغ فيهن عزة الميلاء في الغناء
الموقع إلى أن صارت أحسن الناس ضربا بهود (٢) ، وكان لها أستاذة يقال لها
رائقة فاحتذت فيها في تنسيق الأنغام ، ثم قدم الحجاز سائب ونشيط وغنيا بالفارسية
فأخذت عزة عنهما نغما وألفت عليها ألحانا كثيرة لينة كما نجد في غناء النساء (٣) ،
ثم ظهر طويس المغنى فصنع الرمل والمزج (٤) وأول ما غنى به على الحن صمنعه
قوله (٥) :

قد برانى الشوف حتى كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسي (٦) وشهره بين الناس ، وكان
ابن سريش يضرب بالعود على غنائنا إلى أن ظهر معبد في المدينة المنورة على ساكنها
أفضل الصلاة وأزكى النحية فصنع من الأصوات البديعة ما فضل فيه غيره من
أهل زمانه المعاصرين له .

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذا عن الأذان (٧) ، فلما
تقلوه عن قومنا واستمابوا بكآب لبطليموس في اللحن الثمانية (٨) عزّ به في خلافة

(١) العقد الجديد ٣ : ٢٤٧

(٢) الأغاني ١٦ : ١٣

(٣) الأغاني ٥ : ٥٧

(٤) الأغاني ٤ : ٣٨

(٥) الأغاني ٤ : ٣٧

(٦) المستطرف ٣ : ١٨٨ والعقد الجديد ٣ : ٢٣٧

(٧) ابن حلكان ١ : ٥٧١

(٨) الأغاني ٨٩٥

أبي جعفر (١) أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم في الغناء ونبغوا فيه النبغة التي ما كنت أحسبهم يصلون إليها في زمن من الأزمان ، وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران : الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتن فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقل (٢) ، وابن سريج بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج (٣) وأحمد النصيبى بالانصباب (٤) وفليح بن أبي العوراء بلحن النواقيس ، والموصلي باللحن الماخورى ، أما خفيف الرمل فإنهم يشتركون فيه جميعا بحيث لم أجد مغنيا إذا تغنى لنفسه يكاد يغنى إلا خفيف الرمل (٥) ، والثانى ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومن الأمراء وأهل النعمة أجرة واسعة على غنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يخرج بدر الدنانير لإجازة المحسنين (٦) منهم ولقد سئل حنين المغنى وقد دعى إلى مأدبة لا يعهد فى صاحبها الساحة ، لم لا ترضى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفتلومونى أن أغلى بها الثمن ؟

ثم ظهر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبوبون للعلم ومقربون إليهم أهل الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين إبراهيم الموصلي وابنه إسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو اسحق اللحن الماخورى الذى لم يشركه فيه أحد من المغنين ، وكان يظن لصعوبة المأخذ فى ابتداعه أن إبليس هو الذى ألقاه عليه

(١) ابن نباتة .

(٢) الأغاني ٦ : ٦٦

(٣) الأغاني ٥ : ١٤١ و ٦ : ١٣

(٤) الأغاني ٥ : ١٦١

(٥) الأغاني ٧ : ٣٦

(٦) الأغاني ١٤ : ٥٥

فى المنام ، فلقـد طالمـا تهوـس بالغناء وأمعن فى تنسيق الألحان على أتم إبداع
وأحسنه موقعا فى النفوس حتى توهم أن الأرواح هى التى كانت تظهره له وتعلمه
الأصوات التى يعجز عنها غيره من الإنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على
موضعه الجليل من الغناء :

ما لإبراهيم فى العلم بهذا الشأن ثانى
إنما عمر أبى إسحق زين للزمان
جنة الدنيا أبو إسحق فى كل مكان
منه يحيى ثمر اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجابة ابنه إسحق وقد وضع ألحانا لا يقدر شعبان ممتلئ ولا سقاء
يحمل قربة على الترم بها ، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا بعد
مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم^(١) ، لأنه سما فى اقتداره على الغناء إلى أن يجعل
فى نفس السامع تحركا لما يغنى بمعه من الأشعار ، فيحملها على الكبر فى معرض
المدح ، وعلى الحماسة والإعجاب فى مجال الفخر ، وعلى الرقة والصبابة فى استرسال
الهوى ، وعلى البكاء والغصة فى موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلا عن إجادته
فى ضرب العود ، ولقد كنت يوما بدار الرشيد وفى مجلسه عشر جوار يضربون على
العيدان فوق خال فى مجرى أصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين وترا^(٢)
تتحرك بين أناملهن ، فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد
بلغوه منها مع اتصال مدتهم أزمانا طوالا يستعملونها ويمارسون طرائقها .

(١) الأغاني ٣ : ٧٩

(٢) الأغاني ١ : ٢٠ وفى الحصرى ٣ : ٢٠٦ قال إسحق إنما يجيد الغناء من يقرع مسمع
كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه .

وقد كتب إسحق رسالة مطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه سواه^(١) حتى لقد خطأ يحيى المكي فيما دَوَّن من الغناء ويونس الكاتب في الرسالة التي نسب فيها الأصوات إلى من ابتدئها من المغنين^(٢) غير أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغاني ونسبها إلى أصحابها فضلاً أعظم من فصل يحيى فيما حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه في رواياته^(٣) لأن هذا هو المذهب الذي يتعصب له إسحق وينظر فيه من يقول بضمه من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مر في موضعه من الكتاب .

ومن حديق إسحق في صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلا فيما اقتبس من تقسيمات أقليدس^(٤) وما هو إلا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من علمه ، فقد ميز^(٥) أجناس الغناء كل ، وجعل الثقيل الأول أصنافاً ، فبدأ فيه بإطلاق الوتر في مجرى البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر في مجراها ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين الأول ما ذكرناه والثاني القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحناً واحداً ، وذلك بخلاف الذين دَوَّنوا الغناء قبله وبعده فإنهم أصاعوا صناعة الغناء القديم إلا أحمد بن يحيى المكي المقدم ذكره في كتاب له في الأغاني ونسبها يقال له المجرد^(٦) فإنه أصل يرجع إليه ويعول

(١) الأغاني ٦ : ١٨

(٢) الأغاني ٥ و ٦

(٣) الأغاني ٦ : ١٧

(٤) الأغاني ١٥ : ٨

(٥) الأغاني ٥ : ٥٢

(٦) الأغاني ١٥ : ٦٥

عليه ، ولست أعرف كتابا بعد كتاب إسحق يقارب كتابه أو يقاس به ، فكأنه
نام على مخالفة أبيد ومن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين ، ورجع إلى الغناء
لفديم الذى سبق إلى التعصب له مغل يغنى يقال له «سياط» وفد على المهدي رحمه الله
رأنا مقيم في الرسالة بخراسان فلم أوفق إلى الاجتماع به ، ولكن حسبي من تقدير
موضع الجليل من هذه الصناعة ^(١) أن إبراهيم وإسحق تلميذاه ^(٢) وإليهما المنتهى
في إجادة الغناء .

لُمة في علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت مجهولة
عندهم في صدر الإسلام بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام إلا عند
نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم ^(٣) حكمة اليونان التي كانوا
يحفظونها في خزائنهم بالأديار ، أما اليوم فإننا نجد في سكان الأمصار من العراق
ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب البادية لأنهم لا وجهون عنايتهم إلى
العلم ، وإنما همتمهم ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم كما سبق الإلماع إليه
في صدر الكتاب .

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة ^(٤) : رياضية ومنطقية وطبيعية
وإلهية ؛ فأما العلوم الرياضية وهي النجامة والعدد والهندسة والغناء فإنهم نبغوا فيها
النبغة التي لم تكن للمتقدمين من أمم الشرق ، وقد تقدم في الكلام على النجامة
ما يقضى بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم
الأفلاك وارضادها ، كما أنك رأيت في الكلام على الغناء أن لإبراهيم وابنه إسحق

(١) الأغاني ٦ : ٦٥

(٢) الأغاني ٦ : ٩

(٣) المقدمة ٤١٩

(٤) حاجي خليفة : ٤٦٢

فيما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلا تترين به هذه الصناعة عند العرب . وإعلم (أرشدك الله) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهى صناعة استخراج العدد المجهول من قبل المفروض المعلوم ^(١) إلا موضعهم من النجامة والغناء فى تحريرها وإصلاحها والاعتبار فى الأقسام التى تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هى العلوم التى يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التى لا غاية بعدها فى الإصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لإقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذى أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل ^(٢) ، وقد عربت رسائلهما فى خلافة أبى جعفر ثم أعيد تعريبها فى هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل ^(٣) جعل مقالات إقليدس فى جلد كبير سماه كتاب الأركان ^(٤) ، وفيه خمس عشرة مقالة يبحث فى الأربعة الأول عن السطوح ، وفى الخامسة عن الأقدار المتناسبة ، وفى السادسة عن نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وفى السابعة إلى التاسعة عن العدد ، وفى العاشرة عن المنطقات ، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ، وفى المقالات الخمس الباقية بحث واسع فى الجسيمات ، ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب فى الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات ، وألحقوا به أيضا علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس ^(٥) من اليونان أيضا فعرفوا ما يقع

(١) المقدمة ٤٢٢

(٢) ابن نباتة .

(٣) هو مهندس ذكره الأغاني ٦ : ١٩١

(٤) المقدمة ٤٢٤

(٥) المقدمة ٣٥٩

من الأشكال والقطوع في الأجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء ^(١) بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك ^(٢) فإن إجادتهم فيها كانت دون إجادتهم في العلوم الرياضية ، لأن طبائعهم ما تهيأت للعناية إلا بقول الشعر كما رأيت ، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقييد لمحاسن كلامهم ، وقد بلغوا فيه الغاية التي لا مطمح وراءها إلا ما كان من كلام النبوة ، وإن كان شعر الجاهلية جافيا لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في القفر بين الإبل والوحش والمنازل الخالية ^(٣) فإن شعر المتصمرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعرا أرق من النسيم ^(٤) وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جنتهم وظهور ريح الصبا عندهم ، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذهاب إلى الغرب ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التي ينفح فيها الطيب على غصن أندلسها الرطيب فيقول ^(٥) :

وإذا ما هبت الريح صَبَاً صحت واشوقى إلى الأندلس

وديار الأعراب قفرو وإقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك مما لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما نجده في شعر الأندلسيين .

(١) المقدمة ٣٥٨

(٢) حاجي خليفة ٤ : ٤٦١

(٣) الكشكول والأغاني .

(٤) راجع كتاب المقرئ وغيره من تواريف الأندلس .

(٥) المقرئ .

أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب في المنطقيات لأرسطو الكيم (١) عربت في خلافة أبي جعفر (٢) بمناظرة عبد المسيح الحمصي وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش (٣) ، وقد اشتملت على رسائل ثمان ، أربع منها في صورة القياس وأربع في مادته (٤) ، وربما زادوا فيها بعض شرح وتفسير .

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها مما استخرجوه من كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن العلم إلا ابن العلاف (٥) خطيب هذا الزمان في رسالة له في الخطابة بدأ فيها بذكر سبحانه وقس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم في الجاهلية والإسلام إلى أن أتى على بيان القواعد التي تلزم الأدباء في الخطابة ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ وإثارة المعاني في قليل من الكلام .

وأما العلوم الطبيعية وهي علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها في جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبي جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء وهو النظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض

(١) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وهي كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذب الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمسة المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تحتص بها فصارت تسعا . المقدمة ٤٢٩

(٢) المسعودي ٣ : ٤٠٠

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٩٧

(٤) المقدمة ٤٢٨

(٥) ذكره ابن خلكان ٩٢

وغير ذلك^(١)، وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة بما في متوعاتها وممزوجاتها من تسالية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة ، حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتجهون في استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد ابن يزيد بن معاوية الأموي قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره^(٢) ، وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثني عشر ومن سادات أهل البيت فد ترك فيما ترك أكثر من خمسمائة رسالة في علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من العلم إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار ، فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيان الطرسوسي وهو تلميذ جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه فكتب سهرا جليلا في علل المعادن^(٣) ودون الكيمياء في سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مجرباته ، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين منها القوة النفسية وهي السيمياء ، ومنها القوة العلمية وهي الكيمياء ، وأدخل العلوم السحرية في السيمياء وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثله حكاء اليونان أنفسهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر^(٤) أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصروا دون الغاية التي بلغها منها ، وربما أكب عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازه ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصنوعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة

(١) الأغاني ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٣ : ١٤٣

(٢) ابن خلكان ٥ : ١٤٦

(٣) حاجي خليفة ٤ : ٢٤٦

(٤) المقدمة ٤٦٣

لاستخدام الجن^(١) في هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الألهية وهى السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليونان والفرس ، وإنما ينفرد حسن نظرهم فى علوم الدين كما رأيت وفى علم الكلام الذى وضعوه تحفظاً^(٢) من العلوم الحكيمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف^(٣) ، وقد رأيت لهم كتباً فى السياسة المدنية^(٤) يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن ما لهم من التأليف التى فيها رأى ونصيحة ، أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلا بضاعة مزجاة لأنهم لم يُعَنِّوا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرره فى نفوسهم من الفائدة وفى معاشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو وليّ المؤمنين لا رب غيره ولا معين سواه .

أدب السير والحكايات

نُفِّدَ هذا الباب لذكر الحكايات والقصص فإنها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة^(٥) والذى كان قائماً بديوان الإنشاء فى خلافة أبى جعفر^(٦) ، له كلام

(١) المقدمة لابن خلدون .

(٢) ابن خلكان ١ : ٦٨٧

(٣) حاجى خليفة ٣ : ١٠٠

(٤) ذكر هذا ابن خلدون فى المقدمة ٣٢ وابن خلكان ٢ : ١١٢ و ١١٤

(٥) العقد الفريد فى باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ : ١٥٩

(٦) المحاضرة ٣ : ١٣٢

على الملوك يشهد بأنه كان عارفاً بالسياسة^(١) ومقالات^٢ في البلاغة تشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا أن أهل زمانه قد اتفقوا ، وهم دونه في العلم ، على أن يقولوا إن كلامه كان أكثر من علمه^(٢) ، لأنهم ما أحبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البالغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له في تعريب كتاب هندي يقال له كليل^(٣) ودمنه^(٤) وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم والطير وأشير فيه إلى سلائقها من الحلم والمكر والجراءة والجن والتيقظ والذهول والعقل والحمق إلى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة ، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروباً من الحكمة البليغة ، وهو يشتمل على غرضين سياسيين وأدبيين ، فأما السياسي فإنه داع إلى العدل وزاجر عن البغي ، وفيه بيان سلوك الملوك في آدابهم وتدابيرهم لأموالهم وممالكهم وما يجب عليهم من العادول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأن الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يقرب إليه أهل النعمة والفساد . وأما الأدبي ففي بيان المعاش في ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد في تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغى لهم في سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يعد كتابه من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه حتى إن كسرى أنوشروان أنفذ طبيبه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم^(٤) .

(١) الفخرى ٣١

(٢) ابن خلكان والأغاني ٨ : ٧٦

(٣) ذكره المسعودي ١ : ٣٨ والسيوطي وذكر المسعودي أن عبد الله ابن المقفع كان عالماً باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها إلى العربية غير كتاب كليل ودمنه كتباً كثيرة .

(٤) ذكر الحصري أن سهل بن هرون ألف في زمن المأمون كتابه المسمى « ثعلة وعفرة » يعارض به كتاب كليل ودمنه وأنه كان ظريفاً عالماً حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضها الأوائل في كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزرجمهر الاسلام ٢ : ١٨٦

وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلا سماه « باب غرض الكتاب » وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب ، وذكر أن أغراض واضعه « يبدأ » الفيلسوف تنقسم إلى أربعة فأحدها ما قصد إليه من وضعه على السنة البهائم ليسارع أهل الهزل إلى قراءته ، والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للترهة في صوره فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة^(١) ، وعهدى بجميع الكتب الأعجمية إذا عربت عريت إلا هذا الكتاب فإنني رأيت في العربية أفصح منه في الفارسية ، وقد كان صبيبة البرامكة (حفظهم الله) يحاولون حفظه عن ظهر قلوبهم فقطن لذلك أبان بن عبد الحميد^(٢)

(١) المقدمة ٢٥٧

(٢) ذكر في العقد الفريد ٢ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة ولد قصيدة

أشدها للفضل بن يحيى فيها حلالة شمائله وبراعة أدبه يقول :

أنا من بغية الأمير وكثر	من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب لبيب	ناصر زائد على النصاح
شاعر مقلق أخف من الر	يش إذا ما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة ونفاذ	أنا فيه فلاة لوشاح
لورمى فى الأمير أصاحه الـ	ه رماحا صدمت حد الرماح
بم أروى عن ابن سيرين فى الفقـ	ه بقول منور الإفصاح
لست بالضخم فى روائى ولا القـ	م ولا بالجمع الدحداح ؟
لحبة كثرة وأنف طويل	واققاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح النـ	س بصير بخافيات ملاح
كم وكم قد خبات عندى حديثا	هو عند الأمير كالتفاح
أيمى الناس طائرا يوم صيد	فى غدو أو بكرة أو رواح
أعلم الناس بالجوارح والصيـ	سد وبالحرد الحسان الملاح
كل هذا جمعت والحمد لله	على أننى ظريف المزاح

ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل عليهم استظهاره ، ويقول في مطلع ذلك الكتاب (١) :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذى يدعى كيلة ودسه
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

إلى آخر الأبيات فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان موضع جليل من البلاغة التى ورثها عن أبيه . فقد كان عبد الحميد من فحول الكتاب الذين فتقوا أحكام البلاغة وفكوا رقاب الشعر (٢) ، وكان نفرا للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة التى جمعت سحر البيان ، وأخذت بجامع الجنان ، يقال إنه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتباً فى دولة الأمويين قال لمروان سأصير عنك كتاباً إلى أى مسلم فإن قرأه حصل عندنا وجه من الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الكتاب إلى أبى مسلم (رحمه الله) وكان عالماً بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقوا الكتاب على طيه فإما فيه سحر غالب » على أنى لو سئلت التفصيل يس هذين الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكسب بماء الذهب وتتحف بها خزائن الملوك .

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره من كتب السير والحرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس (٣) وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الأمثال التى توسع العقول أدباً مع فكاهة وترويض أفكار ، وترجموا عن الفارسية كتاب هزار أفسان وسموه ألف ليلة وليلة (٤) ،

(١) الأعانى ٣٠ : ٧٣

(٢) العقد الفريد والمسعودى ٣ : ١٦٣ وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التجميدات فى فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده .

(٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٤) المسعودى ١ : ٢٩٦

ومعنى هزار أفسان ألف خرافة ، وكان السبب في وضعه كما هو معروف أن ملكا من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غيرة عليها من الرجال ، فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهرزاد وفي بعض النسخ شيرزاد ، فلما اتصلت به أخذت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته إليه ، ووقفته على حيلتها عليه . وكان للملك قهرمانة يقال لها رسازاد أو دينارزاد ^(١) كانت موافقة لها على ذلك ، وفي هذا الكتاب دوت المائتي سمر لأن كل سمر كان يحدث به في ليال عدة ، وهى من أطرف الحكايات التى وضعتها الفرس في غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تدواله النساخ والكتاب وأضافوا إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباع في وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأئس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما في الكتاب حكايات عربية لا يخالطها من كلام الفرس إلا القليل ، وهى وإن كانت بعيدة عن الصدق تظهر فضل العرب في أنهم يمتلكون فؤاد السامع برقة مأخذهم في مجيئها ورونقها ، كالذى زعموا أن صيادا ألقى شبكته في البحر وظل نهاره طوله لم يظفر بسمكة ، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضاق به الحيل جر الشبكة فإذا هى ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستعيز بثمنه عن نصبه في ذلك اليوم ، فلما جذبها إلى الشاطئ وجد فيها ققما من نحاس وعليه خاتم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ففض ختامة فصعد منه دخان خيم على السماء ، فنظر في الدخان فإذا هو يجتمع ويتكون إلى أن وضع منه جان من صفته كذا وكذا . فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفرقا بحيث لا يتنبه السامع إلى

(١) كتاب الفهرست .

أن هناك خرافة ، فإذا انتهت الحكاية إلى ما أصاب الصياد من الجوهر والمال بعد أن خاضره الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخطر المنقبض ، والتمس في نفسه مثلاً لهذا المسكين فوجده كثيراً في الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سرا يريده الكاتب من وراء الفكاهة .

ولإجماع الرأي على أن ليس في حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أطرف من هذه الحكايات وألطف صنعا ، فإن فيها من الوصف البارع ، والتمثيل الساطع ، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليه من وصف معاش الناس وأخلاقهم وما يتقلبون فيه من الأحوال التي توسعوا في وصفها ، إلى أدب جزيل الفائدة . فأما الحكايات التي ذكروا وقوعها في الإسلام فلا تبعد عن الأحوال التي تحدث ببغداد في أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزجون به أخبار الخلفاء من الخيال لنكتة يشوقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للولك ، مثل حكاية الخليفة الثاني وحكاية الخليفة والصياد إلى حكايات غيرها يظرفون بها الخبر عن الرشيد وجعفر ، أما ما ذكره عن طوافهما ^(١) مع مسرور ليلاً في الأسواق متنكرين عن أن يعرفهم أحد فإن ذلك ليس بالموضوع ، وقد ذكرت مثله في رسائل السالفة إليك غير أني جردته عن المبالغة التي يزين الرواة بها أحاديثهم ، كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلهما لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة .

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق وإنما أقبل حلق من العوام على تصديقها لا لقطع أخبار الأمم عنهم بحيث يتعذر عليهم معرفة غنها من سمينها ، ولأن ناقل الرواية كان يحدّثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البلدان

(١) الاتليدي ١٢٦ والأغانى ٦ : ١٣٧ وغيرهم .

البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل ، فلو حدثهم بأن في الشام مدينة من النحاس (١) أو بالعراق بلدا صار غديرا ثم انقلب مأوّه إلى عمارة وأسما كه إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع ، وإنما نَقِل إليهم أن ذلك كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب فأوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة .

ومن أطرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حساء . وغانية هيفاء . وشاعرة فصيحة وعجوز ذات دهاء وما توسعوا به في كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم في التلاق ، وتوجههم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التي ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تمثل في الضمير على سبيل التخييل ، كالذي يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيره كل من فيها نساء وتجارها نساء وجندها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال ، وأنه قضى بينهن أياما من النعيم أقل ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة في البحر على سبيل التسلية خرجت له من الأصداف صبية من بنات الجنان ، كأنها حورية من حور الجنان ، إلى غير ذلك من الوصف الذي يحرك القلب ويملك الجنان .

وقد حلا لي من حكاياتهم أيضا حكاية السندباد (٢) وهي تستند على الحوادث التي وقعت له في أسفار سبعة أتى عليها جميعا في طاب المسال وفي كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتألف التي وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الأخطار لنيل العلا والفضار ، بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال المساس وعيد العنبر وعجائب البلدان التي نزل بها السندباد .

(١) المسعودي وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين .

(٢) ذكرها المسعودي في موضعين من كتابه أحدهما في صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئا والثاني في صحيفة ٣٨ وقال إنه كان في عصر كورس ملك الهند وذلك قل زمن عيسى عليه السلام بثلاثة سئة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

وعلى بعض ألسنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجسية عنها وهذا كلام فيه بعد عندي ، لأننى طالما سمعت روايتهم يحدثون بنقل ذلك ، وفي مطلع الحكاية أن الحمال لما اشتد به الحر فخط حماله على باب الناجر في ظل يتردد إليه الذسيم الرطيب ، وتفوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عذرة ذلك الناجر في كثرة غلمانه ، ويسمع تغريد القمارى والتجارير في جنانه . وينشق من طعامه ريحا أحرنت منه النفس لانقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف ، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد إليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء والنعمى ، وعيش الشظف والبلوى .

ولست أظن في هذه الحكايات السندبادية إلا أن واضعها رجل قد عانى الأسفار ، وتقلب على متون البحار ، حتى عرف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تقلب الكتاب في أيدي الأدباء الذين عَمَّ علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحد من الرجال ، وإلا فإن في وصف الحروب من ذكر الكروالفر وحيل الفرسان ما لا يستنبطه إلا من طال وقوفه في ساحات القتال ، وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يستخرج فتواه إلا فقيه مجتهد في الأحكام الشرعية أيما اجتهاد ، ولو لم يكن هذا الاستدلال صحيحا لوجدنا في اختلاف الأقلام دليلا واضحا على اشتراك الأدباء في تأليفه ، لأننا نجد فيهم من يسترسل في المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفرسان أنه قتل في معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الإمكان إحصاء عددهم في يوم واحد فكيف بقتلهم ؟ ثم نجد من رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعد إلى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار للنظر في عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه في كلامهم عن العرب من ذكر المحاسن التي تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف ، والمساوئ التي تفاخروا لأجلها في طلب

الثأر وإدراك الغنائم ، أو مثل ما قصصوا إليه في حوادث زماننا هذا من ذكر أخبار النساء كما هي ، إلى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذي أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات .

تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار في أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين إلى ما وراء فرغانة (١) ، فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الأموال أحوالا شاهدها وعادات جروا على سننها ومباني حاكوا منها الزينة والإحكام ، وشرائع تفقهوا في استخراج ما فيها من أحكام .

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدثوا الحى بغريب ما نظروه ، وعجيب ما سمعوه . فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بي من أن في بعض الأمم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار (٢) ، وفي جلودهم نقط حمروصفر وبيض ، وأن منهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسه كرأس الكلب ، ومن جسمه بحسم الثور أو الأسد (٣) ، ولقد سمعت من يحدث أن من البلغار من طوله أكثر من ثلاثين ذراعا يأخذ الفرس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر بيده ساقه كما تقطع باقة البقل (٤) إلى غير ذلك . ولست أظن هذه الأساطير التي يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلا أنهم رأوا رسومها على الآثار التي خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون وغيرهم من أهل

(١) يستدل على ذلك بما دونته رحالة العرب وعلمائهم في الجغرافيا .

(٢) ابن خرداذبة ٦٣

(٣) القرماني ٥ : ٥٤

(٤) المستطرف ٢ : ١٦٢

الأعصر الخالية فحدثوا بها رجما بالغيب ، أو تحصيلا لليقين من الريب . ظنا منهم أن أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت في قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قصا عنا من البلدان .

ولما دارت هذه الأساطير بين الناس وتناقلها الندماء والجلالاس ، أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا إلى تقييد التاريخ في الأوراق حتى لا يتشوه على تمادى الأيام ، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظا في صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من أمثال هذه الأسانيد المحفوظة ، وهم يوقتون وقوع الحوادث السالفة مثل ما كان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى وهذا في حرب البسوس إلى غير ذلك ^(١) وأما الحوادث التي وقعت في الإسلام فقد أترخوها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصح في النقل والرواية من أخبار الجاهلية ، لأن شأن الرواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة أشهر من أن يذكر ، والحوادث إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم ، ولم ينسلم لهم من الفساد إلا علم الأنساب الذي حفظته فيهم العصبية ^(٢) حتى اتصلت أنساب أشrafهم إلى أولاد إبراهيم (عليه السلام) مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات.

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ محمد بن إسحق ^(٣) في كتابه عن المغازي والسير وأخبار المبتدأ ^(٤) ، ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنفًا ، ^(٥) ثم

(١) راجع كتاب الأغاني .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد .

(٣) حاجي خليفة ٣ : ٦٤٣ وذكر أبو الفداء وابن الأثير أنه مات سنة ١٥٠

(٤) المقدمة ١٧٠

(٥) المسعودي ٢ : ٤٠١

أخذ أهل العلم في تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد المعروف بالواقدي كتابا في فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) وآتى على ذكر الحروب التي سَعَّرت نارها على عمال الروم ، إلا أنى رأيته يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول إنه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفا من المسلمين وإلى حصن كذا وكذا رجلا وإلى البلد الفلاني كذا خلتا عظيما مما لو جمع إلى ما فرقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه في جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة النقل ، وكذلك إكثاره في عدد القتلى من الروم كان يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن في جندهم مثله في جميع ما لهم من البلدان ، وربما انفرد الواقدي في علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دَوَّن التاريخ بعده حماد الراوية وعبد الله الأصبغي وهما يعرفان أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويمليانها عن ظهر قلبهما إلا أن الخلل في رواية حماد أنه يقول الشعر على لسان المتقدمين ^(١) فيما يروم إسناده إليهم من نكتة أو من خبر فهو إلى المؤاخذه بما يُدْخِل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقرب منه إلى الثناء على ما يصعبه من الشعر الذي لا يفترق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روى لهم ألفين وتسعمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبجدية مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات ^(٢) . وأما الأصبغي فليس ثمة من الأمور التي تنتقدها عليه إلا أنه كثير الرواية واسعها حتى يكون فيها بعض المروية عند كثير من أهل العلم ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقل بمدونات ، وهذا لا ينقص فضله في العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشيء الذي يزيد قدره على أن يكون مثله في صدر رجل .

(١) الأغاني واسر خلكان .

(٢) الأغاني ٥ : ١٦٥

ثم إني وجدت الأصمعي وحامدا كليهما قد وقعا في الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهل الرواية قبلهما وبعدهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعا عن ذكر محاسن الأعاجم من هو خارج عن دين الإسلام حتى لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم ^(١) كما يقولون ، وأما القصور فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبدأها وغايتها ولا أن ينظروا في عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معاييرهم فيما سقطت به دولهم بعد أن تساهوها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون في انتقاد الأشياء تذكرة للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواء من العلوم الأدبية ببيان المحامد التي يسترشد بها والمساوى التي ينبغى الاستنكاف منها والتتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل الجزيل فيما تمهروا في استخراجها من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات ^(٢) ، إذ كان لهم غير من ذكرنا من العلماء كثير من النقاشين والمصورين والصناع مما يدل على أن لهم صورا على الورق الصبغيل ^(٣) تظهر خارجة وليست بخارجة ، وداخلية وليست بداخلية وفيها كل غريبة من الإبداع ، ورأيت من رسومهم على الآنية والأعمدة والقباب ما يبهو البشر في إحكام الصناعة مع الحلاوة وتتمام الزينة مع الحسن والطلاوة ، وهذا كله قد توصلوا إليه في عصر الرشيد وملوكنا البرامكة (أعزهم الله) وقد سمي بالعروس ^(٤) لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الإسلامية

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب حاجي خليفة .

(٣) كاتبة ودمنة .

(٤) المسعودي ٣ : ٤٠١ والشرقاوى ١٢٢ وفي الحصرى ٣ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة

روض الأزمنة .

ولعمري إن فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهدا ناطقا ببلوغ الغاية من العمران إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان .

وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم (صلى الله عليه وسلم) والله نسأل أن يجعل حالتنا بالستر الجميل ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا رب سواه .

الرسالة الثامنة

رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبى إليك أفردته لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرنجة ، وأنا أكتبه اليوم على متن السفينة فى البحر الفاصل بين الروم وإفريقية . كان الرشيد يوم وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة ^(١) قد استدعانى إليه فأصبته فى مجلسه متنقلا كأنه يريد أمرا عظيما ، فاستدنانى ^(٢) إليه وقال إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يُقرئنا منهُ السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملته ، فرأينا أن نوجهك إليه بطائف نروم منه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها إليه هى التعصب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ^(٣) ، فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه فى هذه الرسالة ، واجهد فى أن تسترق قلبه بخلاصة لسانك ، وتقدم إليه بالوعد الجميل فى أننا نوفيه حقه يوم الفتح . ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجربى الأرزاق الواسعة على جنده وتقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحب معك هذا اليهودى الذى جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شيخ مترف جليل القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدمنا إلى مسرور أن يصحبك بالخدام مع الدواب والخيام إلى بيروت من ساحل الشام ، فإذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أمرنا الليث أن يوجه

(١) هذه اللفظة لقب رومى للقيصرة وقد وردت فى كتب العرب ووجدت فى ابن خلكان

١ : ٨٤ لفظه أنبرور بحذف الذال وهى تشبه أن تكون منقولة عن الفرنسية .

(٢) فى الأغاني ٤ : ٨٤ أن الخليفة يستدنى من يحبه .

(٣) راجع المقرئ وابن الأثير تجد كلاما مطولا فى هذه الحروب .

معك طائفة من الحرس إلى عيذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافينا حاجين ،
فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة ، ويهدي قلبك الصواب
وهو ولي التوفيق .

فلما أذن لي بالانصراف أتيت البرامكة لأستطاعهم رأيهم في المصاحبة فاعيت
جعفرا متنزها في البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال انخرج
عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنت ذلك ؟ فقال علم الله إنى أنا
الذى أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام .
ثم أودأ إلى الجلاس فتنحوا عن موضعا فاستدنا إلى إليه وقال بهم أوصالك ؟ فقلت
بكذا وكذا من الأمر ، فوجم ساعة ثم قال سبحانه الله إلام ينادى به تغير القتال ؟
لقد أشرت عليه بأن يعدل عن المناجزة الأمويين ، لأن لنا في الشرق ما يشغلنا عن
قتالهم ، وفي الخوارج الذين بقارعونه على الخلافة في كل حين ما إن ضعفنا عنهم مرة
واحدة فسدت دولته فسادا لا نقوم لها من بعده قائمة . وإن يكن الرشيد عن
موعظتي غنيا بما عنده من العقل والعلم فإن الملوكة قد تطمخ نفوسهم إلى ما وراءه
الشر من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم
تسؤلكم » (١) ، فلما لنا وللاأمويين وقد كفانا الله شرهم ، فإن كانوا في شقاق
فلندعهم ينادون بالويل والحرب إلى ما وراء البحور ، ولبس لنا أن نلقى برجالنا
في المواضع المحيضة ونوردتهم موارد الهلاك ، فإنى أرى الجند يفتنون قبل الإشراف
على تلك المتالف ، كما أنى احسب الأبرذور على ما يؤثر عنه من إثارة الرقى ولزوم
التؤدة بعيدا عن موافقته على ما يروم من الإيقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون
ديارهم معتصمون في قلاعهم وقد عمروا أمصارهم ودقوا دواوينهم وشكوا
، حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والعدة والكراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم

شيب الغراب (١) ، ولقد كان أولى بالرشيده أن يرى دول الأندلس درعا منيعا للإسلام وسيوفا مشهورة على الروم ، لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمن إن أرسل الجنيد أن يخونه القواد أو مات الأبرذور عن خلف لا يرعى العهود أن يوجه من يقبض على عمالها من لدنه ، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فإني رغب عما فرط منه وإلا فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ أمنيته .

فلما كان الغد بكر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقرب عليه الكلام ويخضه الرأي والنصيحة ولكن من غير أن يقوم ما بنفسه من الميل ويعدل به عن ركوب هذا المركب الوعر . فاستدعاني إليه وسألني كتابه إلى الأبرذور وأمرني بأن أنجس أخبار العمال وأنفق أموالهم حيث مررت . وأوصاني برجل من الأمويين في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يخشى منه استمالة أهل الشام إلى الفتنه رفعت ذلك إليه ليتدبر أمره (٢) ، ثم قال وإذا مثلت بين يديه « يريد قيصر الروم » فقل له عن أمية إنهم قوم قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العباد وسعوا في الأرض فسادا وأنا أحق بالملك منهم لمساكننا من قرابة النبي صلى الله عليه وسلم . ثم أذن لي بالانصراف ، وكان يظهر من الميل إلى وجميل العطف عليّ بحيث كان يدعوني بلفظة الحبيب (٣) كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه .

(١) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق إلى الأندلس ووجدوا
البيانية فيها غير مذعة لدولتهم قاتلوهم قتالا أحبوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبق الرمي وبلغ استقناطهم
في سبيل الملك إلى أن يقتل أحد ملوكهم اسمه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال
لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فاموت أولى أو الظفر « ابن الأثير ٦ : ٤ » .

(٢) ذكر الأتليدي ١٢١ والابشهي ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموي وإيراجعها هناك
من أحب .

(٣) ذكر الأعاني ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يرفع عن أن يدعو بعض خواصه يا حبيبي ويقول صاحب
العقد من بواذر إسحق أنه لما دخل على المأمون استدناه إليه فدنا منه قال إسحق فرفع المأمون يده فالتكأت
عليه فاحتضني بيديه وأظهر من إكرامه وبري ما لو أظهره صديق لي مواس لسرني ٣ : ٢٤٠

وكان في لطائف الخليفة إلى الأنبرذهر فيل عظيم أبيض كان عند المهدي (رحمه الله) أرسله له بعض ملوك الهند^(١) ، وثياب فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب ، وبسط ديباج من طبرستان ، وأعطار من اليمن والحجاز ، ومسك وصندل وأعواد ندى من الهند ، وسُرادق عظيم مجال بأنواع الحرير وكلاسيه من الذهب الملبس بالوشى ، ومِرْزولة كبيرة تدل على الأوقات في ليل ونهار ، وهى من عمل صناع بغداد ، وشِطْرَبَج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش ، صنعه نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تمثل الشاه ، وهى من الحسن بحيث إن الناظر إليها يكبر صناعتها وقد مثل فيلا يلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندي قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حمير^(٢) ، وقد أظهر هذا الرسام فى تصويره من الخلق ما يستحق عليه الثناء ، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم ، وجعل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطى وهى لباس الهنود ، واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لها السروج والأزمة ، وقلد الفرسان شيئا من السلاح ما عدا الجندي الذى أخذه الفيل بخرطومه فإنه يعالج نفسه للخلاص مما هو فيه ، وقد طرح سلاحه على الأرض وعليه سمة التوجع والانكماش^(٣) مما يشهد للمثل بأنه من مهرة الصانع .

المروء بالكوفة وبلاد الشام

لقد رسم لى طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم إلى بيروت على ساحل البحر، وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقا بالفيل والدواب المثقلة بالأحمال،

(١) ذكره الأعانى ٩ : ١٣٦

(٢) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥

(٣) هذه الأداة لم تزل إلى هذا اليوم محفوظة عند الفرنجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك .

فاجتازنا بعد الانفصال عن الحاضرة بمدينة النيل التي مصرها المجاج^(١) ، وهي
بمنتصف ما بين بغداد والكوفة^(٢) ثم عطفنا إلى الأنبار^(٣) ثم إلى مدينة الكوفة
فزلت بها في رحبة خُنيس الأنصاري من أجداد أستاذي أبي يوسف رحمه الله^(٤) ،
وهي في مقابلة الباب الكبير المعروف بباب القيل^(٥) ، وقد طاب لي المقام بين
أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت^(٦) ، (شرفهم الله) ولا سيما في قوم
كندة من ملوك الصرانية ، وهم من غلاة الشيعة^(٧) وأكثرتهم عالم وحكيم وأديب
كان بيتهم معدن العلم ومظهر الحكمة ، وقد لقيت منهم إسحق الكندي وهو عامل
الرشيد على الكوفة ، قلده الإمارة بإيعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد
الشيعة^(٨) ، ويبلغون من إلف الرعية فيما بينهم تعظيم الإسلام في انتفاعه بحكمة
الأمم وعلومهم وصناعاتهم ، وقد جروا في ذلك على سنة أبيهم خالد (رحمه الله)
وهو الذي قرب بعض النصاري إلى أبي جعفر كما تقدم في موضعه من الكتاب .

واقصد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق^(٩) ، وهي ذات ماء وشجر
ونخيل^(١٠) ، وقد رُت أن تكون في الكركن نصف بغداد ، فحق تسميتها
بالكوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم تكوف الرمل إذا ركب بعضه

(١) القناوى ١٣٥

(٢) ياقوت ٢٤ : ٨٨٣

(٣) المسعودى ٢ : ١٤

(٤) ياقوت ٢ : ٧٦٢

(٥) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٦) هذا معروف في كتب المؤرخين وذكر أبو الفداء ٢ : ١٤ أن كبير علماء الكوفة كان يميل

مع الإمام على كرم الله وجهه .

(٧) الرطواط ١٢٥

(٨) المحاضرة ٢ : ٨

(٩) ابن جبير ٢١٣

(١٠) القناوى ١٣٦

بعضاً (١) ، وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ، ولكنني لم يتهياً لى زيارتهم لقصر الوقت ، ولقد وجدت إسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذى أكتفى من الدلالة عليه بأن آسف لبعده عن الإسلام . وهو يسكن داراً مباركة تعزى إلى عقيل بن أبى طالب (٢) ، وهى بإزاء المسجد المبارك الذى قال فيه بعض الصالحين إن ركعتين فيه تعدلان عشراً فيما سواه من المساجد ، وإن البركة منه إلى اثني عشر ميلاً من حيث أتيته (٣) ، وقد زرت قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر فى عمد المساجد كلها ما هو أطول من عمده (٤) ثم زرت مشهد على عليه السلام (٥) ، وتبركت به وقرأت عنده شيئاً من القرآن .

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عنى الدواب المحملة ، فانقطعت فى الفلاة مع جماعة من الحرس ، ورحنا نقطع القفر بعد القفر ، حتى إذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طيب بغداد وظرائفها (٦) وحننت إلى مجالس البرامكة والدار عندهم جامعة ، وأوقات الأنس بها رائعة ، فكنت أقول مقللاً بكلام إسحق النديم (٧) :
على أهل بغداد السلام فإننى أزيد بسيرى عن ديارهم بعدا
إذا ذكرت بغداد نفسى تقطعت من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا

(١) تقويم البلدان ٣٠١

(٢) الأغاني ٤ : ١٨٢

(٣) ياقوت ٤ : ٣٢٥

(٤) ابن جبير ٣١٣

(٥) تقويم البلدان ٣٠١

(٦) القزوينى والأغاني ٥ : ٩٤ و ١٧ : ٧ وفى غير موضع .

(٧) الأغاني ١٧ : ٧٥ وذكر ياقوت فى صحيفه ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت
فرما لم يكن الشعر له بل كان من نظم اسحق لأنه كثيراً ما كان يذكر بغداد ويتشوق إليها وهو فى أسفاره
مع الرشيد ويقول :

ذكر الأعبة فاستجتن وهاجه للشوق نوح حمامة وحام
لم يسهه فى الصدر إلا أنه حيا العراق وأهله بسلام

ولم أزل مجدا في السير حتى بلغت دِمَشق في اثنتي عشرة ليلة^(١) ، ولو اني سرت تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام^(٢) فما دونها ، فزلت فيها عند قاضيها الإمام عمر بن أبي بكر بن تميم القرشي العدوي^(٣) في دار بناها عويمر أبو الدرداء ، وهو أول من ولي القضاء بدِمَشق ، وكان القضاء فيها يسكنون قصر الحجاج^(٤) المعروف بالقصر الكبير .

أما الشام فإنها بلاد مباركة كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات ، إلا أنها نكدة الحظ في تغلب الأمم الغازية عليها ، ولذلك قلت عمارتها إلى هذه الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما قبيل أن يظهر الإسلام ، وقد كانت تمزقها الحروب التي تسعرت نيرانها بين بني عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين للروم ، فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداغت أحوالها إلى الانحلال بعد أن كانت في عظمة لم يكن مثلها في الدول إلا قليلا ، وكانت فيها التجارة كأعظم ما يكون من النفاق والعلوم والصنائع سوق رائجة راجحة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وإنما دعا أهلها إلى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمع بأبصار الملوك إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان في نفوسهم من التحزب

(١) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٢) الاثليدي ٢٦٣

(٣) قضاة الشام .

(٤) الاثليدي والمستطرف ١ : ٢٨٧

الذى هو أشد من الفتنة^(١) ، فكان ظهور المرسلين فيهم سببا لتعصب بعضهم على بعض وإن كانت مواعظهم داعية إلى المحبة والاتحاد . وهذا هو الأمر الغريب الذى لم يسمع بمثله فى البلدان ، فلقد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبيين وموطن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الأنصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس فى شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتا من شملهم ومتفرقا من كلمتهم وأغراضهم ، إلا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم . فإنما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألا يتعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة فإن عظمة الأمم لا تحصل إلا بالاجتماع والعصبة ، سنة الله فى خلقه . انظر إلى الدول الرومية كيف عيث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ ، وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلا عند ما تحالف عليها صبيبتهم^(٢) فيما يرومون إليه من طمع النعيم ، وانظر إلى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدة يوم تفرقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة ، فلما اجتمعوا فى المغرب إلى إدريس بن إدريس (رضى الله عنه) قام لهم ملك يرجف له الشرق ، فإن تنظر إلى ذلك كله وإلى كثير مما وقع وما هو واقع فى الممالك تجد أن الأمم لا تقوم دولهم إلا برابطة الاجتماع والعصبة ، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداع أحوالهم إلى الاضمحلال .

(١) هكذا كانت الشام فى زمن الجاهلية والإسلام فإن مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين تلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريد أن به إلى يومه مثل ذلك .

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد أنه قيل لبعض بنى أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا .

وصف دِمَشْق وأنها بهجة البلدان

ولما وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحية الغوطة امتلأت عيني من خضرة الأرض حتى تخيلت نفسي في جنة من جنات السماء ، ولا غرو فإن مياهها وأشجارها ورياحينها لأفضل ما في الدنيا من المتزهات ^(١) ، يسير الرجل في رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لانتفاف شجرها بعرضه على بعض ، وهي في أسمى مقام بين مدن الإسلام ، بعد دار السلام . قد اشتبكت فيها العمارة ^(٢) وتزهت عن المثل في النضارة . لكنها ليست بالمفرطة في الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميل منها إلى العرض ^(٣) ، وهي لا تخلو من السقايات ^(٤) في أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقات فوق طبقات ^(٥) وتحتوي من الخلق على العدد الكثير ، والناس على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عاداً أول من نزلها من الناس وإنها هي إرم ذات العماد ^(٦) ، ومنهم من يذهب إلى أن بانيها الغادر غلام نمرود ^(٧) أو دمشاق بن كنعان ، ومنهم من يزعم أن الذي اختطها هو دمشقس مولى الإسكندر الرومي ، ^(٨) ومنهم من يرى غير ذلك . إلا أنه ليس فيما يقولون حجة ترجع بهم إلى محاسن التحقيق في وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزون بناءها إلى الروم ، فإن الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن أتى موسى كليم الله على

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٣ : ٥٨٩

(٢) القزويني ٢٦

(٣) ابن جبير ٢٨٥

(٤) المقري ٣٠ وابن جبير وابن بطوطة وياقوت ٣ : ٥٩٠

(٥) ابن جبير ٢٨٥

(٦) ابن خرداذبة ٧١ والقرماني ٥ : ١١٨ والشرشي ١ : ٢٠٧

(٧) الكنزي ٢٣

(٨) القرماني ٥ : ١٩٣

ذكر دِمَشْق في غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في ذلك فإن هي إلا مدينة أولية ^(١) قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبنى أمية دهرًا طويلا ونالت من العزة والعبارة ما قل أن يناله غيرها من المدن ، ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقى ماثلا إلى هذه الأيام لكانت دِمَشْق زينة الدنيا ، ولكنه شيد من طين ولين فأقنى عليه الانحلال ومحت الأيام آثاره ^(٢) فلم يبق منه إلا قلعة من الحجر تعزى إلى الروم ^(٣) وقصر يقال له قصر جيرون عليه أبواب عجيبة من النحاس ^(٤) وبناء يقال له البريص فيه كثير من العمود ، وتزعم العامة أنه كان يجري منه الشراب في قديم الزمان غير أن أركانه اليوم قيام وقعود . وحيطانه ركن وسجود ^(٥) ، وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز ^(٦) وللوليد بن عبد الملك ^(٧) وهما جميع ما تخلف عن ملوك بني أمية ، لأن ما نجا من معول الزمان لم ينبج من معول أبي جعفر ^(٨) ، كما مر في موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت أهل دِمَشْق أحسن الناس خُلُقًا وخُلُقًا ، يكرمون الفقراء ويتلمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم في صورة السائل ^(٩) ، ولو أن فقيرا أعرض عن كسرتهم لقالوا ويحنا لو علم فيما خيرا لتناول من طامنا ^(١٠) ، وقد بالغى عن

(١) تقويم البلدان ٣٥٣

(٢) فلائذ العتيان ٥

(٣) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣

(٤) المسعودى ١ : ٢٤٢

(٥) المسعودى ١ : ٢٩٧

(٦) ابن جبير ٢٩٣

(٧) المقدمة ١٥٤

(٨) ابن الأثير والمسعودى ٢ : ١٤٣ والخميس ٣ : ٣١٤

(٩) الأبرشوى ١ : ١٢

(١٠) ابن حمير ٣٨٨

فضلاً عنهم أنهم يزهدون في الدنيا وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين في جبل لبنان^(١) ، غير أني لا أطلق هذه الرواية إلا على فئة قليلة من الصالحين ، لأن جمهورهم مائل إلى اللهو والطرب ولا سيما في يوم السبت ، فإنهم لا يشتغلون فيه إلا بالمجون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حَجَرٌ على المملوك ، ولا للوالد على الولد ، ولا للرجل على المرأة^(٢) ، وهذا أمر غريب لم أره في غير دمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم في ذلك ، لأنى رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين في المنازل والأحياء ، قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم^(٣) ، ويقال إنها من أعظم بيعة بعد بيت المقدس .

وبقيت في دمشق ثمانية أيام إلى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الأموى الذى أتعب خاطر الرشيد أمره فلم أجده غرضاً في السياسة ولا هو طامح إلى ملك ولا إمارة ولا يحدث نفسه بشيء مما يفاق بال الرشيد حتى يخافه على أمره ، فأمسكت عن السعاية به لأنى رأيته وهو خلو من هذه الأغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس إلا ، وقد تنهى لى باستطلاع خبره أن أقف على سير غيره من أقارب الخلفاء متابعة لما نُقِلَ إلى من خبره فوجدت في الأولين عقلاً وسياسة إلا أنه لما صار الأمر إلى صبيتهم المسترفين استرسلوا في القصف والتهتك^(٤) ، وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية ، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم .

وقد انتهى ترف ملوكهم إلى الوليد بن يزيد^(٥) وهو الذى أخذت الخلافة في الانحلال بين يديه ، وتحرك الدعاة في نحر اسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة

(١) ابن جبير ٣٨٩

(٢) القزوينى ١٢٨ وابن بطوطة ٣ : ١٩٧

(٣) ابن جبير ٣٨٥

(٤) الأغاني ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم .

(٥) الدميرى ١ : ٩٠

بأمور الملك وعكوفه على اللهو والطرب ^(١) وقيام خلافته بين الكاس والوتر ^(٢) .
وقد استرسل في التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده في بيت المال ، لأنه أفرط
في الكرم لإفراطا فاحشا حتى إنه لم يقل « لا » في سؤال سئله ^(٣) ، وكان إذ
وصل الشعراء عدّ أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم ^(٤) ، وكان يتأنق
في صنوف الملبس المطعم والمشرب والملبس فيقال إنه ليس القلنسوة من الوشى ^(٥)
مذهبة ، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها في اليوم مرارا ^(٦) لشغفه بها .
وكان يتختم بالياقوت ، ووقع من خواتمه إلى بنى العباس ^(٧) خاتم يساوى أربعين
ألف دينار ، ويقال في حسنه إنه كان إذا أخرج من محبسه أعضاء المكان من
شدة لمعانه . وكان يسترسل في الطرب إلى أن يوجه رساله ^(٨) في طلب المغنين
من الحجاز وغيره ، فتجد أنه لم ينقل أمره على الرعية من وجه واحد ، وإنما هناك
وجوه قد ساقط عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شر قتلة . هذه نتف من
أخباره حدثتني بها مغنية كانت له يقال لها برق الأفق ^(٩) ، وهي اليوم عجوز تكاد
تنال الأرض بوجهها من الكبر وقد أخبرتني في بعض حديثها أن الجوهر كان
في صباها متداولا بين الناس ، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى با
غلا ثمنه منذ ذلك الحين ^(١٠) ، وهذا شيء من الإفراط في الترف لم نسمع بمثله عز

(١) المسعودى ٢ : ١٤٦

(٢) ابن خاقان ٤٤ في قصيدة ذكرها هناك .

(٣) أبو الفرج ٢١٠

(٤) الأغاني ٦ : ١٤٨

(٥) الأغاني ٦ : ١٤٦

(٦) الأغاني ٦ : ١٢٩

(٧) المستطرف ٣ : ١٩١

(٨) الأغاني ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودى ٢ : ١٤٦

(٩) الأغاني ٣ : ٨٧

(١٠) الأغاني جزء ٦

أحد من الملوك المترفين . ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية .

ولما طال مُقامي بدمشق تهيأ لي أن أزور أماكنها المشهورة ، فزرت موضعاً يقال إن هابيل وقابيل نزلا فيه ^(١) ، وموضعاً يقال له باب الساعات ^(٢) يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة . وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين ^(٣) في جبل قاسيون ومقابر الشهداء ^(٤) وجبانة الباب الصغير ^(٥) وبينها قبور ملوك بني أمية ^(٦) متهدمة والرخام عليها متكسر ^(٧) ، وزرت قرية في سفح الجبل المذكور يقال لها برزة ^(٨) يزعم الناس أنها مولد الخليل إبراهيم (عليه السلام) ^(٩) حضين الملائكة وإلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشيء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون إنها الحجارة التي رض بها قابيل رأس أخيه هابيل ^(١٠) ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم ^(١١) ، وفي حضين

(١) القزويني ١٦٢

(٢) ياقوت ٣ : ٥٨٨

(٣) ابن جبير والشريشي ٣ : ٢٣٦ والطبقات ١ : ٢٩ ، والمسعودي ٣ : ٤٢

(٤) قضاة الشام .

(٥) ذكرها ابن خلكان .

(٦) الخليلي ٣ : ١٤

(٧) المسعودي ٣ : ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير ٥ : ١٣٠

(٨) ابن جبير ٢٧٥

(٩) ياقوت ٣ : ٥٨٩

(١٠) القزويني ١٢٦

(١١) ياقوت ٣ : ٥٨٨

الجليل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نديا ماتوا فيها من الجوع وإني لأستحي أن أنقل حديثهم كما قالوه فإنهم يقولون إنهم سبعون ألف نبي^(١) كأن كل من عاش في الشام نبي أو وليّ ، وفي طرف الجليل مما يلي الغرب ربوة^(٢) يقول المفسرون إنها هي المذكورة في قوله تعالى « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون بأن المراد بها ربوة في الإسكندرية^(٣) من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوى إلى مغارة بجانبه ، وفيه حجر قد انفاق إلى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كerman مشقوق^(٤) ، ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والخضرة في جميع جوانبه ، ولا إشراف كإشرافه حسنا وجمالا واتساع مسرح للأبصار . وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة^(٥) أكبرها نهر يزيد ونهر ثوري^(٦) وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بردى وهناك بعض قرى مثل نيرب ومن^(٧) والسهم وسطرى^(٨) ، وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه ، وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ وسائر الثمار ما ليس في البلاد مثله صحة وطيبا^(٩) ، وإلى ما يليها من طرف الجليل موضع يقال له عين برما^(١٠) كان

(١) القزويني .

(٢) ابن بطوطة ١ : ٢٢٣

(٣) المحاضرة ٢ : ٣

(٤) ابن جبير ٢٨١ والقزويني .

(٥) تقويم اللدان ٣٥٢

(٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٧٨

(٧) ابن جبير ٢٧٩

(٨) كليات ٢٠٢

(٩) الكنز ١٤٤

(١٠) المسعودي ٢ : ٨٣

معمورا لأيام معاوية بن أبي سفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية قليل العين . وبقى الأثر من عمارته وذهبت العين .

ولقد كانت دمشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصاة من فضلات العمران ويعيها كثرة الوحول في أزقتها وتراكم الطين في ساحاتها ، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا في إزالة الأقدار^(١) منها وقاية من الطاعون الذي كان يقع بها تباعا في السنين السالفة^(٢) وهذا هو الأثر الذي تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشبيدهم البناء على الهندسة التي لا نجد أعظم منها وقعا في القلوب ولا أتم حسنا وجمالا في العيون ، كالذي يبلغنا عما بنوه في الأندلس^(٣) من القصور التي حارت في جمالها عقول الفرنجة ، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم في دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالبحر والصفاح والأعمدة مفروشة بالرخام الأخضر^(٤) ، وهي تتناهى في البهاء والإشراق إلى أن يضرب بها المثل^(٥) في إحكام رسومها وجلالة بنيانها ، ولو لم يكن من تمام زينتها إلا الأعمدة المزخرفة منصوبة في أروقتها فرادى وأزواجا لكفى البصائر روعا ووسع الأبصار ابتهاجا . وأذكر أنه لما أدخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة^(٦) لم يتحول نظري عن القصر لما راعني من حسنه

(١) أبو الفداء ١ : ٢٠٧

(٢) راجع ابن الأثير والمسعودي والعقد الفريد . وفي مروج الذهب من كلام عن الكوفة أنها

ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبأها ٢ : ١١٦

(٣) راجع المقرئ والعقد الفريد وابن الأثير .

(٤) الوطواط ١١١

(٥) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤

(٦) الوطواط ١١١

المفرد وأعجبت به من الزينة التي يكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل الذي به عقدة من السحر ، وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن ^(١) مخزومة ونحرجات مزينة وطيقان مجسمة بالخص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الأفكار فتجمله وتميل إليه الأبصار فلا تملّه .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي

هو أنخر مأثرة للملك بنى أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره ، وكان ذا همة في تشييد العمارات والمساجد ^(٢) والقصور ، وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، حتى كان الناس في أيامه إذا تلاقوا في الأسواق والمجالس تساءلوا عن العمارات وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم ، كدأبهم في التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز ، وعن الطعام في أيام سليمان بن عبد الملك ، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد ، وليس في بلاد الإسلام كلها مثل هذا الجامع حسنا وإتقانا ^(٣) وجمال رسم وتماز زخرفة وزينة ، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفیان الثوري أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة ^(٤) .

كان موضعه قبل الإسلام بيعة للنصرانية تعرف بكنيسة ما ريجنا ^(٥) ، ومن قبل ذلك كان بيت عبادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عنوة

(١) ذكرها الأغاني ٥ : ١٠

(٢) ابن جبير وياقوت ١ : ٥٩١ وابن الأثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزويني ١٢٧

(٣) ابن جبير ٢٦٣ والشرشي ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧

(٤) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ وابن جبير .

(٥) ابن الأثير وأبو الفداء ١ : ٢١٠ وياقوت ٣ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٩٨

تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحا فانتهى إلى نصفها الآخر ، وقد وقع الصلح بينه وبين النصراني فبقي نصفها في أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذي يهدم بيعتهم يحنّ ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يحنّ في سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده ^(١) فبادر المسلمون وأكلوا تخريبها حتى هاجت النصراني وعلا صياحهم ، فعوضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم بكائس عدّة صالحهم عليها ^(٢) ، ثم وجه إلى ملك الروم ^(٣) في إشخاص اثني عشر ألفا من العملة والصناع المرجمين ، وتقدم إليه بالوعيد إن هو توقف ، ثم أكل هدمها سوى حيطانها ، وأنشأ فيها القناطر وحلّاها بالذهب وعلق فيها الأستار من الوشى والإبريسم ، وبقي العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيها ألف مريحم يجلب إليهم الرخام ^(٤) والمرمر من كنيسة أخرى لأمم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور ^(٥) .

وقد غرم الوليد في هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنة مائة وأربعة وأربعين قنطارا ^(٦) بالدمشقي ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار ^(٧) ، وقرأت في بعض الكتب أن جملة المنفق عليه كان أربعائة صندوق ، وفي كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، ففي القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين . وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز ^(٨) قبل أن يلي الخلافة ، وقد اتخذ في المسجد

(١) ابن جبير ٢٦٤

(٢) الخليس ٣ : ٣١١

(٣) المقدمة ٢١٠

(٤) تقويم البلدان ٢٣٠

(٥) المسعودي ١ : ٢٧١

(٦) الخليس ٣ : ٣١١

(٧) ابن جبير ٢٦٣

المسعودي ٣ : ١١٩

ستمائة سلسلة من الذهب ^(١) للقناديل والثريات ، وزين جدرانها بفصوص من الذهب والفُسَيْفَسَاءَ ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثل أشكالاً من الرسوم لم ير أبهج منها في العيون ، ورفع عمده من الرخام المجزع طبقة فوق طبقة ^(٢) ، واتخذ الأساطين الضخمة فيما يجاور الأرض ، والسواري الدقاق فيما يعلو الحنايا والقباب ، وفي خلال ذلك صور المدن والأشجار بالألوان والذهب ، وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد « ربنا الله ، لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين » ^(٣) .

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خطوة أو ثلثمائة ذراع ^(٤) ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة . وأبوابه أربعة . أولها الباب الشرق ويعرف بباب جَيْرُون ، وعليه عمودان من الحجر في غاية الإفراط في الطول والعرض ، يقال إنهما من بقايا الكنعانيين ^(٥) ، إذ ليس في وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما . ثم الباب الشمالى ويعرف بباب الناطقيين ، وكان مدخل الكنيسة قديماً . ثم الباب الغربى ويعرف بباب البريد ، ثم الباب الجنوبى ويعرف بباب الزيادة وهو يُقضى بالخارج منه إلى دار معاوية ^(٦) المعروفة بالخضراء ، وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة سرج راهط كما هو معروف . وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التي اتخذها معاوية (رضى الله عنه) ندما كان للمسلمين نصف الكنيسة ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، وهى أول

(١) ياقوت ٢ : ٥٩٥

(٢) ياقوت ٢ : ٥٩٣

(٣) القزوينى وياقوت والمسعودى .

(٤) ابن بطوطة ١ : ١٩٩

(٥) القزوينى ١٢٧

(٦) أبو الفداء ١ : ٢٠٤

مقصورة صنعت في الإسلام^(١) ، بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه في أوقات الصلاة كما اغتالوا عليا عليه السلام ، فكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف^(٢) ، وإلى جانب هذه المقصورة خزانة مغطاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الشام^(٣) وأخرج إلى منها صاحب الوقوف خاتما من الفضة للوليد بن عبد الملك ، قد نُقِش عليه «يا وليد إنك ميت ومحاسب» ، وآخر لأخيه سليمان وكلماته «آمنت بالله مخلصا»^(٤) ، فأخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتي إلى بغداد ليضيفهما إلى ماله من خواتم الخلفاء ، وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رصاص يمتد منها إلى أن يغطي سطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار في عرض ثلاثة ، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة . وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه ، وكأنى القبة رأسه ، وهي في سمو الارتفاع بحيث تراها من أى موضع استقبلت دمشق . أما صحن المسجد فإنه من أجمل المناظر ، وعلى جدرانه آيات من القرآن الكريم ، ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك يجتمع الدمشقيين ومتزهمهم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرءون ويتحدثون .

ولهذا الجامع ثلاث صوامع^(٥) واحدة بالجانب الشمالى وهى مذهبىة من أسفلها إلى أعلاها^(٦) ، وفيها مقاعد ومجالس ، واثنان بالجانب الغربى وإحدهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجدت في أروقته ودهاليزه وصحنه وفي المساجد المتشعبة منه ماء يجرى بلا انقطاع ، وشاهدت في البلاط القبلى قبالة الركن الأيمن من

(١) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١ : ١٩٩

(٢) الفخرى ١٢٩

(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣

(٤) المسعودى ٣ : ١١٩ والخميس ٣ : ٣١٤

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٠٣

(٦) الشريشى ١ : ٢٠٨

المقصورة الصحابية تابوتا معترضا من الأسطوانة وفوقه قنديل موقد أبدا في الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام ^(١) ، ومن حوله عمد عجيبة قد ظهرت فيها عروق أخرى من غير ألوانها تتخللها العين منزلة فيها بأيدي الصناع ، إلى غير ذلك من المحاسن التي حواها هذا الجامع المبارك ، وعظمت عن أن يحيط بها وصف ، فإنني لأحسب الزائر لو تردد إليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبل ^(٢) من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسب أنه لا يزوره أحد إلا وهو يجتد الدعاء لبانيه ^(٣) وإن لم يكن له ميل في السياسة مع الأمويين .

المرور ببلبك وركوب البحر من بيروت

رَجَعُ إِلَى قَصِّ الرحلة . رَكِبْتُ مِنْ دِمَشْقِ فِي غَدِ الْيَوْمِ الَّذِي سَافَرْتُ فِيهِ الْغُلَّامَانِ إِلَى بَيْرُوتَ ، فَوَصَلْتُ فِي مَتَصَفِّ الطَّرِيقِ إِلَى بَلَدَةِ غَنَاءَ ذَاتِ سُرٍّ قَدِيمٍ يُقَالُ لَهَا بَلْبُكُ « وَمِنْهَا إِلَى الزَّبَدَانِ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى طَرَفِ وَادِي بَرْدَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِيلًا » ^(٤) وَهِيَ ذَاتُ أَشْجَارٍ وَأَنْهَارٍ وَعَيُونٍ وَخَيْرَاتٍ كَثِيرَةٍ ^(٥) وَفِيهَا الْكَرَمُ الْخَصِيبُ . وَلَقَدْ لَقِيتُ فِيهَا فِيلَسُوفًا مِنَ النَّصَارَى يُقَالُ لَهُ قِسْطَانُ بْنُ لَوْقَا ^(٦) ، صَاحِبُنِي فِي زِيَارَةِ الْآثَارِ الَّتِي فِيهَا وَأَخْبَرَنِي عَنْهَا بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ رُبَّمَا أَتَيْتُ عَلَى بَعْضِهَا فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ .

(١) ابن جبير ٥٧٥

(٢) القزويني ١٢٧

(٣) ابن جبير .

(٤) تقويم البلدان ٢٥٥

(٥) ابن بطوطة ١ : ١٥٨

(٦) المقرئ في ترجمة يعقوب الكندي .

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة يجمع قلبى حيرة وإعجابا ، وأعظمها هيكلا ن
كبيران أحدهما أعتق من الآخر^(١) وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة فى الحجر
ما لا يتأتى حفر مثله فى الحشب ، مع ارتفاع جدرانها وضخامة حجارتها وطول
أساطينها وعجيب بنائهما^(٢) مما يذهب العقول تعجبا من اقتدار الرجال على مثل
هذه العظام . وقد أخبرنى قسطا هذا الفيلسوف أنه لا يرى إلا أن هذين الهيكلين
من بناء أمة ماهرة فى فن الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التى تُقْلَهما إلا أعتق من
الآثار الظاهرة ، وفى ظنه أنها وضعت فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ،
ولما جاءت الروم الأولى هدموا المعبد العتيق ، ورفعوا الهياكل المائلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التى تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم بأيدى
عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى فى البنيان ، وليس كما تزعم
العامّة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام كدأبهم فيما يحدثون عن كل
أثر^(٣) من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين . وإنما رفعها الروم بالحيل الهندسية
والقوة الآدمية^(٤) يدلنا على ذلك ما نجد فى أطرافها من النقر التى تقضى بأنها
كانت ترفع جرا بالأمراس بأن يمهدها فى الأرض سطح من التراب يرتفع شيئا
فشيئا مع امتداده إلى أن ينتهى إلى حيث هى مرفوعة ، ثم تجر بالسلاسل على
عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تغوص فى التراب صغيرة
الجرم حتى تحتمل الثقل ، وتكون أشد من البكرات الكبيرة التى لا بد أن تلتوى تحت
هذه الحجارة العظيمة ولا تأتى بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٢) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٣) نجد فى كثير من كتب العرب نسبة المباني العتيقة إلى الجن .

(٤) المقدمة ٣٥٨

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالنعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويبيتوا في أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم، فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها لزمهم آلاف الألوف، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفالاته. فلما دانت لهم الشام وكان بعل^(١) معبودا فيها من الصابئة وغيرهم كما قال تعالى «أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين» بنوا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الإعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظم الأمور، إذ ليس للظن بأنهم قصصوا إلى المنفعة موضع في نظر العقلاء. فهذا أحد اللولبين اللذين يفضيان بالراق عليهما إلى سطح الهيكل قد اتخذ أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فوصلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد اتخذت في أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبل للهيكل، فلو أنه أريد بها المنفعة لاقتضى ذلك أن تكون في أسفل الجدار لا في أعلاه، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ من قطعة واحدة فائما ييداني الأرض أو يماسها، حتى إذا وهى أعلاه بق هو في موضعه، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مرآدا لهجوم العدو.

ثم إنه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر لشرق وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجة للناس شغف أفئدتهم بما فيه من الغريب ولا يقصدون الكائن وهي دونه في البهاء الإشراف مضر بالنصرانية وحابس لها عن أن تعم الشام، فعمدوا إلى تخريبه ومحو لأثر المائل منه. وكان في القسطنطينية بطرك ذو عقل ودهاء يقال له فم الذهب يحينا، فأشار على القيصر أن يتخذ كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منه مع حفظ

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

الأثر الجليل ، فاتخذته كذلك . وفي رواية أنه أشار عليه بأن يعمل فيها القؤوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر إلى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الأمم فقد شادته الروم الأولى لغرضهم في الدنيا ، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم في دينهم ، ثم مثلت آثاره لهذا الزمان ناطقة بعزة الله شاهدة أن لا باقى سواه .

ولما انفصلت عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البقاع وعرجت فيه على موضع يسمى بكرخ نوح^(١) يزعم أهله أن فيه قبر صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقربة من كل قرية من قرأه ردوما قد تراكت أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت ، وصرفت من بعلبك إلى بيروت يومين في جبل لبنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميل إلى عيون القرى لتنزيه النفس وإرواء الظمأ ، وإنها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمتدع في شعفاته . وأقيمت في بيروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، وهي مدينة جليلة^(٢) على ضفة البحر ، طيبة الاقليم ، عليها سور من حجارة^(٣) تحف بها عمارة مشتبكة في سفح لبنان كان يستجيدها الوليد بن يزيد المقدم ذكره فيقول^(٤) :

رب بيت كأنه متن سهم سوف تأتيه من قرى بيروت

ثم يقول^(٥) والنفس تائقة إليها والقلب مشغوف بجمها :

ألا يا حبذا شخص حمى لقياه بيروت

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام ، وفي مرساها مجتمع كثير من سفن التجارة ، ويجلب منها حديد^(٦) لبنان إلى ديار مصر ، وفي شرقيها نهر يغلظ في الشتاء قد بنى

(١) ابن بطوطة ١ : ١٣٣

(٢) تقويم البلدان ٢٤٧

(٣) الادريسي .

(٤) الأغاني ٦ : ١٢٢

(٥) الأغاني ٦ : ١١٧

(٦) الادريسي وابن بطوطة ١ : ١٣٣

له قدماء أهلها قناة^(١) يُجرون الماء فيها إليهم ، وإلى غريبها مشهد الأوزاعي (رحمه الله) ، وميلاده ببعلبك^(٢) وهو نخر المحدثين من أهل الشام ، وله في علم الحديث^(٣) مدونات جمع فيها الصحيح المروى عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرد به أهل تلك البلاد .

وقد كان لبيروت شأن عظيم في غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم بأعباء الدول الحسام . وكان للعلوم فيها سوق ليس بعدها غاية في الرواج ، حتى إنها دُعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منازل وهياكل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها جلاء لم يرجعوا بعده إلى أن عاد إليها العمران في الإسلام بقيام الخلافة في دمشق ، إذ كانت المدن لا تصلح إلا بقيامها بالملك أو قيام الملك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنت قد شهدت لهذه المدينة بطيب الهواء فإنني لا أنكر ما في ريحها الشمالية من الرطوبة التي تحدث في الرأس ألما لا يشعر به إلا الغريب الزائر^(٤) ، غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعتده من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بيروت ريح الصبا التي تتعش النفس ، تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، فربما وجدت هذا الموضع أصالح للسكنى من البلد العتيق . وفي ظني أنه إذا توافر العمران فسيضطرب الناس أن يحدثوا بناءهم في هذا الموضع إذ هو أقرب وجها إلى نسيم الصبا منه إلى ريح الشمال .

وركبت البحر من هذا الثغر المحروس في أول يوم من شعبان ، وجرى مركبتنا هواء شمالي لطيف ليس بالثقل ولا بالخفيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ،

(١) تقويم البلدان ٢٤٧

(٢) أبو الفداء ٣ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠

(٣) ابن خلدون .

واستمر سسيرنا في البحر نحو عشرين يوما إلى أن أقبلنا على مالطة ، وهي جزيرة في أول بلاد الفرنجة ، وبها كنائس معظمة لأهم النصرانية ، فلبثنا يومين في مرفئها نتسوق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلية في ساحل الديار الرومية إلى غرب اللنبردية (١) .

لقاء القيصر والمنصرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئا من زخارف البنيان . ولا وجدنا في أهلها أثرا من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الأبرذور أهل جاهلية وخشونة ، تستعبدهم طائفة طاغية من أنفسهم ، تُجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس ، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميرا فوض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال ، وجعله بمنزلة الوزير في الإسلام . وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب في ولايته ، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره . وليس في مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبنى على عايات تشرف على المدينة ، يظهر أنه كان مسكنا لبعض أمراء الجاهلية ، وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبتها هذا الأبرذور الذي نصر أمته ونصر القسيسين والرهبان كما هو معروف ، وقد نظر بعين العناية إليهم وأحسن بالنعيم الطائلة عليهم ، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم في أموره ويرجع في السياسة إلى رأيهم ، إذ كان القوم من دونهم همجا لا يعرفون القراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل ، ومعظمهم عبيد للتمول من التجار ، يموتون جوعا بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق تعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة تمسك رمتهم ، فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعاش بين أيديهم واحتوائهم أشرف السنن العادلة ؟ فكان الله تعالى قد خص هذه الأمة من الفضل والمعم (٢) بما حرم مثله أعم المغرب . فان

(١) تقويم البلدان ٣١٩

(٢) المسعودي ١ : ٢٣٦

العرب أحل منهم وأحلم ، وأعلى وأعلم ، وأقوى وأقوم ، وأعطى وأعطف ، وأحصى وأحصف ، وأشرى للفخار وأشرف ، وأنفى للعار وأنف . وحسبى بما نقلت إليك من أخبارهم فى هذا الكتاب دليلا على ما ركب الله فى طبائعهم من الأنفة وعزة النفس ، وما آتاهم الإسلام من المحاسن التى تشرفهم وتعالى ذكرهم .

وقد شاهدت فى ديار القوم كثيرا من الأمور التى أخاف إن أتيت على بيانها أن تجرح الحديث إلى الخروج عما أنا بصدد من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتهم غير منطبقة على عادات الشرقيين ، بل كثيرها مستهجن أو باق على خشونة جاهليتهم . ومن الغريب المألوف عندهم أن النساء يمشين فى الأسواق بلا نقاب ، ويجلسن مع الرجال سافرات الوجوه ، وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الأعراض صيانتها فى المشرق من وراء الحجاب . وقد وقع بينى وبين الأمير الذى صحبني فى مرسيلىة مذاكرة فى هذا الأمر وكان يظن أن المرأة ذليلة فى ملتنا وأن منع ظهورها إلى الرجال ناشئ من جهة استصغارها وتحقيرها ، فذكرت له أن الله تعالى قد وفاهن حقوقهن^(١) فى الدنيا والدين ، ووعد الصالحات منهن نعيما مقيما فى الآخرة وأمر بأن تجرى عليهن الوراثة التى لم تكن لهن قبل الاسلام .

وكان أمير مرسيلىة عند ما اتصل به خبر وصولى بالرسالة قد أخرج إلى الجند ولم يترك شيئا من مظاهر الاحتفاء إلا أبجاءه فى سبيل تعظيمها وإجلالها ، فلما سألته عن الأنبرذور أخبرنى أن له غيبة فى رومة لأمر بينه وبين الباب^(٢) الذى هو خليفة الأمم النصرانية ، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوما ، فاستطلت هذه الغيبة منه ، وخفت فوات الحج إن بقيت منتظرا رجوعه ، فرأيت أن أوافيه برومة ، فركب معى من لدن الأمير رسول إلى القيصر وجزنا عباب هذا البحر

(١) قد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله إن لسانكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا إلى أن قال فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .

(٢) كنية البابا بالباب مذكورة فى تقويم البلدان ولفظها بفتحيم الباءين وتشديد هما .

الذى لم تجزه بعدُ سفن المسلمين إلى أن منّ الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة بأيمن طائر وألطف ريح والحمد لله على جميل ما يولينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذور حبر قدومي من لدن الرشيد فسير إلىّ أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته ، فساروا بي إلى حيث هو مقيم في دار الباب ، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والإحكام ، وعُني البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين بتجميلها وتزيينها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن ، وكنت حين جاوز بي الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعباد قد طيحتهم رحي المنون ، فلما دخلت عليه وجدته جالسا على منصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية ، وهي مجللة بالذهب ، وعلى رأسه تاج مرصع بالؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وفي يده قضيب الملك ، وعليه حلّة من الوشي كأعظم ما يكون من حلل الملوك ، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحرايب والأعمدة ، وبينهم جماعة من العلوج وأشراف العساكر وطائفة من الجثالثقة والرهبان المقدمين قد لبسوا الوشي الذي يقيمون به الصلاة في أعيادهم ومواسمهم ، ولكن لم نرمثله على من يجاورنا منهم في المشرق حسنا يعشّي الأبصار بريقه ولمعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب على من الإجلال له وبلغته سلام الرشيد على لسان المترجم ، فكلمني بترفع الملوك الذين توقع جلالتهن مهابة في قلوب الوافدين عليهم ، ولكن من غير أن يكون في نفسه جبروت ، وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلا ، وكان الأمراء والرهبان يمدون إلى أعناقهم ويحذقون فيّ بأبصارهم كأنهم لم يروا من قبلي مشرقيا على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى الترجمان أن يذكرا له هدية الرشيد وأنه يُطرف بها جلالته لارتباط المودة بينهما ، فشكرني على ذلك مرة ثانية ، ثم استدنانى منه وأمرني بالجلوس ، وأخذ يسألني

عن رحاقي إليه عطفاً مال إليه بعد الزرع الذي استغنياني به ، فكنت أجيئه بما تفتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة ، ثم سألتني عن الدولة في المشرق وأنه يروم أن يكون الدهر للرشيدي صفاء ، فأجبتة بما في الإشارة إليه تحفظ عن ذكر بني أدية ، والملاء من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألته أن يأذن لي بالدخول عليه في خلوة وانفراد فأجابني إلى ذلك وهو بظهور ائتناسه بي وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من الوات .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتني أميراً من عظماء دولته ملك قلبي برقة نفسه ، وأحسن من قلبي بلطيف أنسه ، وأحل كرامتي عنده بالمحل الأرفع ، لم يترك أثراً مشهوراً في رومة من قصر منيف ولا منزل منخرف ولا موضع ذي حسن وبهاء إلا سار بي إليه وأرانيه ليعظم في عيني أمر الفرنجة ، فما كنت لأكبر من مبانيهم إلا الكنائس التي يعظمونها ويتأنقون في تمييقها بالرسوم التي تندهي في الحسن وجمال الزينة ، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشاركة^(١) الذين ينههم الدين عنه^(٢) ، وإنما يكونون في حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجداً أو قصرًا منخرفاً كما علمت ، إلا أنه لا يصح انفرادهم بالحذو فيه دونهم لبطلان الموازنه فيما يتركه فريق ويأخذ فيه الآخرون . وفي نفسي أن المسلمين لولا نهى الشرع عن التصوير ما بعد أن يفوقوا فيه الروم ، فقد رأيت من عمل الرسامين في المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون في جودة عمل الروم . ورأيت صوراً من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة

(١) لم يكن للشارفة في زخرفة مبانيهم إلا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور وقد ابتدعوا من رسومها أشكالاً تقيّد الأبصار في الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم في الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التي اتخذوا فيها طريقة الترويق تملأ العين بهجة وارتياحاً .

وهى تمثل رجالاً ونساء وأولاداً بحيث إن الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى ، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشيانة ^(١) ، وهذه غاية فى المهارة لم يبلغها إلا كبراء أرباب العفول من صنّاع الروم . واعظم ما شاهدت من كنائس رومة بيعة بطرس حواري المسيح عيسى عليه السلام ، وهى من عجائب الدنيا ^(٢) ، وفيها من الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب ^(٣) ما أذكرنى جامع دمشق فى بهائه وجماله ، وهى أبدع ما شاهدته من مباني الروم ، وامتدادها مع مقصوراتها نحو ستمائة ذراع ^(٤) فيما سمعت ، وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك ^(٥) ، وهى مسفوفة بالرصاص مفروشة بأخضر أنواع الرخام . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للعمودية يجرى فيه الماء دائماً من نهريشيق هذه المدينة ^(٦) كما تشق دجلة مدينة الزوراء . وفى صدرها كرسى مذهب يجلس فيه الباب فى أيام المواسم والأعياد . وتحتيه باب مصفح بالفضة ^(٧) يوصل إلى سرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد ، ولكنى علمت ان أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قبض فى أنطاكية لا فى رومة ، وأن كرسى أنطاكية عندهم هو المقدم على كرسى رومة ، وفى هذه الأقوال نظراً لمحل لذكرك فى هذا الكتاب . وفى خارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد أربع من النحاس ، وفى أعلاه عمود من الصفر قد رفعت على رأسه كرة مذهب يراها كل من فى رومة كأنها علم لموضع الكنيسة .

(١) القرمانى ٥ : ٢٢٤

(٢) المقرئى والمحاضرة ١ : ٣١ والقرمانى ٦ : ٥٥

(٣) القزوينى .

(٤) تقويم البلدان ٩٩

(٥) ابن خردادبة ٩٣

(٦) تقويم البلدان ٢١١

(٧) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة فى أسفار الرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل

الحروب الصليبية .

ولما كان الغد أذن القيصر لى بالدخول عليه فلقيته في ثياب من الديباج وعليه تاج من الجواهر أعظم مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أن يظهر لى عظم سلطانه ^(١) بما يحوى خزائنه من الجواهر والمال . ولما أمرنى بالجلوس باغته ما أوصانى الرشيد بتبليغه من أمر بنى أمية بالأندلس وما يروم من موافقته عليهم ، ولكن بإيجاز أبعدت فيه التأكيد ليكون له إشارة إلى المصلحة ليس غير ، فخاطبني بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزّه الله) ، فأكبرت ذلك من غير أن أعجب منه ، إذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد . وتتلاقى ولو على بعد البلاد . ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكر في نفسه حتى ظننت أنه سيقول لى إن من الناس من هم أقرب منهم ومن بنى أمية إليه . ثم انبسط له مجال الحديث فقال لى لأرى الإسلام اليوم أقل اجتماع عصية منه في أيام الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب . على أنى أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رقعة مملكة . وأما أمر الأمويين فإنه وعرا المرام لا يناله إلا على تهادى الأيام . إذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعميه على ضعفهم عن ردّ العدو ، نلو شدّ صاحبك عليهم لحوطوه بأطرافهم وقتلوه بغرض واحد تدعوهم إليه الحالة التى يقعون فيها جميعا من العرر والإشراف على الخطر ، ولقد كنت أرى تغلبه قسرا على الأندلس من قبل أن يوافيها الأمويون ، وقد كانت قضائتها على أغراض مضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغلب الجيرة عليهم ، أما اليوم وقد وافوها بالأموال ^(٢) فليس من السداد أن يبادئهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزقة من الرجال « وهم الذين يكون أنفسهم للحروب » ^(٣) ، وربما

(١) ذكر صاحب الأغاني ٢ : ٢١ أن كسرى لما أنفذ رسوله إلى قيصر الروم عامله على السبريد ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك .

(٢) المقدمة ١٥٨

(٣) المسعودى ٣ : ٤٠٩

تعذر عليه مقاتلتهم من المغرب لما هو ناشب من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوان من الأمويين وأهل البيت جميعا ، وقد قيل في الأمثال «إن الزئبر إذا جمع منه حبل يوثق به الفيل المقتلم» ثم إنه ذكر لي عند ما استنهضته إلى مظاهرة الرشيد أن بينه وبين الأندلس ملوكا يحب أن يبقى معهم على عهد المسالمة والمواصلة ، وأنه يوجه همته إلى مناصبة الملوك الذين هم في ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ما وقع بيني وبينه من الحديث ، وقد قال لي في خاتمة المفاوضات قل لأُمير المؤمنين إنني عنيت بحاجته وسأكون ظهيرا له فيما يروم واقرا عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصاحبة منها إلى ما وراء التواذ الظاهر من السياسة كما رأيت ، وليئت في رومة ثلاثة أيام متواليات . وكان الانبرذور قد اتخذ لي وليمة دعا إليها عطاء دولته ، وتكرم عليّ بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف ، ثم طلب إليّ أن آخذ الطريق إلى تونس لأوجه إليه منها برقة عظيم من عطاء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة ^(١) ، فأجبت بالامتثال إلى ذلك ، فسير في صحتي مركبا من أسطوله ليحملها إليه وغادر مركبنا ساحل رومة في يوم شديد الحر من شهر رمضان كأن الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضا وقد حَقَّ تسميته برمضان من الرمض وهو شدة الحر ^(٢)

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على متن السفينة وبين تونس مسيرة يوم وليلة . والله أسأل أن يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل بالتيسير والتسهيل لا رب سواه .

(١) هرقير يانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية .

(٢) الكنز ١٤٦

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد العرب

كتبت إليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم أكتب إليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها إلى الرشيد . فإنني لما قفلت من ديار الروم عرجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن ابن الأغلب وفادتي ، وأخرج إلى زورقا حملني عليه إلى المدينة ، لأن البحر يبعد عنها نحو عشرة أميال ^(١) ، وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامي بإخراج الرمة التي أوصاني بها القيصر إلى مركب الروم لإبعادهم عن مرفأ المسلمين اهتمامي بما سواه من الأمور . ثم إنني نظرت في شأن ابن الأغلب إبراهيم وانقطاع أهل الشيعة إلى حوزة إدريس بن إدريس (رضي الله عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، إذ كست أوجبت على نفسي أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد في هذه الرسالة التي حملني مجاشمها واستودعني فيها أمانته ، فاتصل بي من أخباره معهم جسم حملت خبره إلى ملوكتنا البرامكة (أعزهم الله) . وقد أذكرني حال العلويين في المغرب أيام علي وأبي بكر وعمر بن الخطاب (رضي الله تعالى عنهم) من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التي حفظوها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أبهة الملك إلا ما تدعوهم إليه حاجة الخلافة ، وكذلك أهل الشيعة من الترام الخير واتباع السنن العادلة والمحافضة على القراءة التي قرأها علي (عليه السلام) إلا أن الأغلب (دمر الله ملكه) ينقم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلا أنهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل بيت السلالة الشريفة الطاهرة .

وهذه القراءة التي ينقمها الأغلب من أهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم في صدر الإسلام وأسالت من دماء المسلمين بحارا بما تعصبوا له من الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أبي بن كعب ، وكان أهل الشام في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن المقداد بن الأسود ، وكان عثمان في خلافته قد عقد مجلسا من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع الأقاليم والأطراف ، فجمع الرقاع والأدراج والخفاف والعُسب التي كان مكتوبا فيها القرآن الكريم ، وأمر بأن تحرق كلها وأن ينسخ من الصحف التي كتبت في خلافة أبي بكر (رضى الله عنه) . وكانت مودعة عند حفصة^(١) زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) أربع نسخ^(٢) يبعث بها إلى الديار الإسلامية ، فتولى نسخها زيد بن ثابت الأنصاري^(٣) وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام الخزومي . وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن أبي بكر^(٤) وقال لهم عثمان إن اختلفتم في شيء أو كلمة فاكتبوها بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلغتهم^(٥) . ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة في مكة والشام والكوفة إلا المصحف الذي كان في المدينة فإنه فقد في الحرب التي أثارها يزيد بن معاوية .

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر^{١٦} توارا إلى الإسكندرية وفي نفسى أن أبلغها في عشرين يوما ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرة بضعة أيام إلى أن هدا نائرا لنوء وطابت لنا الرياح ، فسرنا بمعونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس . والقطر المأنوس . ليلال

(١) أبو الفداء ١ : ١٦٦

(٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥

(٣) أبو الفداء ١ : ١٦٦ وابن جبير ١٠٢

(٤) الكندي .

(٥) أبو الفداء ١ : ١٧٦

خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار انتصب أمامنا في عِظَمِهِ وهول مرآه (١) حتى كأنه عمود يلقى القبة الزرقاء ، ويصل بين الأرض والسماء .

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرع لا ينال طويل

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين ميلا ، وربما قدر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعا (٢) ، وهم يقولون إن بانيه الاسكندر الرومى الذى ملك معظم الدنيا أو ملك من خلفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروبا صعبا فى البر والبحر ، فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد بن عبد الملك الأموى (٣) أنه سؤل له جهلة قومه أن يهدمه طمعا فى الوصول إلى ما حوى جوفه من الكنوز المخبأة فشرع فى الهدم والدمار حتى قوض جانبا من هذا المنار . ثم تعاضمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعوض به عنها فكف عن عجز لحقه ولوم نراه يستحقه . وكان مقامى فى الإسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الأبيوردى (٤) ثلاثة أيام ، وكنت أحب مع ما لقيت من أنسه ووجدت فيها من سعة العمران واستبحاره أن أمد فيها بساط الإقامة لولا أنى خفت فوات الحج ، فانصرفت عنها فى اليوم السابع من شوال ، وكنت قد استقرت كثيرا من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أجمل الكتاب بذكره ليبقى نفرا للمسلمين فى استيلائهم على هذه المدينة التى ليس فى بلاد الروم ما هو أعظم منها .

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤

(٢) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علوا مما ذكره يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ١٨٠ هـ أنه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المنارة وربما ذكر المقرئ شيا من ذلك فى كتاب الخطط والآثار . ويقول القرمانى ٦ : ٦٤ إن طولها ألف ذراع لى غير ذلك .

(٣) المقرئى والمحاضرة ١ : ٤٣ والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

(٤) ذكر أبو المحاسن ١ : ٥٢٢ أنه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة .

في ذكر الإسكندرية

الإسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعاً وأحفلها بنياناً ، وإليها المنتهى في المسعة والحصانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض والبحر محيط بها من جميع جهاتها ولذلك يصعب منالها على العدو وإن لم يكن وراءها وعرولاً هضاب يتعزز بها جانبها من البر (١) ، ولقد كانت في قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة (٢) فلما تبوأها الإسكندر الرومي (٣) وصارت كرسى الملك بعده تجللت بجلال الحضارة . وتحتت بحال الحضارة . واتصلت عمائرها تحت الأرض (٤) آراجا يجتمع فيها الماء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت أسواقها في نهاية من الإبداع (٥) ، وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع ، بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهاره أجمع فلا يضل (٦) .

ولقد لقيت في كثير من أماكنها وطرقاتها عمداً وألواحاً من رخام تحمل العامة على الظن بأنها هي إرم ذات العماد (٧) التي لم يخلق مثلاً في البلاد ، وأعظم ما شاهدت فيها العمود المعروف بعمود السواري (٨) وهو مائل للعيان في طرف المدينة تحف به غابة من النخيل ، وهو حجر صلد من الصوان الأحمر ، يتدنى من قاعدة غليظة وينتهي إلى تاج مكلل بالرسوم ، والناس يتولون إنه كان في أعلاه

(١) يقول ابن خلدون في المقدمة ٢٠٥ ضد ذلك ولأنه يسهل وصول العدو إليها .

(٢) المقرئى ١ : ١٤٧

(٣) القروينى ٩٦

(٤) ابن جبير والمقرئى ١ : ١٥٠

(٥) ابن جبير ٣٦

(٦) تقويم البلدان ١١٣

(٧) المقرئى والمسعودى وياقوت وابن جبير .

(٨) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧

قصر معلق في الجول لأهل العلم والرياسة^(١) ، وإنه كانت فيه خرائن كذب أحرقها عمرو بن العاص^(٢) بإشارة عمرو بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليه « المكتتب التي ذكرتها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى ، وإن كن فيها ما يخالفه فلا حاجة إليها فتقدم بإعدادها » ولكن هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهذا الممود أنه نصبه الروم ، عارضة للعمد التي اتخذها الفراعنة أمثال المسلات ، وطمها في تخليد آثارهم في مصر إلى انتضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الإسكندرية لإصحاء الذوق اصاب الطباع والخلق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصبا عندهم واعتدال الحر والبرد في إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وهنُّ البنية^(٣) . ووحدت لهم تصرفا واسعا في التجارة^(٤) لان المال موفور عندهم ، والحيات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم بالنهار^(٥) ، وسمعت أنهم بلغوا من سعة العيش إلى أن بنوا في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ماهى واثنى عشر ألف دكان^(٦) ، وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله في البلدان .

أما المسلمون في هذه المدينة فإنهم على رأسا من القل بخلافة أهل البيت ، ويتعبدون على مذهب الإمام مالك^(٧) ، ولكسهم يجهون بالبسملة في صلاتهم ويتدئون بها عند الخطبة^(٨) كأي بهم قد اقتدوا في ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمرا على غير انقطاع . وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على

(١) المقرئى ١ : ١٥٩

(٢) أبو الداء وأبو الفرج ١٨١ والمقرئى .

(٣) المقرئى ١ : ٤٤

(٤) المحاصرة .

(٥) ابن جبير ٣٩

(٦) المقرئى والمحاضرة ١ : ٥٩ والقرواى ٥ : ١٣٧

(٧) المقرئى .

(٨) المقرئى ٣٣٤

أربعائة ألف^(١) بين نصارى ويهود، وهم يؤدون جزيتهم إلى الرشيد ديناراً واحداً ميمونيا^(٢) بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين ، واستمرت على ذلك في عهود الخلفاء السالفة . وفي الإسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلا أن معظم سوادهم^(٣) روم يرجعون في أمورهم إلى بطركهم بالقسطنطينية ، وقبط ينكرون على الباب خلافته لالسيح ويرجعون في ملتهم إلى بطرك لهم يسمى مرقص^(٤) كرجوع المشاركة إلى بطركهم في أنطاكية^(٥) كما مرّ في موضعه من الكتاب .

وهؤلاء القبط هم أهل مصر الأولون ، وفي أيديهم الكنائس المعظمة التي لا يوجد مثلاً عند الروم ، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين عليها تحت ظل الإسلام . وأعظمها بيعتان إحداهما كنيسة مرقص^(٦) وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوام^(٧) ، فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات في ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان^(٨) قد موه سقفها بالذهب ، وصورت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفي جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث^(٩) ، وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم في ملتهم بأشياء لو بدت منهم في العراق أو الحرمين لخلبت عليهم

(١) ابن خردادبة ١٢١ والحاضرة ٥٩ والمقریزی ١ : ١٦٢

(٢) ذكر صاحب الأغاني أن هذه الدنانير سميت بالميمونية نسبة إلى ميمون بن عامر ١٧ : ٧٢

(٣) المقریزی ٣ : ٤٩٢

(٤) ذكره المقریزی ٣ : ٤٩٣

(٥) المسعودی ١ : ٢٧١

(٦) المقریزی ٣ : ٤٩٢

(٧) ذكرها ابن خلدون في المقدمة ١٧٨

(٨) المقریزی ٣ : ٥١٩

(٩) القرمانی والمقریزی ١ : ١٦٢

الحَيِّينَ في أسرع من طرفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالإنجيل وإخراج آياتهم إلى الأسواق وحمل صلبانهم على رءوس الرماح ^(١) وغير ذلك مما لا ينقيمه منهم المسلمون ^(٢) ، وكأنهم إنما يتسامحون في أمرهم تجنباً لإثارة السواكن أو طمعا في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء . بل مودة وإخاء . وقد وقع لهم وأنا في الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد ، يتخذونه في اليوم الذي ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك ^(٣) ، وعادتهم في هذا الموسم أن يحياوا ليلهم كله بالسرور ، ويخرجوا آياتهم إلى الأسواق ، وينثروا كنائسهم بالشموع المليحة الأصباغ . فكنت أرى كثيرا من المسلمين يتابعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في أزقة المدينة ، كأنهم يشاركون النصراني في أفراحهم ، ويظهرون الأئس بهم إلى انقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتألقون في صنوف الملابس من الخبز والديباج والوشى الذي يصنعونه في مدينتهم ، ويضرب به المثل في جميع البلاد ^(٤) ، ونوع من الكتان يتنافسون في لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخطط منه بدرهم فضة ^(٥) وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة في لباس المسلمين ^(٦) مثل ظهورها في أهل الذمة ، فقد حدث الرواة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير ^(٧) ، ولبس ثيابا بأربعة آلاف درهم وصلى

(١) المقرئى .

(٢) المقرئى ١ : ٤٩٤

(٣) المسعودى ١ : ٢٧٢

(٤) الأغاني ٧٦٥

(٥) المقرئى ١ : ١٦٣

(٦) تزيين الأسواق ٢ : ٥١

(٧) مجمع الأنهر ٩٤

فيها^(١) ، وكذلك حدثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوبا من الخبز^(٢) وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهتدة^(٣) ، فلا أرى موضعا بعد هذا لأن يكون لبس الحلال الفاحرة محظورا في الشرع^(٤) .

الديار المصرية والنيل

توسع بي الكلام إلى ما خرجت به عن قص الرحلة ، ولكنني أعود إلى ذكر الأمور التي شاهدتها في ديار مصر ، فإني ركبت من الاسكندرية أريد القسطنطينية ثم أسوان ثم عيذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر . فمررت بدمهوروصا وربما وطيتة وقلوب في أسرع مدة من الزمان . إذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعري يعترض الركاب . وكانت التجارة متصلة في طريقنا إلى القسطنطينية ، ومن حولها اخضرار في السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرني من كان يصحبني من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعا في كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء^(٥) ، أولها شهر أبيب المعروف بتموز عند المشاركة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضياعها في بحر من الماء لا سبيل إليها إلا في الزوارق . وثلاثة أشهر مسكة سوداء أولها شهر بابيه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر^(٦) ، ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طينا عليكا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الإبلين^(٧) وثلاثة أشهر زمردة خضراء

(١) مجمع الأنهر ٧٩٤ ونقل الشيباني عن ابن جريح أن ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف

درهم العقد انفراد ٣ : ٣٤٣

(٢) الرزاني ٤ : ١٠٤

(٣) البحارى وغيره .

(٤) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

(٥) المنوفى

(٦) في المسعودى ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلها هي اليوم عندها

(٧) عبد اللطيف ٣

أولها شهر طوبة الذى يمر بنا اليوم ينجم فيه الزرع ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدىء من برمودة المعروف بأبريس عند الروم فيتورد الزرع ببلوغ الحصاد . ويكون كسبيكة الذهب فى المنظر .

وإنما يجلب الخيرات إلى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها الجُرْز ما يحمل إليها النيل من الطين ويفيض عليها من الماء فى أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستعيض بالمنفعة منه عن المطر الذى يحبسها الله عنها رفقا بمصالحها أن تختل ومساكنها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه (١) «أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجُرْز فتخرج به زراعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا ينصرون » بفعل الله عز وجل النيل من الغمورة والاستبحار بحيث يكفى البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره ، والناس يجمعون محاسنه فى ثلاثة (٢) : الأول غمورته إلى أن يكون بحرا تسير فيه السفن . والثانى بعد منفجره إلى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيب مسلكه على رمال تروقه وتأخذ المزوجات الغريبة منه . وإنى وجدت له خلة من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن هى أنه يزدرع عليه مالا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم (٣) فكأن من نهر تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك ثم لا نحصل المنفعة منه مثل ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك فى الفيضان أنه يبتدىء بالزيادة فى شهر أبيب ، والقبط يقولون إذا دخل أبيب . كان للاء دبيب (٤) . ثم يغلظ فى مسرى وهو شهر آب ، ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة إلى أن يقف حدها فى منتصف توت ،

(١) المنوفى .

(٢) المقرئى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥

(٣) ابن بطوطة ١ : ٧٧

(٤) المقرئى .

وهو شهر أيلول المعروف بسبتمبر عند الروم ، ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحسار وقد كفى الناس سقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم ^(١) :

كأن النيل ذو فهم ولب لما يبدو لعين الناس منه
فيأتي حين حاجتهم إليه ويمضي حين يستغنون عنه

وصفوة القول في هذا الفيضان أن منشأه السحب المطيرة ^(٢) إلى ما وراء خط الاستواء من تلك البطاح ، وللقبط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها في هذا الكتاب ^(٣) ، وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه « قبل حدوثه » من هبوب الريح في أول يوم من بؤونة وهو شهر حزيران عند المشاركة . وقد قرأت في بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل في الجنة ^(٤) ، وأن حائدا اليهودي الذي تاه في الأرض دهرًا لم يستقر فيه بموضع وصل إلى الجنة مما وراء السودان ^(٥) فوجد أرضا ذهبًا وترعا ذهبًا وتلاعًا ذهبًا ^(٦) ، ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله في دواوين الشعراء فأحببت أن أذكره لك حتى إذا كنت بعيدا أن تعجب منه من حيث الحقيقة فلا أقل من كونك تعجب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى القسطنطينية نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ^(٧) ، فلما أصبحت وكان يوم الجمعة جمعت في جامع عمرو بن العاص الذي قاد الجيوش الإسلامية إلى هذه البلاد وانترعها من يد المقوقس

(١) المقرئى .

(٢) تقويم البلدان ٤٥

(٣) راجع المجلد الأول من خطط المقرئى .

(٤) المقرئى ٥١ : ١ والرقائق ٣٧٥ : ١

(٥) الاسحاقى ٢٦١

(٦) الموفى .

(٧) المحاضرة ٣ : ٨٩

كما هو معروف. وهو من المساجد المشهورة في الإسلام حسنا وتزيينا وإحكام صناعة، وجدت على حائطه القرآن الكريم مكتوبا على ألواح بيض من الرخام يقرأه الإنسان وهو قاعد^(١) ، ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابه والأولياء والشريفات العلويات . ولما مالت الشمس ركبته إلى موضع غربى المدينة يقال له الجزيرة وهو مجتمع اللهو والتزهة لإحاطة الماء به ، وهناك المقياس الذى يعتبر به قدر زيادة النيل^(٢) ، بناء سليمان بن عبد الملك الأموى فى آخر المائة للهجرة النبوية المشرفة ، وهو عمود رخام أبيض مفصل على اثنتين وعشرين ذراعا من الأذرع القديمة التى كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التى تزيد عنها باصبع وثلاثى إصبع^(٣) ، وهو مبنى فى موضع ينحصر الماء فيه فإذا انتهى الفيض إلى ثمانى عشرة ذراعا منغمرة فيه كان ذلك الغاية فى طيب العام^(٤) .

وقد أخبرنى عبد الرحمن هذا القاضى النبيل أن ما يغمره النيل بمصر يبلغ مائة ألف ألف فدان^(٥) ، والفدان عندهم أربعائة قصبة ، والقصبة عشر أذرع ، « وهو القدر الذى وجدته هشام بن عبد الملك عند ما مسح البلاد » ، وكلها ذات خيرات كثيرة . وغللات وافرة . مما يحمل الإنسان على أن يظن فى أهلها اتساعا فى النعمة واسترسالا فى الطيبات من بسطة العمران ، غير أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول^(٦) وتولاهم الشقاء ،

(١) القزوينى ١٥٧

(٢) المقرئى وابن جبير ٥١ والمسعودى ١ : ١٦٤

(٣) ابن نرداذبه ١٦١ والمسعودى ١ : ٤٠ والمقرئى ١ : ٥٩

(٤) ابن بطوطة ١ : ٧٨

(٥) المقرئى ١ : ٨٠

(٦) المعامرة ٢ : ١٩١

(٧) المقرئى ١ : ٤١ - قول الرحالة مائة ألف ألف فدان انتقده ابن المدير بألف ما يزرع

فى مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان .

ولم ينفقوا المال الذى أعطاهم الله فى مطالب السعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقوا القلوب رفقا فى جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئا من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقيل عليهم فى الخراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتدارا فى تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الأمم .

فى وصف الأهرام

وفى غد اليوم الذى وصلت فيه إلى الفسطاط ركبت إلى أهرام الجيزة ^(١) ، وهى ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم ^(٢) غربى النيل ، وهى من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطرا . وأبقاه على الأيام أثرا . والعهد بجميع الأشياء يخشى عليها من الأيام إلا هذه الأهرام ، فإنها صبرت على طوارئ الحدثان حتى راح يحشى منها على الزمان . اثنان منها عظيمان وواحد دونهما فى العظم ، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان فى السمو ، يخيل للرائى أنهما نهدان قد نهدا فى صدر الديار المصرية ^(٣) ، وهما مبنيان بحجارة بيض صلبة قد اقتلعت من مغاور تحت الأرض بعيدة يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . وقد تقدمت إلى بعض من كان يصحبى من لدن السلطان أن يطلق سهمها إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظة وساعد قوى فسقط السهم دون تلئى المسافة ^(٤) ، أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلع مثلث الزوايا مربعا ، يبتدىء من قاعدة عريضة ويضيق قليلا قليلا كلما ارتفع إلى أن ينتهى إلى سطح صغير يكون مبرك بعيرين فى الهرم الصغير ومبرك ثمانية فى الهرمين الكبيرين . وهذا نمط فى البناء يزدده متانة يقوى بها على ممر الليالى .

(١) عبد اللطيف ٥١ والشريشى ٢ : ١٠١ والمقرئى .

(٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتاب .

(٣) تقويم البلدان ١٠٨

(٤) ابن بطوطة ١ : ٨٢

أما السبب الذى دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترا تحت ظل الإبهام ، فمن قائل إنها بنيت مستودعا للعلم ، ومن قائل إنها اتخذت لتخزين الرمال الثائرة من القفر على الفسطاط ، وفى وجه من التاريخ أنها بنيت لدفن الكهنوز (١) واحتكار الحبوب لأيام يوسف عليه السلام (٢) ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للأشياء ، فإن العلم لا تحفظه الحجارة إن لم يستودع صدور الرجال ، والرمل لا يحجزه سد غير متصل العمارة ، وبين الهرم والآخر فرجة واسعة المجال ، والحب لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له وفى موضع لا يقدر منه أن يتناوله . ولست أظن إلا أن هذه الأهرام قد بنيت لحودا (٣) للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة إلى هذه الدار ، ويعنون بتحصين مدافنهم من عبث الأدهار ليحفظوا فيها حلبيهم وأموالهم إلى يوم النشور كما كان يصنع فى جاهليتهم أهل مصر . إذ يحملون مع الأموات مالهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون (٤) .

وقد قرأت فى بعض الكتب أن باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد ، وجه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة فى اعتقادهم وكتب عليه «أنا سوريد الملك أكملت بناء الهرم فى ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له ملكا فليهدمه فى ستين سنة (وفى رواية ستمائة سنة) ، والهدم أيسر من البنيان ، وقد كسوته بالديباج الصنف فليكسه بالحصير والحصير أهون من الديباج » (٥) ، أما توجيه زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع

(١) المقرئى ٣ : ٢٢

(٢) المحاضرة ١ : ٣٤

(٣) المقرئى وتقويم البلدان ٨ : ١٠

(٤) عمد اللطيف والمحاضرة

(٥) ابن بطوطة ١ : ٨٢ والمقرئى والمحاضرة .

ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم لإياها . وأما الكتابة التي يعزونها إلى فرعون فإنني لم أجدها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحدا من الناس يقرؤها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرئت ما صح أن تكون كسوته بالحصير مما يعجز عظماء الملوك ، وسعته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خطوة ، إنما المعجز في هذه الآثار هو إحكام بنائها ^(١) بهذا الشكل البالغ النهاية في الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شيء تتلاصق به من السكس وغيره من المواد ، ولو أن نجارا اتخذ صندوقا من الخشب ما أحكم عمله ^(٢) ووصل قطعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الإبرة الصغيرة .

ورب زائر يقف بهذه الأهرام فتشغله الدهشة بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضحام السلطة عظام الصول والحول . غير أني تمثلتهم في نفسى ملوكا عتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد في مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتمل سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أني أتمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه في البر والإحسان . ولا انتفعوا به في غرض من العمران . بل رفعوا به جبالا شاهقة من الصوان . وليس في أحد الأمرين منصرف عن لؤم بهم أو لوم أوقعه عليهم ، فلئن أنفقوا المال في غير سبيله لقد أسرفوا في الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم بالعنت الشديد لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قامت كالصومعة ^(٣) ومثلت رأس آدمي وعنقا بارزة من الأرض في غاية العظم يسميها الناس بأبي الهول ،

(١) عبد اللطيف ٥٣

(٢) الابشيى ٣ : ١٧٧

(٣) المقرزى ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠

ويزعمون أنها طَلَّسَ الرمل لثلاث يغلب على أرض البحيرة^(١) ، وهى تشهد لصناع ذلك الوقت من القبط بحذقهم فى فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على كبره ، وجعلوا عليه حمرة لا يزال دهانها محفوظا مع الحجر^(٢) ، وكأن الزمان يُعَيِّرُه رونقا وجدة ، حتى إنه ليخيّل للناظر إليه أنه ذو مسحة من جمال وأن شفّته تنفتحان للابتسام ، وقد أخبرنى حاجب البيت أنه كانت له لحية تكسرت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا^(٣) ، إلى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد^(٤) إن بمصر ثمانين كورة فى كل كورة مدينة عظيمة وفى كل مدينة آثار حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان^(٥) .

إلى عيذاب بخُدة فالبلد الحرام

كان انفصالنا من الفسطاط فى بكرة يوم قارس برده ، وكانت العارة متصلة فى طريقنا على شاطئ النيل ، فاجتزنا بلدًا يعرف بمُسْنِيَةِ ابن خصيب^(٦) فيه الأسواق والمرافق والحمامات ، ثم اجتزنا بلدة يقال لها أنصتا وهى تبعد عنه بمرحلة طويلة^(٧) فيها شجر اللبخ^(٨) الذى تصنع منه السفن ، وكثير من العمود والصخر الجمّل

(١) القرمانى ٦ : ٥٥

(٢) عبد اللطيف ٥٩

(٣) عبد اللطيف ٥٩

(٤) المقرئى وكتاب المحاضرة للسيوطى .

(٥) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعوبة عشر منها فى سائر البلاد وباقيها فى مصر .

المقرئى والمحاضرة والقرمانى ٦ : ٥٥

(٦) ابن جبير ٥٤

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) المقرئى ١ : ٢٠٤

بالنقوش والرسوم ، وفي بعض الكتب أنها كانت مسكناً لسحرة فرعون (١) ، ثم اجتازنا بحاذقة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز (٢) وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه إلى جهات أسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته ملكة يقال لها دلوكة وقاية لابنها من الوحش أن يهاجمه في مزاولة القنص (٣) ، مع أن الأقرب إلى العقل أن يكون بناؤها له خوفاً من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التي يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هي في الجانب الآخر . ثم مررنا بمنفلوط في البر الغربي (٤) وفيها قبح مشهور برزانة حبه (٥) ثم بأسسوط وهي من النيل على ثلاثة أميال ، فيها الأفيون المصري الذي يحمل إلى سائر البلاد (٦) وهو عصارة الخشخاش الذي يزرع فيها (٧) وفيما جاورها من البلاد ، ثم ركبنا مرحلتين إلى إنخيم وهو بلد مشهور فيه البرابا العظيمة التي صور فيها ملوك مصر (٨) وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النسر الطائر في برج العقرب (٩) ، وهي مرفوعة من صخور منحوتة ، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش (١٠) ، وعليها سقف من الحجر مغشّى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرر إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المسند لا يعلم ما هو ، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظام الأمور ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

(١) ذكر المسعودي ١ : ٢٨٤ الإسرائيليات من الأخبار بمعنى الحكايات التي لا طائل تحبها وربما كان هذا الخبر لاحقاً بها .

(٢) المسعودي ١ : ١٧٢ والقرماني ٥٧٦

(٣) المقرئ ١ : ٣٨

(٤) المسعودي ١ : ٢٧٢

(٥) تقويم البلدان وابن جبير ٥٧

(٦) القزويني ٩٩

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) القرماني ٦ : ٥٦

(٩) ابن بطوطة ١ : ١٠٤

(١٠) القزويني ٩٤ وابن جبير

ثم تبادى بنا السير من هذه البلدة إلى دندرة وهى مدينة عتيقة يقال إنها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام وفيها بربا عظيمة من آثار الفراعنة يحف بها نخل كثير^(١) ، وقد تحققت فيما رأيت بها وبغيرها من آثار القبط صحة ما نقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة فى زمن كان به ظلام وجاهلية للناس ، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلا باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم ، وكذلك قوم موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلا بعد مقامهم فى مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد أن للقبط فى فلسفة التاريخ نكتة شغلت عقول الحكماء من كل عصر وأمة ، حتى ذهب أفلاطون فى بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التى بلغوها من الأدب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم .

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سيرهم وأسرارهم فلا لوم نوجهه عليهم من قبيل التقصير أو الإهمال لأنهم لم يغفلوا عما وجب عليهم نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا أن يستبقوه على الأيام صلة دائمة فيما بيننا وبينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان « الحجر » ليأمنوا اتصاله بنا وإفادتنا به الغرض الذى شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة . وإنما أفسد هذه الصلة علينا العفاء الناشئ من سنة الغلب فى الناس ، إذ يتعاقبون فى الأرض دولا بعد دول وأجيالا تحيا بموت أجيال . وتحتاج لحفظ نوعها أن تبعد الجيل الذى كان من قبلها وتسبل على آثاره ستر المحو والعفاء ، وهذا هو السبب الذى قطع الآخرين عن الأولين ، وعمى علينا قراءة رموزهم إن تبد لنا غوامضها تفدنا علما واسعا من حكمتهم ، ونبا صادقا من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيت لهؤلاء القبط من صور على الحجارة مودعة هذا العلم تنظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبار القدم . وتبتسم بشفاة تكاد تنطق ولم

يصمتها الوجع كأنى بها تنتظر أن مخاطبها بلسان تعرفه وإشارة تفهمها من رموز أهلها لتبشع لنا بما استودعوها من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت في آثارهم من الصور (غير الأوثان التي كانوا يعبدونها والحيوان الذى دخل في ملتهم بطريق التكريم إلى أن صار له تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعياذ بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم هياكل مختلفة لملوك وسوقة منهم تمثلهم في معاشيتهم وأعمالهم وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشياءهم ، وليس بينها صور تمثل أناسا غيرهم من الأمم مثلما نرى في آثار الفرس الذين صوروا اليهود والبط والكنعانيين والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خلطة مع الأمم ، ولا اتسعت لهم الفتوح في دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا إلى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات وأغناهم مصرهم عما سواه من الأمصار . وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بلدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تنثره باديتهم الجذباء من نعمة العمران .

عود إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقى ، وهى من أعظم مدائن مصر^(١) ، فيها قبائل من عرب عدن وغيرهم^(٢) ، وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلا قوص وأسوان وجهات بليس^(٣) ، وربما كانوا في أسوان أكثر منهم في بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قریش وقحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر^(٤) ، وليس هذا أول عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبار السالفة^(٥) أنهم غزوها في عهود الفراعنة الأولين واستقروا بها .

(١) المقرئى ٢٣٦ : ١ وابن بطوطة ١٠ : ١

(٢) تقويم البلدان ١١١

(٣) المقرئى ٨٠ : ١

(٤) المسعودى ١٩١ : ١

(٥) المسعودى .

زمننا فيما لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان. وقوص هذه المدينة فرضة التجار
اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن
يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه ^(١) ، (وهى المعروفة بالجنادل والصخور)
فتنقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة إلى مراكب
المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحجاج إليها
في ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل .

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهى مفازة قاحلة
لا عمارة فيها البتة ، فكنا نبيت فيها حيث جن الليل علينا ^(٢) ثم نفوز إلى ورود
الماء من آبار أو مناهل لا نكاد نترك فيها جرعة ماء بعد سقاية دوابنا ، وكنت
إذا أصابنا رقدة من حرٍّ أجلس فى هودج على ظهور الجمال وأرنى عليه الأستار
محركا للهواء فيهن على احتمال عنتها الشديد . إلا أن صحبى من لدن السلطان كان
يبرح بهم العطش ويجهد دوابهم فى الأيام الآتية ، لأن السموم كانت تنشف المياه
فى الأسقية ، فكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبرة فارغة من الأحمال
ويعطشوها قبل الورد ثم يوردوها على الماء نهلا وعللا حتى تمتلئ أجوافها ثم يشدوا
أفواهها كيلا تجترفتبقى فيها الرطوبة فاذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبرة من
هذه الجمال وسقوا خيلنا مما فى بطونها ^(٣) ، وفى هذا من المشقة ما لم ينزل بنا
أشد منه فى جميع ما طرقتاه من البلاد ، ولم نزل فى مكابدة عنائه الشديد وقد أضرت
نا الحذر وأخذ منا مأخذه حتى سهل الله وصولنا بالسلامة إلى عيذاب ، والحمد لله
لجميع ما أولاه . حمدا يبلغ رضاه . ويستفيض النعمة من علياه .

وهذه المدينة هى آخر بلاد مصر ^(٤) ، وعاملها مفقوض من لدن الليث
الفضل الأبيوردى ، وهى موسعة بأسباب الكسب من الحجاج إلا أن مبانيتها

(١) المسعودى ١ : ٤٧ وابن جبير ٦١

(٢) ابن جبير ٦٣

(٣) القزوينى ١٢

(٤) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٠٩

أشبهه ببيوت القرى منها ببيوت المدن^(١) ، وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء^(٢) ، وليس لأهلها حرفة للتعيش إلا تعمير سفن للحجاج يسمونها الجلبات واحدها جلبة وهى مالفقة الإنشاء ، ولا يستعملون فيها المسامير وإنما يخيطنون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسرا من عيدان السخل ثم يطلون بها بالشحوم والنورة^(٣) ، فتستمر عرضة للخطر وآفة لحجاج البيت ، يفرق الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة^(٤) .

ولما أخذت فيها نصيبا من الراحة ركبنا البحر ثلاثة أيام إلى جدة ، وهى قرية كبيرة تجتمع فيها مراياك الحجاج ، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت فى ولاية الفرس . وفيها قبة مشيدة يقال إن موضعها كان منزلا لحواء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين^(٥) ، وهو أحفل بناية فى المدينة ، فمكثت فيها بقية النهار ثم ركبنا عنها تحت الليل إلى القرين وهو محط رحال الحجاج (لإسراعا فى موافاة الرشيد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمت بركوبه إليها من مكة فى صباح اليوم الذى وصلت فيه إلى جدة ، فباعتته فى جوف الليل ثم سررت منه إلى مكة المكرمة مهوى الأفتدة الصالحة ، فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهمت إلى الله تعالى فى موضع استجابة الدعاء^(٦) من البيت العتيق ، والحمد لله عز وجل على أن شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم .

(١) تقويم البلدان ١٢١

(٢) المقرئى ١ : ٢٠٣

(٣) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ١ : ٧٨

(٤) المقرئى ١ : ٢٠٣ وابن جبير ٧١

(٥) أى سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠٠ وابن جبير ٨٠

في ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرفها الله فانها بطن واد (١) بين الجبال تسع من الخلق ما لا يعلمه إلا الله سبحانه (٢) لأن الحجاج الوافدين إليها قد يزيدون على مائتي ألف في الموسم ، إذ كان الحج مفروضاً على المسلم المستطيع في العمر مرة لقوله تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» (٣) ، فالوقدّرنا عدد الرجال بثلاثين ألف ألف ، وقدّرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبها منهم في كل سنة أكثر مما ذكرنا ، فما بالك بمن يحج أكثر من مرة في عمره ، ويقال في اجتماع الناس إليها من جميع الأطراف إنه لو جمع ما يباع ويشترى بها من السلع والمأكّل والبضاعات في ثمانية أيام وقت الموسم لأقام الأسواق (٤) في العراق كله ونال كل واحد من أهله نصيبه من حاجته .

ولها كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب ، أولها باب المعلى (٥) وهو إلى الشرق الشمالى ، ومنه يذهب الذهاب إلى الحجّون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر في الأشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لما غلبه على الخلافة التي كان يناصب عليها الأمويين ، ثم باب المسفل وهو إلى الجنوب ومنه دخل خالد ابن الوليد يوم الفتح ، ثم باب العمرة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرها جبل حراء وهو الذي اهتز حين كان فوقه النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما فقال له « اثبت حراء فإنا عليك إلا نبي وصديق

(١) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٠٨

(٣) سورة آل عمران .

(٤) ابن جبير ١١٩

(٥) ابن بطوطة ١ : ٣٠٤ وابن خلكان ١ : ٣٩٨

وشهيد» (١) وكان (صلى الله عليه وسلم) يختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهي قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذي خلق" (٢) .

وكفى هذه البلدة شرفاً أن بناها آدم (عليه السلام) (٣) وهبط إليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحي على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التي هي معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة مما ليس مثله في جميع العالم . فمما تبركت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبة الوحي (٤) التي فيها بنى النبي (صلى الله عليه وسلم) بخديجة أم المؤمنين (رضي الله عنها) والموضع الذي كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تبركت بالمشاهدة وتقبيله ، وزرت دار أبي بكر ودار جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين ودار الخيزران التي قدمت لك ذكرها في الرسائل السالفة ، وهي على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر المعروف بمنزل الأبيجر (٥) ، وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التي في الجبال والغار الذي أوى إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار ثور (٦) الوارد ذكره في القرآن ، ولكن لم يتيسر لي ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لي مزار بعض المواضع الميمونة التي هي في نفس البلدة .

وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حضين الملائكة لقوله تعالى (وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) (٧) ، وقد أخذ الناس في تعظيمه والحج إليه من الجاهلية والفرس والعماليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت

(١) ابن جبير ١١٢

(٢) المسعودي ١ : ٣٠٧ وأبو الفداء ١ : ١١٧

(٣) وربما لم يجده ابن خلدون خبراً صحيحاً كما في المقدمة ٣٠٦

(٤) ابن جبير والأزرقي .

(٥) الأغاني ٣ : ١١٦

(٦) ابن جبير والأنس الجليل .

(٧) المقدمة ٣٠٦ والمسعودي .

الولاية عليه بعد ولد إسماعيل إلى جرحهم وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم ،
وإلى ذلك يشير مضاض بن عمرو بن الحارث الجرحى بقوله (١) :

وكنا ولاية البيت من بعد ثابت نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر

كأن لم يكن بين المجنون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ثم صارت ولايته إلى خزاعة ثم إلى قریش بعدهم وكانت صورة إبراهيم
وإسماعيل ماثلة (٢) فيه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك
زهير بن أبي سلمى في قوله :

فاقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرحهم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إلى عبد الله بن الزبير
(رضى الله عنهما) فنزع عن كسوته المسوح والأنطاع وكساه الديباج الملمون واتخذ
له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيبه حتى يوجد ريح المسك
من خارج الحرم (٣) ، فلما رماه يزيد بن معاوية بالمنجنيق بعث إلى صنعاء فى الفضة
والكلس فحملهما ، ثم شرع فى البناء على أساس الخليل إبراهيم عليه السلام ،
فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والترامى ،
وأحرق مكة ورمأها بالمنجنيق حتى تصدعت جدران الكعبة نسأل الله السلامة

(١) الأغاني ١٣ : ١٠٨ وأبو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والمقد الفريد ٣ : ٢٧

، مروج الذهب ١ : ٢٠٣ أنه ثابت بن إسماعيل ولعل فى إحدى الروايتين أو كلتيهما تحريف
هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

وفى العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان فى زمن النبي صلى الله

عليه وسلم .

(٢) المسعودى ١ : ٣٠٥

(٣) الألبسي ١ : ١٥

من شرور الأنفس وسيئات الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على الصفة التي بنتها عليها قريش^(١) في أيام النبي (صلى الله عليه وسلم) قبل النبوة^(٢) ، فبناها على ذلك الرسم وهي باقية عليه إلى أيامنا .

وهذا البيت المكرم مبنى بالحجارة الصُّمَّ السود مفروش بالرخام المجزَّع ، وفيه عمد ضخمة من الساج ، وسقفه مغشَّى بالحرير الملون ، وهو قريب من التربع ، ونصفه الأعلى من الفضة المذهبة^(٣) وله أركان أربعة أولها الركن الشرقى الذى فيه الحجر الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ولا يُدرى قدر ما استتر من الحجر فى الركن^(٤) ، وسعته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبي صلى الله عليه وسلم بيده^(٥) على ما هو معروف عند الكل ، ثم الركن العراقى وهو شمالى . ثم الركن الشامى وهو غربى . ثم الركن اليمانى وهو جنوبى . وارتفاع هذه الأركان ثمان وعشرون ذراعا إلا الركن الشرقى فانه يزيد عليها ذراعا فى الارتفاع^(٦) لانصباب السطح إلى الميزاب^(٧) ، وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعا^(٨) ، وبابها فى الصفح الذى بين الركن العراقى والركن الشرقى على أحد عشر شبرا من الأرض . وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش^(٩) وطوله ست أذرع وزيادة ، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الأسود ويسمى ما بينهما الملتزم

(١) المقدمة ٣٠٧

(٢) أبو الفداء ١ : ٢٠٨

(٣) ابن جبير ٨١

(٤) ابن بطوطة ١ : ٣١٣

(٥) المسعودى ١ : ٣٠٥

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠٧

(٧) ابن جبير ٨٠

(٨) الكنز ١٢١

(٩) العقد الفريد ٣ : ٣٥٩

وهو موضع استجابة الدعاء يتراحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لا يخلو منهم ساعة من نهار أو ليل ، وقد أخبرني أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خلوا من طائف به أو مصل ، وأخبرني وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة أن في مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيماً لها^(١) ، إذ كانت أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات « مقام إبراهيم » ومن دخله كان آمناً .

وفي الركن العراقي المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهي بالراق عليه إلى سطح البيت ، وتحت قبو فيه حجر مغشى بالفضة^(٢) تبركت بزيارته ولمسه وهو مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذهب في صحن الحجر قبر إسماعيل (عليه السلام) وموضعه رخامة بل رخامتان خضراوان فيهما نكتة يميل لونهما إلى الاصفرار^(٣) حتى يخيل للناظر أن ذلك تجزيع بأيدي الصناع ، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبرهاجر أم إسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة خضراء أيضاً ، وفي مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئر زمزم^(٤) ، وهي البئر التي شرب منها الخليل عليه السلام^(٥) وداخلها مفروش بالرخام ، وعمقها فيما يقال إحدى عشرة قامة ، أربع فضاء وسبع ماء ، وماؤها لمن شربه كما ورد عنه « طعام طعم وشفاء سقم » .

أما الحرم فإنه يحاذق بالبيت العتيق من جميع جهاته وهو قائم على عمد من الرخام^(٦) ، وله صوامع سبع ، أكبرها في دار الندوة^(٧) وأصغرها على باب الصفاء ،

(١) القزويني ٧٧

(٢) الماوردي ٢٧٨

(٣) ابن حبير ٨٦

(٤) تقوم البلدان ٨٧ والشريشي ٣ : ١١٤

(٥) في العقد الفريد ٣ : ٣٦٠ أن سقفها قبو منخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل

ركن منها عمودان من رخام متلاصقان .

(٦) في العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين نحو ١٠ أذرع .

(٧) ذكرها الاتليدي ٧٦

وهو أكبر ابواب الحرم ، ثم بعده باب السلام وباب السِّدرة وباب الندوة^(١) ، وشاهدت في بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفاً بخط زيد بن ثابت الأنصاري^(٢) ، نُسِخه بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة ثمان عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك ، ولا أدري في أي موضع كان قبل أن يوضع هناك ، لأنه لم يكن للحرم في تلك الأيام جدار ، وإنما كان موضعه دوراً^(٣) لم تتم زيادتها فيه إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلا في خلافة المهدي (رحمه الله) ، وهو الذي زينته بالرسوم^(٤) وكتب اسمه في مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذي صنع ، ومما كتب على سارية منه خارج باب الصفاء (أمر عبد الله محمد المهدي "أصلحه الله" بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفاء لتكون الكعبة في وسط المسجد في سنة سبع وستين ومائة) .

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت في طريق إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار . فوجدتهم^(٥) يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التي تأخذ بشأر المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ، وبلغني أن يجوارهم أعراباً لم يدخلوا في دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالجيم كافاً مخففة فينادون الرجل يا ركل^(٦) ، فوصلت من مكة إلى بطن مر^(٧)

(١) ابن جبير ٨٩ والكنز ١٠٣

(٢) الكندي وابن جبير ١٠٢

(٣) المقدمة ١٠٨

(٤) ابن الأثير والخليس ٢ : ٣٢٠ وابن جبير ١٠٧

(٥) راجع مروج الذهب والأغانى وتزيين الأسواق .

(٦) الأغانى ٩ : ١٣٩

(٧) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥

وهو واد خصيب ذو عين فؤارة ، ثم عطفت منه إلى عسفان وهي مدينة محف بها الجبال وفيها كثير من شجر المُنْقُل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان (١) (رضي الله عنه) ، ثم ركبت إلى الخُلَيْص وهو موضع في بسيط من الأرض وفيه خيام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة ونخاعة وهم متقاربون في المنزل وبينهم نسب لم تُرْم فيه العصا (٢) ، ثم امتد بنا السير من خلوص إلى بدر وهي قرية كثيرة الخيرات كانت بإزاء موضع من مواضعها يقال له القلب وقعة النبي (صلى الله عليه وسلم) المباركة التي أعز الله تعالى بها الدين وفقهر المشركين (٣) ، ثم اتجهت إلى الصفراء في صدر النهار ، وهي تبعد من بدر بريدا ثم إلى الروحاء وهي موضع بئر يقال في الحكاية إن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان (٤) ، ثم رحلت أفوز في الهضاب والبطاح حتى أقيمت على المدينة المنورة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرم وصلت في الروضة التي بين القبر المقدس والمنبر الذي كان موطن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ركبت إلى قصر الإمارة حيث حلت ركاب الرشيد ، فأصبته إلى مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يقال له قصر العُرْجة ، وهو مزخرف بالصدف (٥) الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر يا قوت وز برجده (٦) ، فلما وقفت بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلفني به الأبرذور ، فأخبرته بما توسم في غايتها من الخير وما وجدت في البلاد من عدل العمال ودعائهم له في مساجد مصر

(١) ابن جبير ١٨٦ والأزرق .

(٢) تزيين الأسواق ١١٤

(٣) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزويني ٥١

(٤) ابن جبير ١٩١

(٥) المقدمة ٣٥٧

(٦) ابن خلكان ١ : ٣٨٣

والغرب ، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالته الخالفة ، فشكرني على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إلى ذلك الصفاء الذي كان يشرفني به من قبل ، ولما أذن لي بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة فوجدت في نفوسهم ما وجدت في نفس الرشيد ، ليس من تجافيتهم عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم في أمر ظننت أنه وقع بينهم وبينه في المشاعر المباركة بحيلة المدالسين . التي تصادف محلا في قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتي إليك عن رسالتي إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق هذه المواطن المقدسة أن أذكرك شيئا عن المدينة المنورة تبركا بذكره فأقول : إني وجدت المسجد المكرم قائما على أعمدة من الحجارة اللامعة ، وسقفه من الساج المزين بالرسوم^(١) ، وجدرانها منزلة بفصوص من الفسيفساء^(٢) تمثل أشجارا وثمارا وأزهارا بأبداع ما يكون من الصناعة ، وهي من عمل الروم والقبط^(٣) فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك^(٤) ، ووجدت الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤزرة إلى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت ، وأعلاها مضمخ بالمسك والطيب^(٥) ، ورأيت القبر المقدس مبنيًا برخام يقال إنه من عمل وردان^(٦) ، وعلى رأسه صندوق من الآبنوس محتم بالصنديل مصفح بالفضة طوله خمسة أشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلي أفدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر ، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجل أبي بكر

(١) ابن جبير والسيوطي .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢

(٣) القزويني ٧١

(٤) ابن الأثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧٢

(٥) ابن جبير ١٩٢

(٦) الأغاني ١٧ : ٨٤

رضى الله عنهما ، وعليهما قناديل من فضة وذهب^(١) ، وبين الركن الجوفى والركن الغربى من المسجد موضع عليه ستر مسبل يقال إنه مهبط جبريل^(٢) عليه السلام .

أما المدينة المنورة فإنها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام^(٣) بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة على قدم اختطاطها وعاقب شأنها بين مدن الحجاز . ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد^(٤) ، ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة^(٥) ، وفيها قصور لا يوجد فيما نقله السّفَرُ المخبرون ما هو أعظم منها في ديار العرب ، وأعظمها قصر للقداد بن الأسود في الموضع المعروف بالحرف^(٦) ، وهو مخصص الظاهر والباطن^(٧) ، وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكس وأبوابه من الساج والعرعر^(٨) وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى)^(٩) وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده ومشاهد أولاد على (عليه السلام) وفي موضع هذه القبور رخامة مكتوب عليها^(١٠) :

(١) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٩٣

(٣) الإنعان في تفسير القرآن ٢ : ١٦٧

(٤) ابن جبير ٢٠٠

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨

(٦) المسعودى ١ : ٣٣٣

(٧) المقدمة ١٧٨

(٨) المسعودى ١ : ٣٣٥

(٩) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ والمسعودى ٢ : ١٨٢

(١٠) ابن جبير ١٩٨

» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مبيد الأعداء ومحيي الرمم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم أجمعين .

فيها من قبور ما أشرفها وأكرمها .

وإلى مقربة من المدينة المنورة موضع يقال له قُبَاء (١) وفيه كان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذي أسس على التقوى والرضوان (٢) ، وفي صحبه شبه محراب على مصطبة يقال إنه أول موضع ركع فيه (٣) النبي (صلى الله عليه وسلم) وفي قبلته بئر معروفة ببئر أريس يقال إن النبي (صلى الله عليه وسلم) تفل فيها فعاد ماؤها عذبا صافيا بعد أن كان آجنا أجاجا ، وفيها سقط خاتمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدسة والقليل دليل على الكثير . وقد خص الله تعالى تلك البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخص به غيرها من البلاد . وهو مالك الملك لا رب غيره ولا معبود سواه .

الرشيد والبرامكة في مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه إليك من ظاهر الحيرة وأنا منفصل عن البرامكة في كتاب أحمله إلى الرقة من لدن الرشيد لأعلمك ما بينه وبينهم من الأمر العظيم . كان انفصالنا عن المدينة المنورة في غد اليوم الذي كتبت فيه هذه الرسالة ،

(١) ياقوت وتقويم البلدان .

(٢) أبو الفداء ١ : ١٣٢

(٣) ابن جبير ١٩٩

وعلمت فيما نقل إلى أبو زنج الهمداني صاحب جعفر^(١) (أيده الله) أن الرشيد إنما تحول عن البرامكة خوفا من ميل الناس إليهم بما أغدقوا عليهم من الجود والكرم ، فإنه كان إذا جلس في مكة للعطاء جلس معه يحيى فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس الأمين جلس معه الفضل فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثل عطائه ، ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعد في سعة الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مثلا بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر في مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأعطيات^(٢) وينشدون :

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجود أكفهم وأقداهم إلا لأعواد منبر

فأحدث ذلك في نفس الرشيد غيظا من تمام النعمة عليهم ، وانطلق المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتحويل أمرهم على الرشيد نخوفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا بقُعة رفموها إليه وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات^(٣) :

قل لأمين الله في أرضه ومن إليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا مثلك ما بينكما حد
أمرك مردود إلى أمره وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الفـ رُس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والنَد
ونحن نخشى أنه وارث ملكك إن غيبك اللحد

(١) الاغانى ١٧ : ٢٣

(٢) الفخرى .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى من كان بمكة من بنى هاشم ، وبعث إلى المدينة يستقدم أهل البلى والعقد ، وجادد البيعة بحضرتهم للمأمون بعد الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقبه بالمؤمن فصير ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء في مديحهم له ^(١) :

أبو أمين ومأمون ومؤمن أكرم به والدا برّا وما ولدا

ثم إنه ولي المأمون نراسان وهمذان إلى نحر المشرق ، وأحضر القصاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما فى عسكره من الأموال والخراثن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شىء ^(٢) ، وضم إلى القاسم الجزيرة والثغور والعواصم ، وفرق فى الناس نحو ألف ألف دينار ^(٣) ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحطّ من قدر البرامكة وما وقع فى نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خليفة أو سلطان . وهو يظن أنه يفعل هذا أمنا لمكروه من ناحيتهم وردا لمكيدة خافها من وراء ما كانوا يعارضونه من قبل فى قسمة الملك بين المأمون والمؤمن مع أنهم إذا لم تجر لهم مرافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حبا فيه ومنعا لوقوع الشقاق بين أولاده .

وكان مع ما فى قلبه من الموجدة يصانعهم ويظهر استرسال نفسه إليهم حتى لا يفطنوا إلى ما يريد بهم من المكروه ، فإذا جلسوا إليه أظهر الرضا عنهم وأقبل بالعطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء . فكان يغترهم بذلك منه إلا جعفر (حفظه الله) ، لأنه كان أعلم الناس بما فى نفسه من حب الأثرة حتى إذا أهده مسروقا غلامه ^(٤) قال لى والله إن فى إهدائه إلى هذا الغلام لحيلة لم يخف

(١) السيوطى .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٤) الأغانى ٣ : ١٤٠ والالتلدى ١٦٨

على أمرها . فإنه يوهما برضاه حتى لا نطن به سوءا فيما داخله من الحسد ، وقد أخبرني جبريل بن بختيشوع أن الرشيد إنما تحوّل عنهم بتحل الفضل بن الربيع الذي كان يذكر له ما على بايهم من الجيوش والأعوان ، ويخوفه استقواءهم في فارس وخراسان ونعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه حبا لأهل البيت ، ويتهمهم لديه باحتياز مال الجباية ^(١) وتصرفهم في الأمور بما يتشاءون ، والملوك لا تصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفا منهم بعد أن ملأ قلبه عداوة لهم ^(٢) .

هذا ما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة ^(٣) ، وقد تحوّل عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة في أحدهما . فأما استفحال ملكهم في الإسلام وتزلف الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائلة فإنه غير مضرّ بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخر في الملة إلا أن يكون ضعيف البصيرة فاطر الهمة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن سيفهم خادم لنصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولوا المراتب خمسين سنة في الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم إلى السلطان ، فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصولة بهم لا أن يدبّ فيه الطمع ويمدّ عينه إلى ما ادخروا لولدهم بعد أن دبروا دولته هذا التدبير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية علمت مقدار النفرة التي وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لي جعفر انظر كيف أنه يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه أننا أقننا ملكه ومهدنا أمره حتى صار يحسدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فوالله لئن لم يرجع عن غيه ليكون ذلك وبالا سريعا

(١) المقدمة ١٤

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٣) في الأغاني ٥ : ١١٣ أن الناس كانوا يتحدّثون بنحو الرشيد عن البرامكة قبل نكبتهم بأيام .

عليه ^(١) فقلت يا سيدى ليس للرشيده عنكم مرغب ولا أظنه يحرم دولته عنايتكم ، فقال تمهل على نفسك ، إن لنا فارس وخراسان ، فإن يجاهرنا بالعدوان يقيم في وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثر أخذت في تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ نأثر صدره ، وإنما أدمن الفكرة فيما يشغله من القلق ، وأمرنى بألا أفارق بابه في ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتّر عن السعاية إلى الرشيد ساعة من ليل أو نهار ويخوفه منه اشتراكه في مؤامرة جارية بينه وبين الفرس ، فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل إليه بتصنع العطف ليوهمه زوال ما بنفسه من الموجدة ، وكان جلوسى إليه في ذلك الوقت قد أقلقته كل القلق ، فرأى أن يفصلنى عن البرامكة بوجه لا يردّ على الملوك بأن يوجهنى إلى الرقة في كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إن بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى إنفاذك برسائلنا ، فكن عند رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلى البرامكة ألا أخالف أمره حتى نطمع في حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالحيرة في اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن إلى العمّر الذى بناحية الأنبار ^(٢) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف في ذلك الوقت حتى كان إذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم ^(٣) فاستبقى الأطباء على مائدته من كان مخالفا للبرامكة إلا جبريل بن بختيشوع ^(٤) ، وقد طوى عنه سرّ ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلا كلمة حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم ^(٥) ، وأنا اليوم أسير حثيثا حتى لا يفوتنى الرجوع إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحجاج .

(١) الاتليدى .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥١ .

(٣) المسعودى ٣ : ٢١١ .

(٤) ذكر ابن خلدون في المقدمة ١٦ أنه كان ينظر في طعام الرشيد .

(٥) الاتليدى والفخرى .

الرسالة العاشرة

« أصبت بسادة كانوا عيوننا بهم نسقي إذا انقطع الغمام »

أكتب هذه الرسالة إليك والدمع جار في الآفاق ليس على البرامكة وهم أحياء في الناس ، ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعقّت البلية رسوم محاسنها ، حتى كأنها طلل من هذه الأطلال التي يهجرها الأُنس ولا يقف عندها إلا الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرقة وافاني من قبل البرامكة رسول يستقدمني إليهم ويعلمني أن الكتاب الذي أحمله إلى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقيني عنده ويمتنعني من الرجوع إلى الحضرة لما داخله في من الريبة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الإشارة ، فأصابني من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للخيّن ، لأنني ما كنت أراني ناجيا من وقوع الغدر بي ووصول المكروه إليّ ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظنة بي بعد أن أدت رسالته حقها من الإخلاص ، وخدمته خدمة الناصح الأمين ، فلم أجد في نفسي علة إلا المودة التي بيني وبين البرامكة ، ^(١) فأتاني أن أنضم إليهم ، فقممت لساعتي وتبدلت بزّي زى الحجاز الجاف ثم ركبت إلى بغداد متذكرا كيلا يعرفني أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت في أهلها ذلك الخمول الذي يقع في الجماعة من هول عظيم ، ندلت بذلك على وقوع الأمر بينهم وبين الرشيد ، فأسرعت إلى منازلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا بالسيوف ، فاسودت الدنيا في عيني متلاّ قلبي من الوحشة وكدت أفقد إحساس رجليّ من الجهد ، إلا أنه لم يكن

(١) ذكره الأعاني ١ : ٢٥ و ٢ : ١٢٣ وقبض الرشيد على صنائب البرامكة ومن هو مشهور بمخالطتهم مذكور في كتب التاريخ .

لى وأنا طلبة الخليفة أن أطيل الوقوف تلقاء دورهم ، فرجعت أمشى على غير دراية لعل أصادف صديقا أتوحد إليه وأستطلع أخبارهم من قبله ، حتى وصلت إلى دار إسحق النديم ^(١) فدخلت الدار وحسرت اللثام عن وجهى ، فلما عرفنى تفرقت عيناه دموعا ، وقال بم أندب البرامكة ؟ أعزىك أم أعزى نفسى أم أعزى الأيام بفقدهم ، وبكى حتى خنقته العبرة ؟ وكنت فى ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ، ولم يكن إسحق يكلمنى عن أمرهم مع الرشيد إلا كلاما متقطعا ممزوجا بالزفرات .

قد علمت مما مضى إليك فى الرسالة السالفة موقف البرامكة مع الرشيد ، هو يحاول الإيقاع بهم حسدا على ماصار إليهم من النعمة ، وهم يسلكون معه مسلك المودة يرجع عما قام بنفسه من الحقد وإلا أثاروا الخراسانيين خروجا عليه فى دعوة اهل البيت . وعلمت أن الفضل بن الربيع كان موقنا بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة ، وأنه كان يخوف الرشيد مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة فى موقف بعيد عن التخلص من دهائهم ، إذ كانت الملوك طوع أمرهم وأموال الدولة كلها بأيديهم ، حتى ملأ صدره من عداوتهم . ثم علمت أن الرشيد كان قد أهداهم مسروقا غلامه ليوهمهم رضاه ولكك تعلم أنه كان بينه وبين هذا الغلام مواطاة على نقل أحاديثهم إليه وعد أنفاسهم عليهم ومراقبتهم فى جميع حركاتهم خديعة منه ، حتى إذا نقل إليه الكلام الذى كان يحدثنى به جعفر فى المشاعر المباركة عمد إلى هدر دمه الزكى ، ووجهنى إلى الرقة مثل المجرمين الذين فى نفوسهم تبعه من شر نعوذ بالله من سخطه .

وقد حدثنى إسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذى نكبهم فيه قد ركب إلى أرباض المدينة ومعه إسماعيل بن يحيى الهاشمى وجماعة من أقاربه ، وبينما هو

(١) فى الأغاني ه أن إسحق بقى ميالا مع البرامكة بعد مقتل جعفر .

يسير إذ نظر إلى موكب عظيم قد اعترضه عن بعد ، فقال لإسماعيل يا إسماعيل لمن هذا الموكب ؟ قال لأخيك جعفر ، فالتفت يميناً وشمالاً وإلى من معه فإذا هم شِردمة قليلون ، ثم نظر إلى الموكب الذى فيه جعفر فلم يره ، فقال يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبه ؟ فقال ياسيدى قد مضى أخوك فى طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال ما رأنا أهلاً لأن يزينا بموكبه ويحملنا بجيشه ، فقال عفوا يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ما تعداك ولا سار إلا بين يديك ثم سار حتى انتهى إلى ضيعة عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة ، فقال يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ فقال لأخيك جعفر فسكت الرشيد وتنفس فى كمد ثم سار وما زال بضيايع بعضها أعمر من بعض وكلما مرّ بضيعة سأل إسماعيل عنها فيقول هى لجعفر ولأخوته ، حتى وصل إلى الحضرة ، فلما خلا مجلسه قال يا إسماعيل انظر إلى البرامكة أغنيانهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا ، فإننى لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعة من ضيايع البرامكة ^(١) على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق فى جميع البلدان ؟ فقال إسماعيل يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأمواهم وجميع ما يملكون هؤلك ، فنظر إليه نظرة جبار وقال والله يا إسماعيل ما عدّ البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وإن الدولة لهم ، ولا نعمة لبني العباس إلا وهم المنعمون بها عليهم ، فقال أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمة ومواليه ، فقال والله يا إسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا وكأنى بك تخبرهم به فتتخذ به يداً عندهم ، وإنى أمرتك أن تكتم هذا الأمر فإنه لم يعلم به أحد عيرك ، ومتى بلغهم شيء مما جرى بينى وبينك علمت أنه ما أفشاه إلا أنت ، فقال يا أمير المؤمنين عوذ بالله أن مثلى يفشى سرك ، ثم ودعه وجاءه من الغد وهو فى محل من أمره يشرف على دجلة وبازائه منازل البرامكة التى كانت محفوفة باليمن والبركة ، فقال يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب وليس على باب دارى أحد ، فقال يا أمير المؤمنين

(١) الدميرى : ١٥٤ والعقد الفريد ٤ : ٣١

ناشدتك الله ألا يعلق بنفسك شيء من هذا ، فإنما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك ، وبابه باب من أبوابك فإذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون ؟ فقال والله إن البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتي إلى محبة العلويين وتعزير شيعتهم ، وأنا لا أصبر على ذلك ^(١) .

وكان جعفر في ذلك الوقت قد عزم على الركوب إلى خراسان ^(٢) وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من سوء ، فما أحب أن يتركهم بغير حراسة ، وإنما أبقى في يد الفضل رجالا يعرف فيهم الأمانة ليقمهم مكاييد الرشيد غير أن الرشيد قد فطن لما كان يباشره من تعبئة الجند فأيقن بالإشراف على الخطر ، إلا أن يتمحل في أمر يغلبه به قبل ركوبه إلى خراسان ، فأرسل إلى بني هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم جماعاتهم ، وأمر الفضل بن الربيع أن يحوط دور الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مزيد الشيباني ^(٣) أنه إذا ركب جعفر من الغد إلى دور الخلافة يبعث بمن يحوط البرامكة ويقبض عليهم ^(٤) ، واستبقى الأمر سرا لم يستخدم في قضائه إلا جماعة من أقاربه ^(٥) دون الغلمان الذين كان يغمرهم جودهم وكرمهم ، ثم أرسل في تلك الليلة إلى جعفر من يقول له إنه يمكنه من بيوت المال أن يتناول منها ما يشاء ، ويأخذ من الجند إلى خراسان من ينتخبه ويريده ، وإن أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة حتى لا يفطنوا لما أخذ في تدبيره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما في تحمل الرشيد من المصانعة والرياء ولكنه ظن أنه يريد استمالتهم ورجوعهم إلى الثقة به لا أنه يريد نكبتهم في صباح تلك الليلة .

(١) أبو الفداء ٣ : ١٧

(٢) ذكر الاتليدي أن جعفرا كان عازما على الركوب إلى خراسان في ذلك الوقت .

(٣) وقد تقدم أنه كان منحرفا عن البرامكة .

(٤) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد الفريد .

(٥) ابن خلكان ١ : ١٥٢

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسرورا (١) وقال له قد انتخبتك لأمر
لم أره محمدا ولا عبد الله ولا القاسم (٢) فحقق ظنى فيك واحذر أن تخالف فتهلك ،
فقال مسرور لك على إمرة مطاعة ، فمرنى بقتل نفسى أفعل ، فقال له امض
الساعة إلى الحديقة وحوطها بالحرس وضم إلى جماعة من الغلمان ثم اذهب إلى
جعفر وجئنى به وقل له إنه وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب فلا تدع
من معه يدخل بعده ، فإذا تمكنت منه فخذ رأسه ولا تراجعنى فى ذلك ، وإياك
إياك أن يفوتك الأمر . فسار مسرور إلى جعفر فأصابه فى دأره قد طرح نفسه
ليستريح ، فقال له يا سيدى أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة فى خريطة
البريد من خراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلد سيفه ثم ركب فى جماعة من الحرس
والجند ، لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به ، فلما دخل الباب طلع عليه
من فى الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلماناه وهم غير مأورين بالقتال ، فانفرد به
مسرور وبضعة عشر رجلا دخلوا معه الباب بفرد عليه السيف وصاح بمن معه
من العبيد فأهدروا دمه . وإنى لست أنسب الشر إلى مسرور هذا الخادم اللئيم ،
فما هو إلا ذنب من استرعاه وهو الرشيد ، ومن استرعى الذئب فقد ظلم ، ومع ذلك
إنى لا أبرئه من تبعة ذلك الإثم الفظيع ، ولا أرى بينه وبين شديد العقاب
إلا الموت الذى يساق بعده إلى دار العذاب .

هذا ما بلغنى من اسحق ثم سمعت فى أحاديث الناس أن جعفر لما صار
فى وسط الحديقة ولم يرمعه الجند ارتاع وندم على ركوبه فى تلك الساعة ، فقال
لمسرور يا أخى ما القضية ؟ فقال يا سيدى إن أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك ،
فقولون إن جعفر أبى حينئذ وجعل يقبل مسرورا ويقول له أنت تعلم إكرامى لك
ن خدم الرشيد وأن حاجاتك عندى مقضية فى جميع الأوقات ، وأنت تعرف

(١) الاتليدى والأغانى ١١ : ٥٤ وابن خلكان ١ : ١٥٢ وابن الأثير ٦ : ٦٣

(٢) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الأمين والمأمون والمؤمن أولاده .

مكأنى عند الرشيد وما يوجه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكونوا بلغوه عنى باطلا ، وهذه ألف ألف دينار ، وفى رواية عشرة آلاف ألف دينار أدفعها إليك الساعة وخائى أهيم على وجهى ، فقال لا سبيل إلى ذلك ، فقال احملنى إليه وقفنى بين يديه ولعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة فيصفح عنى ، فقال وهذا أيضا لا سبيل إليه ^(١) ، ولا يمكننى مراجعته ، فقال توقف عنى ساعة وامض إليه وقل له إنك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عد وافعل ما تريد ، وإنى أشهد الله وملائكته على أنى أشاطرك نعمتى وأوليك من الأمور جسيما إن فعلت ذلك وسلمت لى نفسى ، ولم يزل به وهو يبكى فيما يقولون طمعا فى الحياة حتى قال له ربما يكون ذلك ، ثم إنه وكل به غلمانا من السودان يحفظونه ومضى إلى الرشيد وهو جالس يقطر غضبا ، فلما رآه قال له ثكلك أمك ماذا فعلت ؟ قال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك ، قال فأين رأسه ؟ قال فى قبة الحديقة ، قال فأثنى به الساعة ^(٢) ، فرجع مسرورا وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلى الثانية بل سل سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدى الرشيد يشخب دما ، فيقولون إن الرشيد تنفس الصعداء وبكى بكاء شديدا ، وجعل يقول كالمعاتب يا جعفر ألم أحلك محل نفسى ؟ يا جعفر ما كافأتنى ولا عرفت حتى ولا حفظت عهدى ولا ذكرت نعمتى ولا فكرت فى صلاح أمرى يا جعفر قد غرتك نفسك فدار عليك الدهر ، وكان يقول ذلك وهو يقرع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة ، وكان ذلك بين سائح المحرم ^(٣) وأول صفر ^(٤) .

(١) الأغاني ١١ : ٥٤ والالتلدى ١٣٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) ابن خلكان ٣ : ١٥٢

(٤) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦

وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بي هذه الأخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفس الزكية بقضاء لا حيلة بعده إلا اللوعة والندم. فكنت مثل الرجل الذى يرى فى منامه هولا ينزل به وهولا يدرك سره . ولا يجد لنفسه مرداً يتقى به شره . وإن كان يسوءنى من الرشيد احتياله فى مصانعة البرامكة ^(١) قبل ركوب جعفر إلى خراسان ليذهلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظنا بزوال ما عنده من الموجدة ، مع أنه كان يضممر قتلهم ^(٢) (والعياذ بالله من شرور النيات) . فإنى ليسوءنى أكثر من ذلك تتبعه النعمة فيمن أخذه منهم (كشف الله الغمة عن قلوبهم) فقد بلغنى عن يحيى والفضل (واحرقناه) جهد شديد يقاسيانه فى الحبوس ، فإنهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه ، ويشتهيان الطعام تأتئهما به الحراس فلا يجدان من يطبخه لهما فيتوليان طبخه بأنفسهما ويقومان على القدر ^(٣) مع جلالته قدرهما فيأرحمنا هؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدرا ^(٤) تنعاه عليه الأيام . ويُسأل عنه فى يوم القيام . وإنى لأحسب جعفرا مع ما أصابه من الأمر الفظيع ؛ أكبر حظا من أبيه واخوته ، إذ قدم على ربه شهيدا فى دعوة أهل البيت ولم يصر إلى هذا الهوان ^(٥) الذى صاروا إليه وهم الذين عرفتهم عظماء الملة . والرؤساء من أهل التيجلة . والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منعة لم يكن مثلها لدولة من دول الإسلام .

(١) فى الأغانى ١١ : ٥٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة .

(٢) فى العقد ٣ : أنه كان يريد قتلهم .

(٣) الاتليدى ١٧٨

(٤) الفخرى .

(٥) ذكره هوان البرامكة فى محبسهم ابن الأثير وابن عبد ربه والابشهى والاتليدى وأبو الفرج

وغيرهم .

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو أستنبط حيلة لإتقاذهم مما يعانون من الشدة ، غير أنى رأيت الأمر لا يتم على الوجه الذى أرومه إلا بالقوة التى تغالب الحرس . ولما كانت جماعتنا فى بغداد فئة قليلة من الرجال وأكثرهم داخل فى جيش الخليفة وتحت إمرة العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة إلى فارس ليست من رأى الصواب ، ولم يكن إحجامى عن ذلك خوفا على نفسى من القتل لأن النفوس لا يعظم بذها فى سبيل البرامكة ، ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذى يضيق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس إلى الوصول إليهم أو الثأر بدمهم ، فقد بلغنى أنه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر لجعفر ؟ وهو يقول والسيف صلت فى يده . ياضل ما تجرى به العصا ، واجعفراه ، واسيداه . والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك ^(١) عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرز سيفه ، الكريمة نفسه على التضيق عليهم وتفريقهم فى الحبوس المنقطعة وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم ^(٢) حتى يقتلهم بالشدة التى هى أمر من القتل .

وقد مضى على اليوم فى بغداد وأنا متقطع النفس سبعة وأربعون يوما لم آل فيها جهدا للوصول إليهم فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال ، وكنت أحب أن ألقى أحدا من خدمهم وحجابهم فلم أظفر بواحد منهم فى بغداد ، وكأنى بهم قد تصدعوا فى الآفاق ^(٣) فى جملة من هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم ^(٤) ومن هو معروف بخالطتهم من العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب ، غير أنى رأيت فيمن بقى من الطامعين فيهم دموعا يسترونها عن العيون ، وما وجدت منهم إلا منقيض النفس ومن يذيبه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد فى لوم

(١) ابن الأثير ٦ . ٦٦

(٢) أبو الفداء ٢ : ٨ والأغانى ٨ : ٧٩ والالتلدى ١٧٤ وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) الالتلدى ١٧٤

(٤) الأغاني ٣ : ١٨٣

الرشيـد على قتلهم^(١) فما أذكر أنى نزلت مرة إلى السوق إلا نظرت رِقاع الأشعار
معلقة على الحيطان رثاء لجعفر وندبا للدنيا لما لحق أهله من النكبة الفظيعة . ومما
بقي في ذهني من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه الرقاشي أو أبا نواس^(٢) :

الان استرحنا واستراحت ركبنا	وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للطايا قد أمّنت من السرى	وطى الفيافي فدُفدا بعدد فدُفد
وقل للنايا قد ظفرت بجعفر	ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضيل تعطى	وقل للرزايا كل يوم تجددى
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً	أصيب بسيف هاشمى مهنداً

وقولهم^(٣) :

يامنزلاً لعب الزمان بأهله	فأبادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى	كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفرع من رآك وطالم	كنا إليك من المخاوف نفزع
ذهب الذين يعاش في أكفاهم	وبقي الذين حياتهم لا تنفع

وقرأت رقعة مكتوبا عليها هذه الأبيات وأظنها من نظم أنس بن أبي شيبخ
النصرى^(٤) صاحب جعفر برّد الله مضجعه وسقى ضريحه صيب الرحمة والرضوان :

(١) أبو المحاسن ١ : ٥٢٧ والفخرى وابن الأثير ٦ : ٧ والعقد الفريد والالتليدى .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٤ وأبو الفداء ٣ : ١٨ والمسعودى ٣ : ٢٧٩

(٣) الالتليدى ١٨٠

(٤) ذكره صاحب الأغاني ١٧ : ٣٣ وقال صاحب العقد الفريد إن الرشيـد قتله بعد نكبة

البرامكة ١ : ١٨٨

لعمرك ما في الموت عار على الفقى إذا لم تصبه في الحياة المعابر
ومن كان مما يُحدث الدهرُ جازعا فلا بد يوما أن يرى وهو صابر
فلا يبعدنك الله عنى جعفرًا بروحى ولو دارت على الدوائر
فأليت لا أنفك أبكىك ما دعت على فنٍ ورقاء أو طار طائر^(١)
وقال على بن أبى معاذ^(٢) :

يا أيها المغتر بالدهر	والدهر ذو صرْف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصولاته	وكن من الدهر على حذر
إن كنت ذا جَهل بتصريفه	فانظر إلى المصاوب بالחסر
وخذ من الدنيا صفا عيشها	واجر مع الدهر كما يحجرى
كان وزير القائم المرتضى	وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها	إليه فى البر وفى البحر
يشيّد الملك بآرائه	وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر فى ملكه	عشية الجمعة بالقصر
يطير فى الدنيا بأجناحه	يأمل طول الخلد والعمر
إذ عثر الدهر به عثرة	يا ويلنا من عثرة الدهر
فغودر البأس فى ليلة السـ	بقتيلا مطلع الفجر
وجيء بالشيخ وأولاده	يحيى معا فى الغل والأسر
والبرمكيين وأتباعهم	من كان فى الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد	كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أحدىثة	سبحان ذى السلطان والأمر

(١) الأغاني ١٥: ٣٦

(٢) المسعودى ٣: ٢٢٩

وقال سلم الخاسر :

خوت أنجم الجدوى وشئت يد النوى
هوت أنجم كانت لأبناء برمك
وغاضت بحار الجود بعد البرامك
بها يعرف الهادي طويل المناسك

وقال أشجع السلمي :

ولّى عن الدنيا بنو برمك
كأنما أيامهم كلها
فلو توالى الناس ما زادوا
وهى لأهل الأرض أعياد

وقال فيهم أيضا :

قد ساد دهر بني برمك
كانوا أولى الخير وهم أهله
ولم يدع فيهم لنا لقيا
فارتفع الخير عن الدنيا

وقال فيهم صالح الأعرابي :

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك
ألم يك يحيى وإلى الأرض كلها
وأى ملوك لم تخنبا دهورها ؟
فأضحى كمن وارته منها قبورها ؟

وقال واحد من بيت البرامكة في رثائهم وقيل بل هو سليمان الأعمى أخو مسلم
ابن الوليد :

أصبحت بسادة كانوا عيونا
فقلت وفي القواد ضريم نار
على اللذات والدنيا جميعا
جزعت عليك يا فضل بن يحيى
بهم نسقى اذا انقطع الغمام
وللعبرات من عيني انسجام
ودولة آل برمك السلام
ومن يجزع عليك فلا يلام
وعزّ بفقْدك القوم اللثام
حساما قدّه السيف الحسام
وما أبصرت قبلك يا ابن يحيى

الى أن يقول :

أألهو بعدكم وأقر عينا على اللهو بعدكم حرام
وكيف يطيب لي عيش وفضل أسير دونه البلد الشام
وجعفر ثاويا بالجرس أبلت محاسنه السائم والقّتام
أمر به فيغلبني بكائي ولكنّ البكاء له أكتنام
أقول وقت منتحبا لديه إلى أن كاد يفضحني القيام
أما والله لولا خوف واش وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول قبرك واستمنا كما للناس بالجحراستلام^(١)

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن في الدولة فلذلك منع الشعراء من رثائهم^(٢) وجعل عقاب من يُقدم على ذلك القتل^(٣) ، وأمر الحراس أن ينزعوا الرقاع التي علقت في الأسواق لئلا يثور ثائر الشعب من الشعب^(٤) ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التي كان يرومها من محو ذكرهم^(٥) وطمس معالمهم بعد أن زينوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت في قلوب الناس محبتهم^(٦) بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء . ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لا يقف عند ما كان يراه من وقوع الفتن في الدولة فربما وصل إليه أن فارس قد قامت فيها القيامة ، وأن خراسان^(٧) قد عصفت فيها ريح

(١) الأغاني ١٥ : ٣٦

(٢) الفخرى والنواجي والالتليدي .

(٣) الإسحاق ٩٨

(٤) أعلام الناس ١٧٤

(٥) ابن الأثير ٦ : ٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٢٦ وابن خلدان .

(٦) الالتليدي وابن الأثير والفخرى وأبو الفداء .

(٧) الالتليدي ١٧٤

الفتنة ، والمغرب قد تضعضع حكمه في يد ابن الأغلب ، والروم قد جاشوا في بلدهم وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم ، ولا أرى لهم بها استمناعا طويلا كما يشير أبو نواس إلى ذلك بقوله (١) :

ما رعى الدهر آل برمك لما أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع عهدا ليحيي غير راع ذمام آل الربيع (٢)

حتى إذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم يذنبهم العزم ولا الحزم على إبلاغ الرشيد بأنفسهم (٣) بل اتخذوا طريقة البلاغ على ألسنة الندماء ، وفي ذلك يقول الشاعر استخفافا بالأمر ، وهذا بعيد عن سياسات الدول (٤) :

نقض الذي أعطاه تقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غم أذاك به الإله كثير

فتأمل (رعاك الله) هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في أيام البرامكة (٥) كيف صارت إلى رجال لا رأى عندهم ولا عزيمة ، فإن يبلغك عن وهنها خبر فيما بعد فاعلم أن صدور هذا الفتور ناشئ عن فتور الصدور . وهذه الجنود التي تراها في قبضة الرشيد لا تتفع دولته ما لم يكن عنده عقل يديره سياسته ، فكم رأينا من دولة كانت في العالم عظمة فأعمى ساستها الجهل فأنحطت لفقدان الحكمة . ودولة كان أمرها في توائ فتولاها رجال كبراء أصلحوا ما فيها من الاختلال ، وصعدوا

(١) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول :

أيها الراكب المجد إلى الفضل — ل ترق فدون فضل حجاب
ونعم هبك قد وصلت إلى الفضل — ل فهل في يدك إلا التراب

(٢) المحاضرة ٣ : ١١٤

(٣) الأغاني ١٧ : ٤٦

(٤) السيوطي وابن خلدون وابن الأثير ٦ : ٦٦ والأغاني ١٧ : ٤٥ والمسعودي ١ : ١٥٨

(٥) الاتلدي .

بها من العزة المقام الذى لا ينال . وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطل السياسة والتدبير إذ ضم الإسلام إلى مصلحة واحدة من طرف المشرق إلى أقص ، المغرب ، ^(١) ثم أقام دولته على هذا الأساس المتين ، ثم تأمل ما صنع الحجاج بن يوسف وكيف أصالح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى جعل الجزيرة والحرمين أقرب إلى طاعة الأمويين من الشام ومصر ثم انظر إلى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبي مسلم (رحمه الله) وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد الفرس والأكراد إلا بسياسة خالد البرمكي الذى ضمن له الكفاية عليهم بالرأى ^(٢) دون الجنود . وانظر إلى دولة الرشيد كيف زهت فى وزارة البرامكة بما لم تزه به دولة ^(٣) الهادى ، ووزرائه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق إلى وهم الناس ، لأنه لم يكن لأبى مسلم من الرجال ما كان لملوك بنى أمية ولم يكن للرشيد ما كان للهادى قبله . وإنما كان المعز لها رجالا يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون . وفى ضوءها يسيرون ، ولا سيما هؤلاء البرامكة الأعجماء الذين حرم الرشيد دولته مشاركتهم له فيها وتدير شؤونها ، ولست أعلم ما يكون من أمره مع صُهب السبال ^(٤) ولقد قام به اليوم من الندم والآسف ^(٥) على جعفر والتلف على ما سبق به القضاء ما يشغله عن الدنيا قاطبة ، فقد أخبرنى من هو مقرب إليه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكى عليه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه إلا أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط

(١) نذكر هنا أنه ما توطد للإسلام ملك فى إفريقية إلا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٣) الزمخشري فى ربيع الأبرار .

(٤) هى لقب للروم .

(٥) الأغاني ١٧ : ٧٤

منه في امره (١) وإذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يحدونه من
الندماء (٢) ليستأنس بهم ويتسلى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل
السياسة في دولته وكثرة الأراجيف .

فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائرا على ألسنة الناس اختلفت
آراؤهم فيما دعا الرشيد إليها ، وإن كانت خواطرهم متوافقة في لومه والبكاء على جعفر .
فن قائل إنه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموال الجباية ،
حتى لقد كان يطلب السير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه ، ومن قائل إنه
حقيق على جعفر لتطاوله عليه في الكلام إذ كان يقول لى لئن لم يرجع الرشيد عن سوء
ظنه بهم ليكون ذلك وبالا سريعا عليه (٣) ، ومن قائل إنه تنغص من الفضل
ان يكون أكرم من أولاده ، ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لسانا وأحكم سياسة ،
ومن محمد أن يفضلهم في المروءة ، ومن موسى أن يغلبهم في الشجاعة فنكبتهم لذلك .
ولست أطيل عليك الكلام في أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالأرزاء
وسحب عليهم أذيال الفناء . ولو أنى كتبت إليك غير ما ذكرت ما بقي لدى إلا
البكاء والنحيب ، على أنى أحب أن أختم رسالتى إليك عنهم بذكر مأثرة من بعض
ما صنعوا إلى الورى من الجميل . وهى أن الرشيد (٤) مع تشديده في النهى عن
رثائهم بلغه أن رجلا يحضر ليلا إلى دورهم وينشد أشعارا ويذكر محاسنهم ومآثرهم

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٨

(٢) ابن خلكان ١ : ٣٢ وذ كر غيره أن الرشيد كثيرا ما كان يوجه خادمه في طلب بعض خواص
ولة ومن يكون عندهم حينما يطلبهم .

(٣) الاتليدى ١٦٨

(٤) هذه القصة قد وقعت للأمون لا للرشيد وإنما ذكرناها ها هنا تيمنا لحسن البرامكة .

ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف ، فدعا مسرورا هذا الخادم اللثيم وسأزه بالأمر وأمره بأن يمضى تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التي كانت مظهر الأُنس بما آتى الله أهلها من سعة الملك . وأن يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما له وأظنهما ياسرا ومروان ، حتى إذا جاء ذلك الشيخ وبكى وندب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما آخر الليل إلى تلك المنازل ، فإذا هم بغلام قد أقبل ومعه بساط وكري حديد ، وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وأثار نعمة ، بفلس على الكري وجعل يبكى وينتحب ويقول :

ولما رأيت السيف جَدَل جعفرًا ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففرع فرعا شديدا ، وقال دعونى حتى أوصى بوصية ، فإنى لا أوقن بعد اليوم بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلمها لغلامه ، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد ، فلما مثل بين يديه زجره وقال له من أنت ؟ وبم استوجب البرامكة منك ما تفعل فى حربات دورهم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادى خطيرة ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ؟ قال قل ، فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين واحتججت إلى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى وبيع بيتى الذى ولدت فيه أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية ، وليس معنا ما يباع أو يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها لأستتر بها فليستها وخرجت وتركتهن جياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد

فاذا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ متري بأحسن زي وزينة ، وعلى الباب خادمان ، وفي الجامع جماعة جلوس فطمعت في القوم ، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وكنت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، والعرق يسيل مني ، لأنها لم تكن صناعتي وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم ، فقاموا وقفت معهم حتى دخلنا جميعا دار يحيى بن خالد ، وإذا هو جالس على دكة في وسط بستان فيه أطيب الرياحين فسامنا عليه فرد علينا السلام وهو يعدنا مائة وواحدا ، وبين يديه عشرة من ولده وإذا بغلام أمرد قد عذر خداه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم متنطقون في أوساطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل واحد مجرة من الذهب ، في كل مجرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد قرن بها مثلها من العنبر بخمس الغلام بجانب يحيى ووضعت تلك المجامر بين يدي الغلام ، ثم قال يحيى للقاضي زوج بنتي عائشة من ابن عمي هذا نخطب القاضي خطبة الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار من بنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كبي ، ونظرت فإذا الحاضرون بالجلس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنى عشر رجلا ، وإذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صينية من فضة عليها ألف دينار ، فوضعوا بين يدي كل واحد منا صينية ، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم ، ويعملون الصواني تحت آباطهم ، ويقومون واحدا بعد واحد حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني خادم فخرت على أخذها ، وجعلت الذهب في كبي وأخذت الصينية بيدي ، ثم قمت وجعلت ألتفت خلفي مخافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم ايتني بهذا الرجل ، فرددت إليه ، فأمرني بصب الدنانير والصينية وما في كبي ، ثم قال اجلس فجلس ، فقال لي ممن الرجل ، ولم تلتفت خلفك ؟ فقصصت عليه قصتي فقال للخادم ايتني بولدي موسى ، فأتى به ، فقال يا بني هذا رجل غريب نفذه إليك واحفظه بنفسك ونعمتك ، فقبض موسى علي وأدخلني إلى دار من دوره

وأكرمنى غاية الإكرام وأقيمت عنده يومى وليلى فى ألد عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا أخاه محمدا وقال له إن الأمير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وغير خاف عليك اشتغالى اليوم فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وحوطه بنعمتك ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام ، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه العباس فبت ليلتى عنده بين غناء وأنوار وبهجة ثم تسلمنى أخوه خالد (١) ولم أزل فى أيدي البرامكة يتداولونى مدة عشرة أيام لأعرف خبر عيالى وأهلى أفى الأموات هم أم فى الأحياء . فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الحشم والغلمان فقالوا لى قم فانخرج إلى عيالك بسلام ، فقلت ويلاه سلبت الدنيا والصينىة وأنخرج إلى عيالى على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، ولما رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما يكن لك من حاجة فارفعها لى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، ثم بدت لى حجرة كالشمس بهاء وإشراقا ، واستقبلتنى منها رائحة الند والعود ونفحات المسك ، وإذا بصهيانى وأهلى يتقلبون فى الحرير والديباج ، وحمل إلى ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد وتلك الصينىة التى كنت أخذتها بى معها من الدنانير والبنادق ، وأقيمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أنا من البرامكة أم رجل غريب اصطنعوه ، فلما نزلت بهم الفاجعات أبجفنى عاملك على العراق وألزمى فى هاتين الضيعتين ما لا يفى دخلهما به . ولما تحامل على الدهر كنت فى آخر الليل أقصد منازلهم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم لى واشكر عطفهم على . فقال الرشيد كم أخذ منك هذا العامل ؟ قلت كذا وكذا ، قال هو مردود عليك وستبقى أنت وعيالك من بعدك على ما كان لك فى أيام البرامكة . فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة بكائه ، قال له يا هذا قد أحسنا إليك برد ما قد سلب منك فما يبكيك ؟ فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت منازلهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٨ من أولاد يحيى بن خالد .

خبري بأمر المؤمنين وفعل بي ما فعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، فدمعت
عينا الرشيد وظهر عليه الحزن ، وقال لعمري هذا من صنائع البرامكة فعلهم فاياك
وإياهم فاشكر^(١) ، ولله درأبي نواس حيث يقول في وداع الدنيا التي أوحشت
لفقدهم :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغاد^(٢)

(١) الفخرى والأتليدي ١٩٩ والأبشيس ١ : ٢٤٣

(٢) الطواط ١١٣

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتى اليوم إليك سطورا قد كتبتها بدموع العين وأنا بين حزن على هؤلاء الشهداء . وخوف من الرشيد أن يُعلمه بموضعى الرقباء فيقطعنى ما ينالنى منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم فى نراسان وفارس وسائر بلاد الخير واليمن ، لآتى علمت من بعض المقربين إليه أنه يطلبنى طلبا حثيثا ، وقد جعل لمن يأتيه بى مالا جزىلا ، وربما كان هذا الكتاب آخر عهدى بمراسلتك بعد اليوم وإن كنت قد رأيت فيما تقدّم إليك من الكتب السالفة أن العرب قد حصلوا فى زماننا هذا ما لم يختلج فى صدورهم زمن الخلائف ، ونبغوا النبغة التامة فى جميع الفنون والصناعات والمعارف ، وتبحروا فى حكمة الروم والفرس على اجتهد ، ودقنوا أصول الشريعة فى مذاهب صحيحة المبدأ جميلة المعاد ، فإنما الفضل فى ذلك كله عائد إلى البرامكة ، وهم الذين رفعوا منار العلم وقربوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعطيتهم بالمال الكثير ، وكان عصرهم تاجا^(١) على هامة الدهر ونورا أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة إلى سمو الارتفاع ، ومن عماية الجهل إلى نور الاطلاع . فما هو عندى إلا الزمن الذى يبقى موسوما عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والانتفاع بعلوم الأعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك^(٢) الذين كانوا جمال المشرق وحصن الإسلام وزينة العالم^(٣) ومنعة هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم إلا بالحيل والمكايد ، فإنك لتعلم أن الدعوة التى قام بأعبائها أبو مسلم (رحمه الله) إنما كانت لذرية النبى (صلى الله عليه وسلم) وهم أولاد الحسن والحسين (رضى الله عنهم) ولم يكن للعباسيين غرض فى انضمامهم إليها إلا مقارعة بنى أمية فى جملة من انضم

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٢) الزنجشبرى فى ربيع الأبرار .

(٣) يقول الحصرى ٢ : ١٠٣ إن أيامهم كانت روض الأزمنة .

إليها من أهل البيوتات ، حتى إذا خدّمهم السيف رأوا أن ينفردوا بالخلافة دونهم ، ويصرفوهم عنها بالحيلة التي كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العمال وإرهاق الرعية في الخراج ، حتى يوقع فيهم الفشل ويقعدهم عن الخروج عليه في دعوتهم ، فكان عطاء المسألة يرون ذلك منه ولكنهم لم يروا أن يحملوا الأمة على الخلاف ضنا بالنفوس الصالحة أن تسيل دماؤها في قتال المسلمين بالمسلمين ، فثبت له الملك من هذا الوجه ، لم ينازعه فيه إلا جماعات متفرقة من أهل الدعوة ومن كان لا يضمهم الغرض إلى جامعة واحدة في جميع الأنحاء ، فلم يستطيعوا مقاومته ولا بلغوا من غرضهم إلا أن جعلوا له سبيلا إلى غلب جماعة منهم بعد جماعة ، فلما تغلب عليه حب الولد نفع ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها للمهدى من بعده لم يكن في الناس إلا من ينغص ذلك عليه ، خاف الربيع أن تذهب الخلافة من ولده وله في مصيرها إلى المهدى مصلحة لا تكون في دولة غيره من أهل البيت ولا من العباسيين أنفسهم ، ففتق له عقله تلك الحيلة التي تسارع أهل الحل والعقد إلى تنفيذها خوفا من أبي جعفر لظنهم أنه حتى لم يمت ، فلما استوثق له الأمر استهل خلافته باستئالة الناس بالإحسان والمعروف حتى لا تنفر منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعة لسيرة أبيه ، وأقام لهم ديوان المظالم ورفع عنهم ضرائب الخراج ووسع لهم أسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم حتى استملح لغرضه وصاروا طوع يمينه ، فلم يبق عليه بعد ذلك إلا أن يأمن خروج أهل الدعوة في جمع غير متفرق فرأى أن يستميل إليه الحرم الآمن وهو الموضع الذي ينادى فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت ففرق في أهله الأموال الحسام . ووالى على عامتهم جزيل الإنعام ، وجدّد لهم بناء البيت الحرام وعهد إلى عظمائهم بالولايات والإمارات ، وأجرى الأرزاق الواسعة على من استخدم في الجند من أولادهم كما علمت . فلما آلت الخلافة إلى الهادي وصارت إرثا في بيت أبي جعفر رأى البرامكة برأيهم الصائب أن ليس للعلويين بعد ذلك كله مطمع في المشرق بإزاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصامهم ، فانصرفوا عن تدبير

أمر الحرمين إلى تمهيد الطريق لخلافتهم في المغرب ، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله إلى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت في إفريقية ويقنع بما دبروا له من السلطان العظيم الذي لم يكن مثله لأحد من الخلفاء قبله ، فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرعية بالدين والعطف بعد أن أئمنوه نروجهم في دعوة أهل البيت وبني أمية وغيرهم ، بفخرى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم برهة من الزمان ثم غلب عليه حب الأثرة فرجع إلى الشدة ونكّل بمن كان أحب الناس إليه .

هذه هي دولة العباسيين التي أشرقت شروق الشمس في البهاء والعظمة ، وإنها لتحتاج إلى رجال عقلاء يديرون سياستها ، لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بأموار الملك ما قامت لها قائمة بعد ذلك ، فاليوم أترك الإسلام بين رايات خضر وسود وبيض ، فأما العلويون فإنهم حائزون أمر المغرب وهم أهل سيف شديد الوطأة . وأما الأمويون فإنهم يرتقبون الخلافة من وراء البحار ، ويرومون إعادة الملك الذي ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم في دمشق ، والمسلمون في عرض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق ، فإذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهي متفرقة على أغراض لا تضمها إلى الوحدة فما الظن لو جمعتها عصبية الدين إلى جامعة الإسلام ففي المسلمين ملوك عظام أحسبهم ينتهبون إلى ما بهم من الانقسام . ويقيمون على أساس الجامعة دولة تهتر لها دول الروم والله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

الأسفار التي وجدت بين يدي وأسندت إليها رواية الرحالة
(علوم الدين والشرع)

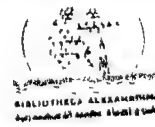
السنة	الطبع	
١٢٨٧	المطبعة الأميرية	الإتقان للسيوطي
١٨٥٣	بن	الأحكام السلطانية للآوردى
١٢٨٦	المطبعة الأميرية	رد المختار على الدر المختار لابن عابدين
١٢٧٦	القسطنطينية	مجمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك
١٢٨٧	مصر	كليات أبى البقاء ومطالعات فى صحيح البخارى وتفسيرى الزمخشري والبيضاوى
(علم اللغة)		
صباح الجوهري . المحيط للفيروزابادى . فقه اللغة للثعالبي		
(الممالك والبلدان)		
١٨٧٧	ليدن	أحسن التقاسيم فى معرفة البلدان والأقاليم للقدسى
١٨٧٢	»	المسالك والممالك لابن حوقل
١٨٥٢	»	' رحلة (إلى المشرق) لابن جبیر
١٨٦٦	ليبسيك	تم البلدان لياقوت
١٨٤٠	باريس	يم البلدان لأبى الفداء
١٨٦٥	»	مالك والممالك لابن خردادبة
١٨٣٧	»	مفيض المديد فى النيل السعيد لأحمد المنوفى
١٨٧٠	ليدن	مسالك الممالك للاصطخرى

السنة	الطبع	
١٢٧٠	المطبعة الأميرية	الخطط والآثار للقريزى
١٧٨٩	توبنك	آثار مصر لعبد اللطيف
—	رومية	زهة المشتاق فى اختراق الآفاق للدريسي
١٨٥٣	باريس	تحفة النظار فى عجائب الأسفار لابن بطوطة
١٨٤٨	غوتنغن	أخبار العباد وآثار البلاد للقزوينى
—	خط	جواهر البحور ووقائع الدهور لإبراهيم بن وصيف شاه
—	»	نشق الآثار فى عجائب الأقطار لمحمد بن إياس
(السير والاخبار وأيام الناس)		
١٢٩٠	المطبعة الاميرية	الكامل لابن الأثير
١٨٨٠	ليدن	تاريخ الملوك وأعمارهم للطبرى
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون
١٢٨٦	القسطنطينية	تاريخ أبى الفداء
١٨٥٨	غريفزولد	الآداب السلطانية والدول الإسلامية للفخرى
١٢٨٣	المطبعة الأميرية	مروج الذهب للسعودى
١٢٧٩	»	نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للقري
١٢٧٥	»	وفيات الأعيان لابن خالكان
١٦٦٣	اكسفورد	تاريخ الدول لأبى الفرج الملطى
—	المطبعة الأميرية	أخبار الدول والإسلام (الخميس)
—	خط	تاريخ الخلفاء للسيوطى
١٢٨٣	مصر	الأنس الجليل فى تاريخ المقدس والخليل للسيوطى
—	مصر طبع حجر	حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى

السنة	الطبع	
١٨٥١	لندن	النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي المحاسن ...
١٢٨٠	المطبعة الأميرية	إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس للأتليدي ...
—	خط	فتوح الشام للواقدي
١٢٩٠	المطبعة الأميرية	آثار الأول للقرماني
١٧٨٢	»	فوات الوفيات لمحمد بن شاكر
١٢٨٣	»	العقد الفريد لابن عبد ربه
١٢٨٦	تونس	المونس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار
—	خط	قضاة الشام لشرف الدين الأنصاري
١٣٠٠	مصر	لدول للإسحاق
—	—	تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين للشرقاوي ...
١٣٠٠	مصر	مطالعات في ابن الوردى والأزرقى
(العلوم الأدبية)		
الفهرست لأبي يعقوب الوراق :		
١٨٦٣	لندن	حاجي خليفة . كشف الظنون . عن العلوم والفنون ...
١٢٨٥	المطبعة الأميرية	الأغانى لأبي الفرج الأصبهاني
١٨٧٩	بيروت	المقدمة لابن خلدون
—	المطبعة الأميرية	مثل السائر لابن الأثير
١٢٩٩	القسطنطينية	ب الدنيا والدين للوردى
١٢٧٥	المطبعة الأميرية	ة الحيوان للدميري
١٨٤٩	كوتكن	بائب المخلوقات للقزويني

السنة	الطبع	
١٢٩١	المطبعة الأميرية	نخزاة الأدب لابن حجة
—	بيروت	مقامات الحريري
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	مجمع الأمثال للبداني
١٢٧٧	باريس	قلائد العقيان للفتح بن خاقان
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيمى
—	حجر	نهج البلاغة للإمام على كرم الله وجهه
—	خط	طبقات الشعراء لأبي عبيدة
١٢٧٨	مصر	شرح لامية ابن الوردى للقناوى
١٢٧٩	المطبعة الأميرية	سراج الملوكة للطرطوشى
١٢٨٦	»	الطبقات الكبرى للشعرانى
١٢٦٢	باريس	مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر
١٢٨٨	المطبعة الأميرية	الكنز المذفون والفلك المشحون للسيوطى
١٢٨٤	»	شرح مقامات الحريري للشريشى
—	خط	الكشكول لبهاء الدين العاملى
—	دمشق	يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر للشعالجى
—	—	زهر الآداب وثمر الألباب بهامش العقد الفريد للمصرى
١٢٨٤	المطبعة الأميرية	غرر النصائح الواضحة للوطواط
—	خط	سرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى
١٢٩١	المطبعة الأميرية	تزيين الأسواق فى أحوال العشاق لداود بن عمر
١٢٦٩	الموصل	فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه
١٢٥١	المطبعة الأميرية	كتاب ألف ليلة وليلة

السنة	الطبع	
١٢٩٠	المطبعة الأميرية	نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي ...
—	باريس	كليلة ودمنة لابن المقفع
—	المطبعة الأميرية	حلبة الكميت لشمس الدين النواجي
١٢٨٧	القسطنطينية	الموازنة بين أبي تمام والبحترى
—	—	مطالعات في لطائف العرب وربيع الأبرار للزخشرى وغير ذلك



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GOAL.)

Bibliotheca Alexandrina

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق

في يوم ١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٥٥

(٦ من يونيو سنة ١٩٣٦) م

مدير المطبعة الأميرية

أحمد أمين الجيهجت

To: www.al-mostafa.com